THE BOOK WAS DRENCHED

اهداء الكتاب

ألِفَ المؤلفون والكتّاب أن يبدأوا كتبهم عند
بإهدائها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيفُ العا
هذا الكتاب إلى كل مَنْ يقرأه من أديبٍ يجد
الأدب وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة وعا
من العلم ولغوىٍّ يصادف فيه أثراً من الفص
فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال احه

وأهديه إلى أرواح المرحو
لدين وا الأديب الوالد والحكيم جمال
عالم محمد عبده واللغوىّ الشنقيطىّ والشاعر البارودىّ
أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدَّبت بأدبهم وأخذت عنهم

وأهدى هذه الرسالة التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال
الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل
الفضل والأدب لما تضمنته من الحثّ على طلب العلم وأدب
النفس ولحسن أسلوبها فى كتب المودّات . وهى لا تزال عندى
إماماً يهدينى ونوراً أستضيء به فأردت أن أشاركهم فى هذه

الذخيرة التي يحق الضن بها والحرص عليها ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة . وإذا قدرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين في اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم ويبذلون في سبيل ذلك من الأموال والمساعي مالا يقدر فإني أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله :.

*

[illegible]

تقلبت في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسراتها

وخوضك في فنون الآداب يرجع فلولها علقت بك آمالها

وليس بعده الكرام إلا الأدعياء وذلك يوم فيه التحدي لها

ولقد تمثلت للطبقة المرسومة في معركة أخرى وبذلت نفسي من همتها

فاشتد إزرها وأكرم ما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها

حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بالباطل

أموالها [illegible] وسارتهم الظنون إلى مهواة سفاهتها وحسبوا أنهم يحسنون

صنعاً وليصلون [illegible] ولكن عن الحق لا ترجع نفسك ولا تنقص [illegible]

إلى المقصار عند محكمة لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال ولا موقف للعرفان

[illegible] بعز بنانك في مهنة ولا يهابي غيرك والسلام [illegible] محبكم [illegible]

[illegible]

حبيبي الفاضل

تقلُّبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها وخوضُك في فنون الآداب يريح قلوباً علّقتْ بك آمالها وليس بعد الإرهاص إلاّ الإعجاز ولك يومئذ التحدّي ولقد تمثلتْ اللطيفه الموسوّمه في مصر كرّة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى فاشدد أزرها وأبرمْ بما أُوتيتَ من الكياسة والحذق أمرها حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهُم بباطل أهوائها وساقتهم الظنون الى مهواة شقائها وحسبوا أنهم يُحسنون صنعا ويصلحون أمراً وكنْ عوناً للحق ولو على نفسك ولا تقفْ في سيرك إلى الفضائل عند عُجبك لانهاية للفضيلةِ ولا حدّ للكمال ولا موقف للعرفان وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام جمال الدين الحسيني الأفغاني

— ... —

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأميّ القرشيّ الأبطحيّ التهاميّ المكيّ المدنيّ وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فهذا الحديث حديث عيسى بن هشام وإن كان في نفسه موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرّجة في ثوب خيال لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ماعليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعيّن اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها . وهذه الطبعة الثانية بعد نفاد الطبعة الأولى تعهدناها بما تقتضيه معاودة النظر من اصلاح مواضع النقص والإهمال . ومداركة مالا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال ومن الله التوفيق لكل حال والتسديد في كل مقال وفعال

حدثنا عيسى بن هشام ـ قال رأيت فى المنام . كأنى فى صحراء «الإمام» . أمشى بين القبور والرجام . فى ليلة زهراء قمراء . يستر بياضها نجومَ الخضراء . فيكاد فى سَنا نورها ينظم الدرَّ ثاقبهُ . ويرقب الذرَّ راقبهُ . وكنت أحدّث نفسى بين تلك القبور . وفوق هاتيك الصخور . بغرور الإنسان وكبره . وشموخه بمجده وفخره . وإغراقه فى دعاويه . وتغاليه فى تعاليه . واستعظامه لنفسه . ونسيانه لرَمْسه . فقد شمخ الغرور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك . استكباراً لماجمع واستعلاء بما ملك . فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقّاً فى لحده . بعد أن وارى تحت صفائحه صحائف عزه ومجده . ومازلت أسير وأتفكر . وأجول وأتدبر . حتى تذكرت فى خُطاى فوق رمال الصحراء قولَ الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفّفِ الوطءَ ما أظن أديمَ الـ أرضِ إلا من هذه الأجساد

وقبيحٌ بنا وإن قَدُم العهدُ هوانُ الآباءِ والأجداد

سِرْ إن اسطعتَ فى الهواء رُويداً لا اختيالاً على رُفات العباد

فقرعتُ سن الندم . وخفّفتُ وطء القدم . وإنَّ فى دَهماء أولئك الأموات . وغُمار تلك الرمم والرفات . لمباسطاً لما حوّل العاشقُ قِبلتهُ

لقُبلتها . وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجتْ بغبار الغبراء . واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء

وتذكرتُ أن تلك الخدود التي كان يَغارُ منها الورد فيبكي بدموع الندَى . ويشتعل الفؤاد منها بنار الجوَى . ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران . أوابن ماء السماء في شقائق النعمان . ويترقرق فيها ماء الحياء وماء الشباب . فدطوى الدهر حسنها طيّ الكتاب . وصارت بحكم القضاء . أديماً لوجه الفضاء

وأن تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوكَ الصيد . فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد . وسحرت ببابلَ هاروتَ وماروت . وأوقفتْ موقف الاستكانة ربَّ الجلال والجبَروت . يلتمس ـ والتاج في يمينه . وعرَق الحياء فوق جبينه ـ من خلال لحظاتها قبولا . كسائل يمدُّ لالتماس الإحسان كشكولا . قد أمستْ ترابا تحت الرمس . كأن لم تفتِن بالأمس

وأن ذلك الفاحم الأثيث من الشعَّر . الخاطفَ ببريقهِ سواد القلب والبصر . قد حصدتْهُ من منابتهِ يدُ الزمن . فنسجَ الأجلُ منهُ ثوب الكفن

وأن تلك النهود التي كأنها حِقاق من لجَينٍ تزينت بحب من

المَرجان . أو كُراتٍ من جليد يَتَشَقَّقُ فيها زهر من الرمّان . قد أصبحت كالمخلاة على الصدر . تحمل الزاد لدود القبر :

كم صائنٍ عن قُبلةٍ خدَّهُ   سُلِّطتِ الأرضُ على خدِّهِ

وحاملٍ ثقَّلَ الثرى جيدَهُ   وكان يشكو الضعفَ من عِقدِهِ

وأن تلك الرُّفات والعظام . من بقايا الملوك العظام . الذين كانوا يستصغرون الأرض دارا . ويحاولون عند النجوم جوارا . وتلك الضلوعَ التي انحنت على البطش والحلم . والشفاهَ التي طالما لفظت أمر الحرب والسلم . — وتلك الأناملَ التي كانت تبرى القلم للكِتاب . وتبرى بالسيوف الرقاب . — وتلك الوجوهَ والرؤوس . التي استعبدت الأبدان والنفوس . وَوُصفتْ تارة بالبدور وتارة بالشموس . — قد تساوى الرئيس فيها بالمرؤوس . فلا تفريق اليوم ولا تمييز . بين الذليل منها والعزيز :

هو الموتُ مُثْرٍ عنده مثلُ مُقْتِرٍ

وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرَ ناكبِ

ودرعُ الفتى فى حكمِهِ درعُ غادةٍ

وأبياتُ كسرى من بيوت العناكب

فرُجِّلَ في غبراءَ والخطبُ فارسٌ
ومازال في الأهلين أشرفَ راكبِ
وما النعشُ إلا كالسفينة رامياً
بغرْقاهُ في موج الردى المتراكبِ

وبينا أنا في هذه المواعظ والعبر . وتلك الخواطر والفكر . أتأمل في عجائب الحدثان . وأعجب من تقلب الأزمان . مستغرقا في بدائع المقدور . مستهديا للبحث في أسرار البعث والنشور . إذا برجّةٍ عنيفة من خلفي . كادت تقضي بحتفي . فالتفتُّ التفاتة الخائف المذعور . فرأيت قبراً انشق من بين تلك القبور . وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة . عظيم الهامة . عليه بهاء المهابة والجلالة . ورُواء الشرف والنبالة . فصعقْتُ من هول الوَهَل والوَجَل . صعقةَ موسى يوم دُكّ الجبل . ولما أفقت من غشيتي . وانتبهت من دهشتي . أخذت أُسرع في مشيتي . فسمعته يناديني . وأبصرته يدانيني . فوقفت امتثالاً لأمره . واتقاء لشره . ثم دار الحديث بيننا وجرى . على نحو ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل وما عملك وما الذي جاء بك

فقلت في نفسي حقا إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين

فهو يسأل على أسلوبهما فاللهمَّ أنقذنى من الضيق . وأوسع لى فى الطريق . لأخلُص من مناقشة الحساب . وأكتفى شر هذا العذاب . ثم التفتُّ إليه فأجبته :

(عيسى بن هشام) — اسمى عيسى بن هشام وعملى صناعة الأقلام . وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر . فهى عندى أوعظ من خطب المنابر

(الدفين) — وأين دواتك يامعلم عيسى ودفترك

(عيسى بن هشام) — أنا لست من كتاب الحساب والديوان . ولكنى من كتاب الإنشاء والبيان

(الدفين) — لا بأس بك فاذهبْ أيها الكاتب المنشئ فاطلبْ لى ثيابى وليأتونى بفرسى « دهمان »

(عيسى بن هشام) — وأين يكون ياسيدى بيتكم فإنى لا أعرفه

(الدفين) مشمئزًّا — قل لى بالله من أى الأقطار أنت فإنه يظهر لى أنك لست من أهل مصر إذ ليس فى القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلى ناظر الجهادية المصرية

(عيسى بن هشام) — اعلمْ أيها الباشا أنى رجل من صميم أهل مصر ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت فى مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فاذا تفضلتَ

وأوضحت لى عن شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت اليه وأتيتك بما تطلبه

(الباشا) مغضبا — ما أراك أيها الكاتب إلا أنّ بعقلك دَخَلاً فمتى كان للبيوت أرقام تُعرف بها وهل هى « إفادات أحكام » أو « عساكر نظام » والأولى أن تناولنى رداءك أستتر به وتصاحبنى حتى أصل الى بيتى

(قال عيسى بن هشام) — فنزلت له عن ردائى — وقد كان المعهود أن سلب المارّة لا يكون إلاّ من قُطاع الطريق فإذا هو يكون أيضاً من سكان القبور — ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول

(الباشا) — للضرورة أحكام وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و « التبديل » فى الليالى التى كان يصرفها فى البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول

(عيسى بن هشام) — ماذا تريد

(الباشا) — أنسيتَ أننا فى الثلث الأخير من الليل وليس من يعرفنى بهذا الرداء على أبواب مصر ولم يكن معى كلمة « سرّ الليل » فكيف تُفتح لنا الأبواب

(عيسى بن هشام) - كما أنك يا سيدى لم نعرف أرقام البيوت ولم نسمع بها فى حياتك فأنا لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به

(الباشا) مستهزئاً ضاحكا - ألم أقل لك إنك غريب الديار ألم تعلم أن « سرّ الليل » كلمة تصدر من القلعة فى كل ليلة إلى « الضابطه » وإلى جميع « القره قولات » والأبواب فلا يجيزون لأحد مشى الليل إلاّ إذا كان حافظا لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفسح له وهي تعطى لمن يطلبها من الحكومة سراً لقضاء أشغاله بالليل وتتغير فى كل ليلة. فليلة تكون كلمة « عدس » وليلة تكون « خضار » وليله تكون « حمام » وليلة تكون « فراخ » وهلم جرّا

(عيسى بن هشام) - يظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير فى ليلهم . ومع ذلك فقد دنا الفجر ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات أو غيرها

(الباشا) - الأمر فى ذلك موكول إليك

قال عيسى بن هشام - فسرنا فى طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفا بنفسهِ ويقص علىّ من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التى

شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ويذكر لي ماشاء من مآثر محمد علي وشجاعة إبراهيم. ومازلنا على تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار إلى ساحة القلعة فوقف وقفة المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي ويخاطب القلعة بقوله في بلاغة تركيبه:

« إيه لك يامصدر النعم ومصرع الجبابرة من عتاة المماليك ويابيت الملك وحصن المملكة ومنبع العز ومهبط القوة ومرتفع المجد وموئل المستغيث وحمى المحتمي وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ومثوى البطل الشهم ومقبر الملك الهمام. أيها الحصن كم فككت بالكرم عانيا. وقيدت بالاحسان عافيا. وكم أرغمت أنوفا. وسللت سيوفا. وجمعت بين البأس والندى. وداورت بين الحياة والردى »

قال عيسى بن هشام — ثم التفت الباشا إليّ وقال: أسرع بنا نحو البيت لألبس ثيابي وأتقلد حسامي وأركب جوادي ثم أعود إلى القلعة فألثم أذيال وليّ النعم الداوريّ الأعظم

*
* *

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق وبينا نحن نسير إذ تعرّض لنا مُكارٍ يسوق حماره وقد راضه الخبيث على المعرض وسدّ الطريق على المارة فكلما سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمكاري

ينبح بصوت قد بحّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :

(المكارى للباشا) ـ اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك من الصباح

(الباشا للمكارى) ـ كيف تدعونى أيها الشقىّ الى ركوب الحمار وما رغبتُ فيه أبداً وما دعوتك فى طريق وكيف لمثلى أن يركب الحمار الناهق مكان الجواد السابق

(المكارى) ـ وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك فى طريق « الإمام » وقد دُعيتُ مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ولم ألتفت إليهم لارتباطى معك بتلك الإشارة فاركب معى أو أعطنى أُجرتى

(الباشا) وهو يدفع المكارى بيده ـ اذهب عنا أيها السفيه فلو كان سلاحى معى لقتلتك

(المكارى) متسافهاً فى القول ـ كيف تجسر على هذا الكلام فاما أن تعطينى أجرتى وإما أن تذهب معى إلى « القسم » وسترى هناك ما يعاقبونك بهِ على تهديدك إياى بالقتل

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ انى لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فهلمّ فاضربهُ

بالنيابة عني حتى نريحهُ من عيشته ونريحنا منهُ

(عيسى بن هشام) ـ كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام

(الباشا) ـ مالي أراك فدشق الخوفُ قلبك وقطع الهلع أنفاسك أيعتريك الخوف وأنت معي إن هذا لعجيب منك

(المكاري) مستهيناً ـ العفو! العفو! من هو أنت ومن هو غيرك ونحن في زمن الحرّيه لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين المكارى وبين الامير

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ ويحك هلمّ فاضربهُ أودعني أقتله

(عيسى بن هشام) ـ أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً مادمت معي واعلم أنهُ لا نصدر منا (مخالفه) أو «جنحة» أو «جنايه» إلا والعقاب من ورائها فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى وأقول لك ماقالهُ الخِضر لموسى عليه السلام «إنك لن تستطيعَ معيَ صبراً وكيف تصبر على مالم تُحِطْ بهِ خُبْرًا» والطريقة للتخلص من سفاهة هـذا السفيه أن أُعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا الى سوانا وأنا أسأل الله أن يبلغنا بيتك بالسلامه

(الباشا) ـ لا تعط هذا الكلب النابح درهما واحداً وقد أمرتك ان تضربهُ فان لم تفعل فانا أتنزّل إلى ضربه وتأديبه والفلاّح لا يصلح

جلدهُ الا بجلده

قال عيسى بن هشام ـ ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسعهُ ضربا وأخذ المكارى يستغيث وينادى با « بوليس » با « بوليس » وأنا أجتهد فى إنقاذه من مخالبه وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم وأقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عقباهُ فاتقِ الله أيها الأمير فى عباد الله . فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتغلبت عليهِ الحدة فتغير وجههُ وانقلبت حماليقهُ وتقلصت شفته واتسع منخره وضاق جبينه فخفت أن تحملهُ جنون الغضب على البطش بى مع المكارى فتداركت أمرى وقلت لهُ : مثلك أدام الله عزك لا ينزل لمثل هذا الفعل فأنت أرفع قدراً من أن تمسّ بيدك الشريفة مثل هذه الجيفة فسكّنت بذلك من حدته وعمدت الى المكارى فوضعت فى يده دراهم على غير علم من الباشا وطلبت منهُ أن ينصرف عنا فما ازداد اللئيم بذلك الا استغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ ألم أقل لك ان الفلاح لا يصلحهُ الا الضرب ألم تعلم ان غاية ما ينتهى اليهِ امره فى رفع الالم عنهُ ان يعلو صياحه استغاثةً بالمشايخ والاولياء . ولكن قل لى بالله هل «بوليس» هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىٌّ جديد

(عيسى بن هشام) ـ ثم ان هذا البوليس هو ولىّ الامر احتلت فيه القوّة الحاكمة

(الباشا) ـ لست افقه هذا المعنى فأوضحْ لى حقيقة هذا البوليس

(عيسى بن هشام) ـ هو «القوّاس» الذى نعرفه

(الباشا) ـ وأين هذا «القوّاس» الذى لا يسمع النداء فانى ارغب فى حُضوره ليلقى امرى فى هذا الشقى

(المكارى) ـ يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ هلم الى مساعدته فى نداء القوّاس

قال عيسى بن هشام ـ فقلت فى نفسى كيف انادى البوليس وانا احمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث . ثم التفتُّ الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى تراهُ أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياحٌ أو نداءٌ فانهُ مشتغل ببائع الفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليه وتبعهُ مَنْ تجمَّع حولنا من النظّارة فوجدوهْ واقفا وفى يده منديل أحمر قدامتلأ بأصناف متنوعة مما جمعهُ فى صباحه من باعة الاسواق فى محافظته على «النظام» وهو لاهٍ بصاحب الدكان يأمره ان يضم فى داخلها ماعرضه فى خارجها من عيدان القصب وفى يده عود

منها يهدده بهِ ويهزهُ في وجههِ هِزّة الرمح ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف امرأة ويناغيه حتى اذا أقبلنا نحوهُ أقبل علينا والمنديل في يدٍ وعود القصب في الاخرى

(البوليس للجمع) — ماهذا الصباح في الصباح وما هذا النداء وما هذا العناء كأن كل واحد من الاهالي يريد أن يكون لهُ واحد من البوليس خاص بخدمته

(المكاري) — أغثني « ياسعادة الجاويش » فان هذا الرجل ضربني ولم يعطني أجرني وأنت اعرفني في هذا « الموقف » وتعرف أنني است ممن يتشاجر أو يتخاصم

(الباشا) — خذ أيها القوّاس هذا السفيه وضعهُ في السجن حتى يأتيك أمري فيهِ

(البوليس للمكاري) — من أين ركب معك هذا الرجل يا « مرسي »

(المكاري) — ركب معي من جهة « الامام »

(الباشا للبوليس) — ماهذا الابطاء في تنفيذ أمري . أسرع به الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً — أظنك ايها الرجل من « مجاذيب الحضرة » في « الإمام » هلمّ معي الى القسم فان هيئتك تنبئ عن افلاسك

وعجزك عن دفع الاجرة

قال عيسى بن هشام — وجذب الشرطيّ صاحبي من ذراعه فكاد يُغمى عليه من الدهشة فلم يدر ما يصنع . وأودع البواب ما كان في يده من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذي أودع المكارى حماره عنده وسار صاحبي مسحوبا بذراع الشرطيّ والمكاري خلفهما واجتمع على اثرهم الى «القسم» فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدأ المكاري يصرخ ويصيح فنالها احد عساكر «المراسلة» فضربه لاسكاته لان «حضرة المعاون» غرق في نومه فدخلنا جميعا في حجرة «البوليس» اضبط الواقعة فوجدناه يأكل والقلمُ في أذنه وقد نزع «طربوشه» وخلع نعليه وحلّ ازرار ثيابه وبجانبه اثنان من الفلاحين اظنهما من اقربائه يشاهدان ما يتمتع بهِ من لدة الامر والنهي وسعة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة الملك وما في قدرته من حبس أي شخص كان وشهادته عليه بما يجري في هواه . فطرَدَنا جميعا من الحجرة حتى ينتهي من طعامه فخرجنا ننتظر وأراد الباشا ان يستند على الحائط من شدة ما ألمّ بهِ من الحزن فخانتهُ يدهُ فسقط فوق جنديّ كان يكنس الارض هناك فأخذ الجندى في السب والشتم ودخل الى حجرة «البوليس» هاجماً فقال لهُ ان المتهم الذي يشتكي منه المكاري

بعدّى عليّ « فى اثناء تأديه وظيفتى » فضربى بكل جسمه . فامر « الصول » باحضاره ونادى كاتبه العسكرىّ فطلب منهُ ان يحرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة وأملى عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم افهم منهُ حرفاً . وبعد ان شهد « البوليس » الذى جئنا معهُ فى محضر المخالفه بما ينفع العسكرى فى تأييد دعواهُ وشهد « الصول » نفسهُ فى محضر الجنحه بانهُ شاهد المتهم يتعدى على احد عساكر القسم فى اثناء تأديه وظيفته ختم المحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ الى « خشبة القفاس » وتحرير « ورقه التشبيه » جاء العسكرى صاحبُ الدعوى واخذ يمين صاحبي واجرى ذلك عليه بنفسه واذاقهُ أنواعاً من الاذى فى مفاسه . كل هذا والباشا كالمغشيّ عليه من الدهشة والذهول حتى اذا أفاق من غشيته التفت اليّ يقول :

(الباشا) ـ انا لا أتصور فى هذه الحالة التى انا عليها الا أن يكون اليومُ يوم حشر أو أن اكون حلماً فى المنام أو ان يكون الداوريُّ الاعظم غضب عليّ غضباً شديداً فأمر باهانتى على هذه الصورة الشنيعة

(عيسى بن هشام) ـ لابدّ لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام

قال عيسى بن هشام ـ ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا هل لهُ من ضامن يضمنه فقدّمتُ نفسى لضمانته فلم يقبلوا منى الا بتصديق « شيخ الحارة » فخرب فى أمرى ومن أين أجد « شيخ الحارة » فى الحال . فألقى بعضُ العساكر فى أذنى أن اخرجْ فانك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطهِ عشرة قروش للتصديق على الضمانة فخرجت ولحقنى ذلك العسكرى فدلنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا فى مناولة اجرة التصديق . ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر فى ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية ان يوقظوا المعاون من رقاده ثم مالبثوا ان رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب فى أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ووجدت مَنْ كان من بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصا على راحة المعاون فى منامه قد هجم على باب الحجرة فدفعهُ بكل قواه ففتحه واخذ يهزّ السرير هزاً عنيفا فاستيقظ المعاون فزعا وعلم ان « المفتش » قد شوهد داخلاً من باب القسم فاسرع الى ثيابه فلبسها فى لحظة وهرول الى استقباله فلما رآهُ وقف « وقفه النظام بعلامة التعظيم » ولكن كان من نكد طالعه انه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل

زرّهُ جهة اليمين بل تركهُ فوق الجبهة وكان الشعر قد تجدد في عارضيه لانه لم يتمكن من حلقه في يومه فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى الحجرة مغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته في الزيّ « للاوامر المسندية »

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرّة واحدة وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب وما شاهدهُ من حركات المعاون سألني عن شأن هذا الداخل الذي أورث ذلك الانقلاب فأعلمتهُ بأنه « المفتش » جاء إلى « القسم » للتفتيش والتنقيب في الاحوال والنظر في شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما تقضي به القانون والنظام . فقال اذاً فلندخل اليه لنعرض عليه ما اصابنا من الاهانة . فدخلنا فوقفنا أمامهُ فوجدناه يكتب في تقرير فالتفت الينا وسألنا عن أمرنا ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد العساكر باخراجنا من حضرته . ثم رأيناهُ قد وضع التقرير في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت في التفتيش والتنقيب لغير زيّ المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج في انحاء القسم الى أشد ما كان عليهِ قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين في شدة ألمه بأنهُ لا بد ان يشتكي عمال القسم الى

« النيابه » فدخل أحد العساكر الى المعاون ليخبره بما يقول الرجل فوضعت أذنى عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ولعنة الله على ضرورة الحاجة فى المعاش . ومع ذلك فالحمد لله اذ كان هذا المفتش من الانكليز ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه فى فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر فى التفتيش على طربوشى وحذائى ولو كان من « أولاد العرب » لاطّلع على الاختلال الواقع فى القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الاصول » . ثم التفت الى العسكرى وسمع منه ما ينقله اليه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية الى « النيابه » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم فذهبت الى المعاون وكلمته فيه لاطلاقه بعد ضمانى له فأبى ذلك وقال لى بوجه عبوس : الأولى أن يبقى فى القسم الى الغد حتى ينكشف على « السوابق » ثم يرسل من هنا الى النيابه . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ ولما تركت صاحبى فى حبسه وذهبت الى دارى بتّ طول ليلتى فى هم وأرق وقضيت رقادى فى اضطراب

وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتابعة وهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك مضي الزمن ولا يدري ما الحال ولا يعلم بتغيير الامور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الاحكام وانقلاب الدول . وكنت هممت أن أكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتي له لولا مادهمنا به القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألمّ بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأي عندي ان يبقى الرجل جاهلاً بالامر حتى ينتهي من خطبه ويكون جهله بتغيير الأحوال فأئما يعذره في التخلص من محاكمته ثم عقدت العزيمة على انى لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه مالم يرَ وأسمعه مالم يسمع وأشرح له ماخفي عليهِ وغمض من تاريخ العصر الحاضر لاطّلع على ما يكون من رأيهِ فيه عند مقابلته بالعصر الماضي ولأعلم أي العهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعاً وما هو الفصل الذي يكون لأحدهما على الآخر . فبكرت الى القسم في اليوم الثاني وحملت معي ما تبقى بصاحبي من الثياب ليرتديها عند خروجهِ من حبسهِ فوجدت العسكري يستعد بهِ للذهاب الى قلم « السوابق » في دار المحافظة فلما بصر بي ناداني بقوله :

(الباشا) ـ ما هذه الخطوب والملمات قد كنت أظن ان ماوقع

لى فى أمس كان لسخط ولىّ نعمتنا الداورىّ الأعظم وغضبهِ على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية افتراها حسادى فلذلك صبرت لحكم الضرورة وامتثلت على تلك الصورة حتى اتمكن من التشرف بالاعتاب والمثول بين يدى مالك الرقاب فأزيل الشبهة وأنفى الريبة وابرأ لهُ مما رمانى بهِ الساعى والواشى وأجلى لهُ حقيقة عبوديتى واخلاصى فيضاعف علىّ رضاهُ لحسن ماقمت بهِ من الطاعة فى احتمال هذا الهوان

طال منى تحملٌ خلتُ أنى قابضٌ من أذاته فوق جمرِ

ثم انى أعمد بعد ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب فى هؤلاء الادنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء مااجترؤا عليهِ فى معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ولكنى سمعت فى الحبس ـ وياسوء ما سمعت ـ وعلمت ـ وياشر ماعلمت ـ ان الدول دالت والأحوال حالت وانكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان وفى حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى : « انهُ هو والباشا فى المنزلة سواء » وتلك التى :

تُصمُّ السميعَ وتعمى البصير ويُسأل من مثلها العافيهْ

فاللهمَّ عفوك وصفحك هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت

المراتب وانحلت الرئاسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشيّ على حبشيّ فضل ولا لأمير منا على مصريّ أمر . ذلك مالا يكون ولا تحتملهُ الظنون . ثم اعلم أَيها الرجل ان ذنب أولئك السفهاء فيما جنوهُ عليّ لا يعدّ في جانب ذنبك عندي الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر لكتمانك عليّ الامر حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذاك شأنه وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن

(عيسى بن هشام) — انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قالهُ موسى للخضر عليهما السلام « لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تُرهقني من أمري عسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورثني التبلد والتحير ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك الى ما تغيرت بهِ الحال من بعد عهدك وما كدت أنتبه الى تعريفك بها حتى دُهينا بذلك المكاري ودُهمنا بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما أتيت والعذر مقبول لديك فاصبرْ على ما تلاقيه . واحتمل ما أنت فيهِ . وتقبَّل القضاء . بوجه الرضاء . ولا تأسَ على مافات . لتكفر عنك السيئات

(العسكري للباشا) — هلم الى السوابق

(الباشا) ـ سبحان العزيز القادر أتُرى قد زال عنى بؤسى وانقشع نحسى ورجع الىّ عزى فجاءونى بموكبى وخيلى

(عيسى بن هشام) ـ ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد الصافنات . والعتاق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيّد فيه سحنة المتهم وسماه . ويكشف فيه عما جنته يداه

(العسكرى للباشا) وهو يسحبهُ ـ لا تُطلْ فى الكلام وامشِ معى سا كتاً سا كناً

(الباشا) وهو يمتنع ـ ما الحيلة فى القضاء وما العمل فى المقدور وكيف الخلاص وأين النجاة ومن لى بالموت ثانية ليردنى الى راحة القبر

(عيسى بن هشام) وهو يتضرع ـ أقسمت عليك بدفين القلعة ووقع سيوفك فى المعمعة الا ما قبلت نصيحتى وعملت بمشورتى فلا تعارض ولا تعاند فان الامتناع لا يفيد ولا يزيدنا فى ملمتنا الا شدة . والعقلُ يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وان نلبس لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها

(الباشا) ممتثلاً ـ اللهمّ لا رأى مع القضاء

قال عيسى بن هشام ـ وسرنا مع العسكرى فوصلنا الى « قلم السوابق وتحقيق الشخصية » فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع

لهُ القلوب وتشيب منه النواصي جَرّدوه من ثيابه وفحصوا بدنه عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسده وحدّقوا في عينيه وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس الصُّعَداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانة لأن المعاون قاتله الله رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانتي لبجوزله الحبس . فأرسلونا مع العسكري الى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا أمامهُ قضايا جمة وأصحابُها مزدحمون ينتظرون دورهم فانفردنا ناحيـة ننتظر دورنا أيضاً والتفت اليّ صاحبي يسأل ويستفهم :

(الباشا) ــ أين نحن الآن ومن هــذا الغلام وما هذا الزحام

(عيسى بن هشام) ــ نحن أمام النيابة وهــذا عضو النيابة وهؤلاء أرباب الدعاوى

(الباشا) ــ وما هي النيابة

(عيسى بن هشام) ــ النيابة في هــذا النظام الجـديد هي سلطة قضائية مكلفة باقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية والغرضُ من إنشائها ان لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء

(الباشا) ــ وما هي الهيئة الاجتماعية التي تنوب عنها

(عيسى بن هشام) ـ هي مجموع الامة

(الباشا) ـ ومن هو هـذا الأمير العظيم الذى اتفقت الامة عليه لينوب عنها

(عيسى بن هشام) ـ ليس هـذا الذى تراهُ بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسـلهُ أبوهُ الى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى فى الأمة ولاية الدماء والاعراض والاموال

(الباشا) ـ نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة وللشهيد فى الجنة أعلى الدرجات ولـكن كيف تصور عقولكم ـ وأظنكم فقدتموها ـ أن تجتمع الشهادة فى سبيل الله والحياة فى الدنيا لأحد من الناس. والذى يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكم الناسَ فلاّحٌ وينوب عن الأمة حرّاث . ويشهد الله أنى خرجت من شدة الى شدة وانتهيت من خطب الى خطب فسلّمت وصبرت ولـكن لا صبر لى على هذه الخارقة فما أعظم الفاجعة وأشقّ النازلة . لقد فَنِىَ منى الصبر . ومن لى بفِناء القبر

(عيسى بن هشام) ـ اعـلم أن هـذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد بل هى ورقة يأخذها التلميذ فى نهاية دروسهِ ليثبت بهـا أنه

تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك

(الباشا) ـ مه مه كأنك تريد الإجازة التى يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غير أننا ما سمعنا فى دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا ان الأزهر الشريف يعرف ماهى الفرنكات أو نفقه من العُملة سوى الجرايات

(عيسى بن هشام) ـ ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم افرنجية يتلقونها فى بلاد الافرنج . والفرنك عملة تلك البلاد . ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهى قيمة لا تذكر بالنسبة الى كثرة فوائدها لأن القاعدة فى هذا النظام « ان الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » وصاحب الشهادة إذا قدّمها للحكومة يكون لهُ الحق فى الاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويرقى

(الباشا) ـ الآن كدت أفهم . وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكى الروزنامجه » فى أيام حكومتنا

قال عيسى بن هشام ـ وبينا نحن فى هذا الحديث اذا بشابين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطِران فى مِشيتهما والطِيبُ ينتشر فى الجو من

أردانهما وهما يصعّران خدهما كبراً واختيالاً . ولا يلتفتان الى مَنْ حولهما تيهاً أو إعجاباً . أحدهما يشق الهواء بعصاه . والثانى تلعب «بالنظارة» يداه . فشخصتْ فيهما الانظار . وتحولت نحوهما الأبصار . والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا الى باب النائب فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا ان ينصرفوا من حضرته واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم وطردهم ونهرهم واشتغل النائب بطىّ المحاضر ورفع المحابر حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ يظهر لى ان هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء أو أنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم

(عيسى بن هشام) ـ ما أظنهما الا زائرين من قرناء النائب فى المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما

(الباشا) ـ وهذا أعجب وأعجب .

قال عيسى بن هشام — وأردت أن أخبر خبرهما وأكتشف أمرهما فانتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت فى عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى فسمعت هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس — لماذا تركتنا أمس

أيها الخبيث من قبل ان ينتهى اللعب

(النائب) ـ لانهُ كان قد مضى من الليل أكثرهُ وعندى من القضايا مايضطرنى الى التبكير

(الزائر الثانى) ـ وهل سمع أحد ان القضايا تعوق الانسان عن مجالسة الاخوان . ومثل هذا العذر يُعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها أَوَلم تعلم ان فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق منهم قضايا اليوم كله اكثر من ساعة واحدة وأخص بالذكر منهم فلاناً فانهُ يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منهُ ويستغنى عن مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للاحاطة بفهمها . ومادام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة و«البوليس» فالأَولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها اليهِ لاستيفائها ولا محل لتجديد التحقيق بعدهُ وتضييع الوقت سدى فيما عساهُ أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى

(النائب) ـ ذلك ما أفعله ولكن لابد من التمسك « بالظواهر والاصول » على قدر الامكان

(الزائر الاول)ـ أفما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيكهُ

(النائب)ـ صدقت ان الكاتب ليكفى . والقول الصحيح

ان السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ولم يبق منه الا النزر اليسير ونحن لا نزال فى أوائله

(الزائر الاول) ـ تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائما مهما ربحت ومهما كسبت وما سمعتُ منك فى عمرى الا انك خسران . أفلم تربح منى فى « اليد الاخيرة » التى كانت بيننا خمسة جنيهات

(النائب)ـ وحقّ شرفى وذمتى ومستقبلى انى قمت من عندكم أمس بالخسارة

(الزائر الثانى)ـ ما علينا . ولكن قل لى هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه الى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة

(النائب)ـ أسألك المسامحة فانه لا يمكننى ذلك أولاً لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبنى وثانيا لانى دعوت «مادموازيل فلانه» المشخصة فى «الاوبرا» مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء فى الازبكية عند «سانتى» وسنذهب بعد ذلك الى «خان الخليلى» و «قصبة رضوان» و «مقابر الخلفاء» وبعض

المحلات القديمة من البلد للتفكه والتسلى

(الزائر الاول) ـ دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر إلا النزر اليسير فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات

(النائب) ـ فاتنى أن أذكر لكما ان معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبهُ العمدة

(الزائر الثانى) ـ وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هذا المجلس الأفرنجى أو يستريحان لهُ وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الاوروبية

(النائب) ـ ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحبا لاهل القضاء وأمنية الفلاّح ان يحتكّ بنا والرغبةُ عند أمثالهما عظيمة فى حضور المجالس الافرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضبًا ـ من أين اشتريت هذا «الكراڤات» (رباط الرقبة)

(النائب) ـ ما اشتريته يا «مونشير» (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز

(الزائر الثانى) ـ هل بلغك زواج فلان بمعشوقته

(الزائر الاول) ـ هل ركبت مع فلان فى الاوتوموبيل (الدراجة الكهربائية)

(النائب) ـ قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول

(الزائر الاول) ـ أنا أعرفه فهو الغرام

(النائب) ـ لا

(الزائر) ـ المال

(النائب) ـ لا

(الزائر) ـ المرض

(النائب) ـ لا . وانما هى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها

(الزائر الاول) ـ وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته

(النائب) ـ سيرته

(الزائر) ـ لا

(النائب) ـ وطنيته

(الزائر) ـ لا

(النائب) ـ فرنسويته

(الزائر) ـ لا . وانما هى انكليزيته

قال عيسى بن هشام فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكمني وعدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق بهِ وهو يحاوره فوقفت عن بُعدٍ أسمع ما يدور بينهما

(السمسار) — اعلم ان المحامى يدير القضاء فى يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرئ من يشاء وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع إشارته ورهن كلمته وكالخاتم فى إصبعه فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء الا بأمره وانت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالمروءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والامانة وله مقام سامٍ بين القضاة والحكام فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضي وخدين النائب ووكيل «البرنس» ولو شاهدتَهُ ياسيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنس وأوقات السرور يُشَارِبهُمُ ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكهم ويناظرهم ويقامرهم لأيقنتَ فى الحال ان كل طلب له يجاب وليس لأمره

من رادّ فالمجرم برئ والبرئ جانٍ على حسب المراد . فقل لى حينئذٍ عن مقدار ما تستطيع دفعه من « مقدم الاتعاب » فى تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) ـ أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبي عن هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فإذا استفهمتُ عنه . . . . .

(السمسار) مقاطعاً ـ لا لزوم للاستفهام من أحد فها هو حضرة المحامى قد أقبل لمقابلة « النائب العمومى » فانا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك

(ويسرع السمسار الى مكالمة المحامى بعد أن يوسع له فى الطريق ويسلم عليه بسلام الامراء حتى يصل به الى جانب الباشا)

(المحامى) بصوت عال ـ انا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى هذه الايام لتراكم الاعمال وتزاحم القضايا فلم يبق عندى وقت للطعام وللشراب فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم

(السمسار) ـ سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وبما جبلت عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء ان تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة

(المحامى) — لا أرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك

(وينصرف المحامى بعد مصافحته للباشا)

(السمسار للباشا) — هلمّ فادفع عشرين جنيهاً

(الباشا) — ليس عندى الآن شىء من الدراهم

(السمسار) — اعطنى تحويلاً

(الباشا) — أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعاً

(السمسار) — كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامى أمامى

(الباشا) — أنا لم أتفق مع أحد فاتركنى وانصرف

(السمسار) — كيف تنكر اتفاقك مع المحامى بعد أن وضعت يدك فى يده

(الباشا) — عفوك اللهم ولطفك! ومن يصبر على هذه الحال. أشرت بيدى فى حديثى مع صاحبى فوقعت فى حادثة المكارى وها أنا قد صافحت المحامى فصرت مديناً بعشرين جنيها ففى أى العوالم انا وبين أى المخلوقات

قال عيسى بن هشام — ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع مع السمسار فى حادثة أخرى فأدركته وبخت الرجل

على احتياله وتوعدته بالشرورَفع الأمر الى النائب العمومى إن لم ينته عنا. فخلّفنا وانصرف. ونادى الحاجبُ أرباب القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهياً فى حديثه مع زائريه وأشار لنا بالتقدم الى الكاتب فتقدمت مع صاحبى وشرعت فى بسط القضية وبيان ماقاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افترائه فالتفت النائب الى الكاتب وقال له: لاتقبل كلاما فى البوليس ولا تسمع فيه طعنا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه. ثم نظر فى الساعة فوجد الميعاد قد حلّ فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه. فقلت لصاحبى الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابى للمدافعة عنك

(الباشا) ـ قل لى بالله ماهو المحامى عندكم

(عيسى بن هشام) ـ هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامى وسمساره. وهؤلاء بعينهم هم الذين يعنيهم علاء الدين الكندى بقوله :

ماوكلاء الحكم إن خاصموا الا شياطين أو لو باس
قوم غدا شرهم فاضلاً عنهم فباعوه على الناس

***

قال عيسى بن هشام ـ ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة . فوجدنا في ساحتها اقواماً ذوى وجوه مكفهرة . وألوان مصفرة . وأنفاس مقطوعة . وأكف مرفوعة . وشاهدنا باطلاً يذكر . وحقاً ينكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد . وشاهداً يتردد . وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبد . ومحامياً يستعد . وأماً تنوح . وطفلاً يصيح . وفتاة تتلهف . وشيخاً يتأفف . وسمعنا ألفاظاً متناقضة . وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميين . عن الخصمين . يشحذ كل منهما لسانه . ويقدح جنانه . استعداداً للنزال . في ميادين المقال . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم . ورفع التهمة والجرم . فانزويت بصاحبي . ومحامينا بجانبي . يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية » . وظروفاً وأحوالا . وشروحاً وأقوالا . ومواد وفقرات . في الجنح والمخالفات . ثم تصفح محاضره . ويقلب دفاتره . ويقسم لنا بوكيد الأيمان . إن الباشا من تهمته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال .

بما تقتضيه الحال . ولما سألني عن هذه الملحمة . قلت له هي المحكمة

(الباشا) ـ قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير ما أرى فهل أصابها الدهر فيما اصاب بالتغيير والانقلاب

(عيسى بن هشام) ـ هذه هي المحكمة الاهلية لا المحكمة الشرعية

(الباشا) ـ وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية

(عيسى بن هشام) ـ للقضاء في هذه البلاد على ماتشتهي محاكم متعددة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الاهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الادارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية دع المحكمة المخصوصة

(الباشا) ـ ماهذا الخلط . وماهذا الخبط . وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقاً واحزاباً . وقبائل وافخاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ماعهدناهم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الغراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان

(عيسى بن هشام) ـ ليس الأمر على ماتتوهم وتخيل فلم يتفرق المصريون فرقاً ولم يتوزعوا شعوباً بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة

يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب فى القضاء والحكم . وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً

أما المحاكم الشرعية فقد جُرّدت من النظر والحكم فى عامة المخاصمات واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل فى هذا الباب

(الباشا) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه وهل أصبحتم فى الزمن الذى يعنيه القائل بقوله :

قد نُسِخَ الشرعُ فى زمانهمُ فليتهم مثل شرعهم نُسخوا

(عيسى بن هشام) — لم يُنسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ على الدهر ما بقى فى العالم إنصاف وفى الامم عدل ولكنه كنز أهمله أهله ودرة أغفلها تجارها فلم يلتفتوا الى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دون الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلفوا فى الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة الى الخيال وتعدوا الممكن الى المحال فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والحبر الفهامة منهم أن يبدع فى التفنن للإغماض فى الحق الأبلج والتعقيد فى الحنيفية السمحة

ولم ينتبهوا يوماً الى ماتجرى بهِ أحكام الزمن فى دورته ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ماتستقيم بهِ المصلحة بين الناس بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولا يتحلحلون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيهِ ولا عمل فكانوا سبباً فى تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن العقد وقلة الغَناء فيهِ لانتصاف الناس فى معايشهم ومرافقهم على حسب ماتتجدد بهِ حالات الزمن وتتخالف عليهِ اشكال العصور. ومن هنا تولدت الحاجة إلى انشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية.

(الباشا) — ماأظن الا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه فى الدين عذرٌ واضح فى النزول الى هذه الحال السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع أومن جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر فصدّهم عن سواء السبيل وأرعاهم هذا المرعى الوبيل

(عيسى بن هشام) — لم يكن من ذلك شيء على الاطلاق فالإرادات مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحدثان ولكنه فساد فى التربية عمّ أمرهُ وانتشر وانحطاطٌ فى الاخلاق عظم بلاؤه

اشتهر سكنت اليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم وقد تمكن منهم
اء التحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن
استولى على قلوبهم الجبنُ والخوَر وعلى عقولهم الضعفُ والخبل وعلى
فوسهم الفتور والكسل فوصلوا الى الحال التي يرون بها السنة بدعةً
البدعة سنة والفضيلة نقيصةً والنقيصة فضيلةً وأقاموا يتعسفون
ى الحكم ولا ينصفون . ويتفكهون فى الدين ولا يتفقهون . وصرفهم
حب المال . عن صالح الاعمال . وألهاهم مايدخرونه من زخرف الحياة
لدنيا . عما يُدخر لهم فى الدار الاخرى . فنحن الذين فعلنا كل هذا
أنفسنا . منا الاثم والوزر . وعلينا الذنب والإصر

وأما المحاكم الاهلية فهى القضاء الذى يقضى على الرعية اليوم
فى جميع الخصومات طبقاً لنص القانون

(الباشا) ـ القانون « الهمايونى »

(عيسى بن هشام) ـ القانون « الامبراطورى »

(الباشا) ـ ماعهدت منك ان تُعجم وتُبهم

(عيسى بن هشام) ـ لا إعجام ولا إبهام فهو قانون نابليون
امبراطور الفرنسويين

(الباشا) ـ وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم

مرة أخرى

(عيسى بن هشام) ـ لا . وانما نحن الذين أدخلنا أنفسنا بأنفسنا في حكمهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

(الباشا) ـ وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهرة والاّ فانهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله

(عيسى بن هشام) ـ المسألة فيها خلاف فالإجماع تام عند علماء الشريعة في السر والنجوى على أنهُ مخالف للشرع وأنّ كل من يقضي به داخلٌ تحت نص الآية الشريفة: «ومَن لَمْ يحكم بما أنزل اللّهُ فأولئك هم الفاسقون» . ولكن يظهر أنهُ مطابق عندهم للشرع في حالة الجهر والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبرائهم عند نشر هذا القانون وهو يومئذ مفتي نظارة الحقانية فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التي أفتاها بأن هذا القانون الفرنسوي غير مخالف للشرع الاسلامي . وان كان لاعقاب في هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المفسوق به ان تجاوز عمره الثانية عشرة بيوم واحد . ولاعقاب فيهِ على من يزني بأمه اذا هي رضيت به وكانت غير متزوجة . وهو الذي يعدّ الأخ مجرماً جانياً اذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعةِ عنهُ وكذلك بقية أهلها ماعدا زوجها . وهو الذي يحكم بالزام المدينين بدفع الربا

لمدانيهم . وهو الذى يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذى لا يعاقب الزوج اذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه

واما المحاكم المختلطة — وقضاتها من الاجانب — فهى تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الاهالى والاجانب وبين الاجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية أعنى في قضايا المال . ولما كان الاجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدّهم وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانيهم كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بدّ أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهى تختص بالنظر في عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته — وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه — وحدُّها فى العقاب الرفت والحرمان من المعاش وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجعٌ فيهِ الى المحاكم الاهلية

وأما المجالس الادارية فهى تختص بعقاب من يخالف اللوائح والاوامر والمنشورات . وشرحُ ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهى تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضاً على الاهالى فى مسائل القرعة وماشا كلها

وأما المحاكم القنصلية فهى تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الاجنبي على المصرى ومن الاجنبى على الاجنبى من جنس واحد. فاذا وقعت جناية من أجنبي على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التى عددتها لك بالنظر فيها بل يرتدّ الجانى بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه فينظر قضاتهُ هناك فى أمره والغالب فى مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل : « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى ـ وضياع معالم القضية ـ وعدم توفر الشهود »

وأما المحكمة المخصوصة فهى تختص بمعاقبة الاهالى عند تعديهم على الجنود الاجنبية

(الباشا) ـ ما زلتَ تسمعنى الغريب وتفهمنى غير مفهوم. ومن أعجب ما سمعت ان المصريّ يتعدى على الجندىّ

قال عيسى بن هشام ـ وبينا نحن في هذا الحديث إذا رجّ المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى وهو فى عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجههُ حسنا. ويشا كل فى القد غصنا. وكأنه طائر فى مشيته. من نشاطه وخفته. ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن دور القضية ثم عدت إلى صاحبي ومكثنا في الانتظار زمناً طويلاً الى ان جاء

الدور ونودي الباشا فدخل مع المحامي فى الجلسة وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتى «١٢٤» و « ١٢٦ » عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية » فى أثناء تأدية وظيفته وبالمادة « ٣٤٦ » مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف

(القاضى للمتهم) ــ «هل فعلت هذه التهمة»

(المتهم) ــ لم أفعل

قال عيسى بن هشام وجاؤا بى شاهداً فسألنى القاضى عما أعلمه فى هذه الواقعة فأجبته :

(عيسى بن هشام) ــ ان لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهي انهُ . . . .

(القاضى) مقاطعاً ــ لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية وقل لى عن «معلوماتك» فيها

(عيسى بن هشام) ــ «معلوماتى» هى انى كنت أزور المقابر ذات ليلة فى وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار . . .

(القاضى) مستثقلاً ــ لا لزوم لكثرة الكلام وأجبنى على النقطة التى سألتك عنها فقط

(عيسى بن هشام) ــ ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو انى

رأيت رجلا خرج من ...

(القاضى) متململاً ـ قلت لك انى لا أقبل التطويل ولا الشرح في الواقعة ولـكن هل ضرب المتهمُ العسكرىّ والحمَّارَ أم لا

(عيسى بن هشام) ـ ما ضرب المتهمُ الحمَّارَ وانما دفعه عنهُ من شدة إلحاحهِ وما ضرب العسكريَّ وانما سقط عليهِ مما غشيهُ بغير عمد ولا قصد وهو يجهل ....

(القاضى) ـ يكفى. يكفى. هلمّ «النيابة»

(النائب) ـ «ان هذا الباشا متهمٌ بتعديه بالضرب على أحد رجال البوليس فى أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهمٌ بالتعدى بالإيذاء على مرسى الحمار. والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الاوراق واطلاع المحكمة عليها كاف وبناء عليهِ فالنيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة لان حالة المتهم تستدعى ذلك فانهُ يتخيل ان رتبتهُ تجعلهُ خارجاً عن سلطة القانون وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منهُ شأناً فيؤدبهم بنفسهِ مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولاشك ان تشديد العقوبة عليـهِ واجب لاعتبار امثاله بهِ وللمساواة فى العدالة وأفوض الامر الى المحكمة»

(القاضى للمحامى) ـ المحاماة . مع الاختصار

(المحامى) بعد أن يتنحنح ويقلب فى أوراقه ـ « اننا نتعجب من ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل وقوع الجرائم ياحضرة القاضي والاصل فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يقصد منه . . . .

(القاضى) مشمئزاً ـ اختصر ياحضرة المحامى وادخل فى الموضوع

(المحامى) ـ . . . ومن المعلوم ان نظام الترتيب ياحضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعيه يقضى . . . .

(القاضى) متضجراً ـ اختصر . يابك .

(المحامى) ـ الموضوع يقتضى ذلك

(القاضى متأففاً) ـ لالزوم له

(المحامي متحيراً) ـ قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أقوالها) ونحن نقول اننا لو سلمنا جدلاً . . . .

(القاضى) مغضباً ـ يكفى . يابك . الموضوع

(المحامى) متلعثماً مضطرباً ـ ان هـذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم وله حديث منشور فى الجرائد ـ وهذه أعداد جريدة

« مصباح الشرق » تطلعون عليها ـ وقد اعترضهُ فى طريقه أحد المكارين فدفعهُ عن نفسه والناس يعلمون إلحاح الحمّارة وسوء أدبهم ومثل هذه الطبقات التى ليس فيها تربية . . .

(القاضى) نافداً صبره ـ قلنا اختصر . يابك

(المحامى) وهو يتصبب عرقاً ـ . . . ولما توجه المتهم الى القسم أُغمى عليهِ فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكنس ارض القسم بغير ملابسه الرسمية . وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات الى دعوى البوليس : ولا عقاب على المتهم ألبتة لانهُ كان فى عصر غير عصرنا وفى نظام خلاف نظامنا ولم تبلغهُ دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالاحوال وان . . . .

(القاضى) منفعلاً ضارباً بيده على المكتبة ـ المحكمة تنورت يابك ولا لزوم للكلام مطلقا فهلم طلباتك

(المحامى) ساخطًا فى نفسهِ ـ طلباتنا هى اننا نطلب من باب أصلى الحكم ببراءة المتهم وان رأت المحكمة غير ذلك فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٣٥٢ عقوبات»

قال عيسى بن هشام ـ وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفا بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون

العقوبات وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات . فضاقت الارض بى وأظلمت الدنيا فى عينى وكدت اشترك مع صاحبى فى الذهول والاغماء لولا ان المحامى أكد لى كل التأكيد انهُ لابد من البراءة فى محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولكن يجب مع ذلك ان نرفع عريضة شكوى الى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير فى القضية عند نظرها فى الاستئناف ثم قال لى اعلم ان السبب فى كل ماصدر عن هذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنهُ مدعوٌّ فى وليمة بعض رفقائهِ عند الظهر تماماو أمامهُ فى دور القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتى عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد

وأطعنا إشارة المحامى فقدمنا عريضة الى « لجنة المراقبة » ولما طلبنا منهُ أن يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها تنحى عن استصحابنا وقال انهُ كان يود مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعهُ ان يعلم القاضى بسعيه فى التظلم منهُ فيتعمد فى المستقبل أذاهُ وينصرف همهُ الى نكايته بسبب شكايته والمحامى فى حاجة دائمة الى اجتلاب رضا القاضى واجتناب غضبه فقبلتُ عذره ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبنى وهو يشتد فى الإباء ويلجّ فى الامتناع بقوله :

(الباشا) ـ يكفيني ما قد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القَدَر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسي ان يجتمع عليها ذلاّن في سلك واحد ذلُّ المتحمل للظلم المستكنّ للجور وذلُّ المشتكي الضارع والمتظلم الخاضع . فإليك عني لا تكن عوناً للخطوب . ومفتاحاً للكروب . وصدَقَ ابنُ يعقوب : « ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني اليهِ » . ويعلم الله لولا عذاب النار . لفرّجت عن همي بالانتحار . وبودي لو يبدل حكم الحبس بالاعدام . لأخلص من هذه الأوصاب والآلام . وقد عشت دهري ماعلمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجري عندنا في عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة وللأمراء الامتياز على كل حال فان كان ثَمّ لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون

(عيسى بن هشام) ـ ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع . ولا أتوقع منك مثل هذا الخوَر والهلع . وأنت البطل الجريّ والشجاع المقدم وما الشجاعة الا في التصبر على المكروه والتجلد للخطوب تلقاها بوجهٍ طَلْق وصدر رحب وتترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمـــر له فُرجةٌ كحلّ العقالِ

وأنت عندي الحازم الأرشد . والعاقل المُسدَّد . وما العقل الا نفاذ الرأى فى كشف المُلمة . وتسديد الحيلة فى إزاحة الغُمة . وأمامنا اليوم طرق مسنونة ووسائل مشروعة لاغضاضة علينا فى ولوجها ولا مضاضة فى سلوكها . واعلمْ أن تبدل الازمان وتقلب الحدثان يغير من مبانى الأمور ويكيف فى اعتبار الأشياء فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر فى الغد رذيلة وما كان يعدّه الناس فى الزمن الماضى نقيصة يعدونه فى الحاضر كمالاً . وان كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنعة ويقوم ركنُه على البأس والبطش فان الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون . فهلم نسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهى بالخلاص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء ان يقبل الانسان نظام الاحكام فى البلد التى اتخذها داراً واختارها مُقاماً

(الباشا) ـ لطعمُ الموت الزُّؤام . أهونُ من هذا الكلام . وللشربُ من حميم آن . آثرُ من احتمال هذا الهوان

قال عيسى بن هشام ـ فاعتلّت عليّ وجوه الآراء . فى صرف صاحبى عن الامتناع والإباء . وكدت أيأس من بلوغ الغاية . فى

باب النصيحه والهداية .لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى، في طريقنا بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

المؤيد والمقطم !! الاهرام ومصر !!

الاربعة بقرش

(الباشا) ـ ماذا أسمع من الاعاجيب ! أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع فى الاسواق بالمزاد

قد اختلّ الانامُ بغير شكّ فَجدُّوا فى الزمان أو آلعبوهُ

(عيسى بن هشام) ـ ما هى بالآثار ولا بالبلاد ولكنها اسماء انتُحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) ـ لعلك تعنى «جرائد الصيارفة ويومياتهم» أو «جرائد الالتزام» ولكن ما وجه هذه التعمية فى التسمية

(عيسى بن هشام) ـ ليس الامر كما ذهبتَ اليه ولكن الجرائد هى اوراق تُطبع فى كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تجمع وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس وهى أثر من آثار المدنية الغربية انتقل الينا منها فيما انتقل . والأصل في وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة والذم للرذيلة والنقدُ على ما قبح من الاعمال والحث على ما حسن من الأفعال والتنبيهُ الى مواضع الخلل

والتحضيضُ على اصلاح الزلل وتعريفُ الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لا تجرى بها الى غير المصلحة وتعريفُ الحكومة بحاجات الأمة لتسعى فى قضائها . وبالجملة فان أصحابها هم فى مقام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت الشريعة الاسلامية اليهم

(الباشا) ــ قد كنا نسمع فى زماننا بشيء من هذا القبيل يقال لهُ «غازيته» وكانت تصدرعندنا واحدة منها بالتركيةاسمها«روزنامه وقائع» وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تدوّن فيهما المدائح والتهاني ويذكر فيهما انتقال الركاب العالى . ولكن ان كانت الجرائد قدارتقت اليوم الى ماتزعم فلابد أن يكون قداشتغل بها واهتمّ بأمرها كبراء العلماء الاعلام وعظماء المشايخ الكرام ولنعمت الوسيلة وحسنت الطريقة فى تبليغ الناس ما يصلحهم فى معاشهم وينفعهم فى معادهم . فعليّ بواحدة منها

(عيسى بن هشام) ــ علماؤنا ومشايخنا — ويغفر الله لهم — هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونهُ فضولاً تنهى عنه الشريعة وتداخلاً فيما لا يعنى فلا يأبهون بها وربما اختلفوا فى كراهة

الاطـلاع عليها أو إباحته . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بهـا والتكـفف على أى حالة كانت فلاتجد بينهم فرقا وبين أهل الحرف وباعة الاسواق فِي الغش والخـداع والـكـذب والنفـاق والمـكر والاحتيال للاستلاب والاغتيال

عَمَّروا موضـعَ التصنع فيهم ومكانُ الإِخلاص منهم خرابُ

فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سفل قدرها عند الخاصة وأصبـح ما كان يُرَجى فيها من النفع دون ماتجلبهُ من الضرر . ومن العـقلاء من لا يزال يرجو من الايام أن تدور يوما بتهذيب هذه الحال ورفع هذه الصناعة الى الدرجة اللائقة بهـا من الشرف وعلو القدر . والحـكمُ كلهُ للقارئين فى الاقبال على ماينفع والانصراف عمـا يضر « فأما الزَّبَدُ فيـذهبُ جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكُثُ فى الأرض » . ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعا وفتحت واحدة أقرأ على صاحبى نُتفاً من أخبارها فوقع نظرى فيها على كلام طويل عن الحـكم على أحمد سيف الدين فأسمعتهُ ماجاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش فى سجنه واستدرار الدموع لما يلاقيهِ هذا الغلام من ضيق السجن وهومَن

سلالة الولاة والامراء . ثم قلت لهُ بعد انتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو:

(عيسى بن هشام) — انظرْ أيها الباشا كيف وصلتْ بنا الحال في المساواة وقد علمتَ ما اصاب «البرنس» أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليهِ فكيف تترفع نفسك بعد ذلك وتأبى الخضوع للقانون والامتثال لأحكامهِ والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيهِ

(الباشا) — ماهو «البرنس» . ومن هو أحمد سيف الدين

(عيسى بن هشام) — اما «البرنس» فهو لقبٌ أجنبي قديم كان يتقلب بهِ رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترؤا على الأمة بانتحال لقب «امبراطور» ثم صار يُطلق بعدهم في أوربا على اعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويطلقهُ اليوم على أنفسهم اعضاء «العائلة الخديوية» ذكوراً وإناثاً وإنْ كان لاذكر لهُ بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية . واما أحمد سيف الدين هذا فهو احمد بن ابراهيم بن احمد بن ابراهيم بن محمد علي جد الأسرة الخديوية وعميدها وقد ارتكب جناية فسحبوهُ الى المحاكم واستحق العقاب الذي يقضي بهِ القانون فحكمت عليهِ المحكمة الابتدائية بالسجن

سبع سنوات فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف فأنقصوا المدة الى خمس سنوات ثم استغاث بمحكمة النقض والابرام فلم تغثه . وقد انصرفت المساعى لاتفاق اعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه وذهبت أمه يميناً وشمالاً فلم تبق وسيلة من وسائل الاسترحام الاسلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون فان سيفه ماض فى كل الرقاب وسلطانه نافذ فى كل الرؤوس . فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسك من السعى وراء « لجنة المراقبة » و « محكمة الاستئناف » وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ماعلمت

(الباشا) - نعم كيف لاتخرّ الجبال الشمّ . اذا استنزلوا منها الأَرَاوِىّ العُصْم . وكيف لا تنشقّ القبور . وينفخ فى الصور . وقد انحط المقام وسفل القَذَر . وحقت كلمة ربك على مصر : « فجعلنا عَالِيَهَا سَافِلَهَا » . وما دام حفيد محمد على فى السجن على ماتروى يخضع لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمه بتلك الشفاعات فما عليّ من عارٍ فيما تدعونى اليهِ فاذهبْ بى الى حيث تريد . وليتهم كانوا يقبلون منى ان أكون فداءً لابن سادتى وأولياء نعمتى فتضاف عقوبته الى عقوبتى

قال عيسى بن هشام ـ فسرّنى من الباشا مطاوعته اياى وقبوله لنصيحتى ورضى بالتوجه الى نظارة الحقانية فسار معى وهو مختنق بدمعه متعثر بقدمه . ولما وصلنا اليها قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وهممنا بالدخول فى حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلب منا « الكارت »

(الباشا) مستفهماً ـ مامعنى هذا اللفظ الأعجمى

(عيسى بن هشام) ـ «الكارت» بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم والوظيفة أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المَزُور بالخيار فى قبول الزيارة أو التملص منها

(الباشا) ـ لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة فى أيامنا لكل من يطرقها . وكيف ينطبق هذا التضييق على ماتصفه لى من المساواة فى الحقوق والانصاف فى الأحكام

(عيسى بن هشام) ـ لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من لجاجة صاحب حاجة فوُضِعتْ هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم

(الباشا) ـ ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصدّ من ذكرتَ عن الدنوّ منهم والتجرىء عليهم

قال عيسى بن هشام ـ وبادرت الى القلم فكتبت ورقة باسم الباشا

وسلمتها للحاجب فجأنا بعد الانتظار بالإِذن فدخلنا فوجدنا أمامنا فتىً من أجمل الفتيان . قد أرسل لحيته قبل الاوان . يتموج تحتها ماء الشباب . كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب . رأيت في يده جريدة حساب . يجمع في أرقامها . ويضرب في أعدادها . ثم يضع يده على جبهته . كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته . وعن يمينهِ كتاب أعجميّ . وعن شمالهِ كتاب عربيّ . فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسوي الملحد . وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا فذكرت له العريضة التي قدمناها وقصصت عليهِ القصة وشرحت له ماعاملنا بهِ القاضي من سوء المقاطعة في الشهادة والمرافعة . وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقولهِ :

(الباشا) ـ وأدهى مافي القضية وأمرّ مافي الامر أن الذي تسمونه « النائب » اعتبر رتبتي سبباً لأهانتي وما كنت أتخيل في الاحلام ان الرتبة التي نلتها باقتحام الاخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لاتغتفر وبرهاناً قاطعاً لديه في تشييد دعواه يطلب بهِ تشديد العقوبة . فقولوا لي بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام . ومِنْ أي صنف أنتم بين صنوف الانام

قال عيسى بن هشام ـ ودخل أحد الزائرين فى هذه الاثناء فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله والا فقد كان الباشا اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث من الاخبار . فى وجه النهار . فناوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها . بعد ان بالغ له فى بلاغتها . وما كاد يلتفت الينا ثانيـة حتى وافاه أحد المفتشين من الاجانب فأطلعه على رسم فى ورقة زعم أنه نقشه فى أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتدّ الجدال فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ضحكة ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه وختم كلامه بقوله

(المفتش للباشا) ـ قد اطلعت على ظروف القضية كلها فى «مصباح الشرق» فاما القاضي فقد يكون له العذر فى مقاطعة المحامى لان منهم من اعتاد أن يأتى فى مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة وتكوين الجمعية البشرية وما يجرى هـذا المجرى مما يطول شرحه ويملّ سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وهم يستعملون ذلك فى أبسط القضايا وأدناها ليقتنع صاحب القضية ان المحامى لم يدخر لديه كلاماً يقال فى الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية

أو خسرانها . فترى أرباب القضايا يعتقدون ان المحامى لا يستحق أجره من المال . الا بكثرة مايقال . كالسلعة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الاتعاب لمحاميهِ بعد أن ربح لهُ القضية بدعوى انهُ لم يسمع منهُ كلاماً مطوّلاً في المرافعة يستحق عليهِ الاجر سواء كان مفيداً للقضية أو مضرّاً بها وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين فلا يسعهُ الا المقاطعة على المحامى المكثر فى كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتنبيههِ الى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر ان القاضى لم يخالف القانون بشيء فيما أتاهُ معكم

(الباشا) — ليت شعرى اذا اعتذرتَ عن القاضى فى مقاطعته فما هو العذر فى وضعهِ لى فى « قفص المتهمين » وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل شيخ مسنّ وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمى فى خدمة الاسرة الخديوية فهلاّ كان وقّرنى لسنيّ واحترمنى لقدرى وأى قانون فى الدنيا يمنعهُ من ذلك وتوقير السن طبيعى واحترام المقامات أمر أصلى والله تعالى يقول : (ورفعنا بعضَهم فوق بعضٍ درجاتٍ)

(المفتش) — ذلك ما يقضى بهِ القانون أيضاً فانهُ قائم على

المساواة بين الناس ولا فرق عندهُ فى المقامات والاعمار وهذاعين ما يأمر بهِ الشرع الشريف وعين ما يجرى على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة الحكام اذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذهُ القانون عليهِ . ولا معرّة عليك ولا غضاضة فى وقوفك أمام القاضى فانما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات

(الباشا) ــ ان كان هذا حكمكم فى القاضى فما هو الحكم فى عضو النيابة الذى عيّرنى بشرف رتبتى

(المفتش) ــ انالم اطّلع بعدُ على أوراق القضية وتفصيل المرافعة ولكن ما انتشر فى «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ منهُ معنى التعيير بالرتبة بل كان غرضهُ أن يثبت أن الرتبة مهما عظم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجعل لهُ سبيلاً على محروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب فانهُ جرى بيننا مجرى العادة فى هذا العصر

(الباشا) ــ اذا كان للقاضى العذر وللنائب الحق فما هى فائدة تظلمى لكم وحضورى أمامكم أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضى وتؤنبوا النائب وتفحصوا القضية وتتثبتوا من بطلان التهمة

وتنقضوا ذلك الحكم أمامهما

(المفتش) ـ ليس ذلك من اختصاصنا . واذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر فى أمره موكول الى «مجلس التأديب» ولا سبيل لرئيس على مرؤوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرّف فى قضيتك . والحكمُ فيها راجعٌ الى محكمة الاستئناف وحدها

قال عيسى بن هشام ـ وكنت أشاهد فى أثناء هذه المحاورة شاباً آخر بجانبنا من المفتشين يسطع «طربوشه» احمرارا . ويقلب طرفه ازورارا . تلوح على وجهه مخايل الامارة . ولا تنفك يدُهُ فى رفع وخفض (للنظارة) . وتشهد عليه سيماهُ بالتفنن فى التدبير . وتدل على قوة الدهاء والتفكير . فلما وصلنا الى حيث وقف بنا الكلام رأيناهُ ينادى الحاجب ويقول لهُ :

(المفتش الثانى) ـ علىّ «بدللوز» و«جارو»

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ هل هذان الاسمان يطلقان على القاضى والنائب وهل ترى هذا الشاب هبّ للانتصاف لى منهما

(عيسى بن هشام) ـ هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل (ابن عابدين) و(الهداية) فى فقه الشرع

وحضر خازن الكتب بالكتابين فردّ المفتش له أحدهما وقال له: ما طلبت «بودرى» بل طلبت «جارو» . ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليائس وقال: ائتنى «بفوستن هيلى» فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسوية وانتهى الامر بينهما أن قالا للباشا معاً : ليس أمامك الا الاستئناف فى قضيتك وأما ما يختص بالقاضى والنائب فسنضع عنه « نوته » (مذكرة) ونقدمها الى اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أقل خلل فى تصرفهما أصدرت منشوراً الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول :

(الباشا) ـ قد كُتب علىّ ان لا اخرج من همّ الا الى همّ ولا أنتهى من كدر الا الى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم علىّ من الهموم والاحزان :

فإنى رأيتُ الحزنَ للحزن ماحياً كما خُطّ فى القرطاس رسمٌ على رسمِ

ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة انى ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها الا ورأيت أمامى غلماناً وفتياناً يتولون أمورها ويتصرفون فى أعمالها فهل خُلق المصريون خلقاً

جديداً أم صاروا فى الجنة استوت فيها الاعمار

(عيسى بن هشام) — لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة فان نظام هذا العصر يقضى بذلك وهم يزعمون انهُ ليس فى استطاعة الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب لخلوهم عن علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة

(الباشا) — كيف يدَّعون ان العلم ينحصر فى الشبان دون الشِّيب وما عهدناه الا فى مَنْ أحنت السنون ظهورهم وبيَّضت التجارب مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأى والادب

(عيسى بن هشام) — هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهماً فى حلبة العلوم وأجمع لشتات الفنون لما يختص بهِ من حدة الذهن وسرعة الادراك فاذا انصرف بهمتهِ الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التى يمتاز بها ذوو الاسنان والاعمار

ليس الحداثةُ عن علمٍ بمانعةٍ قد يوجد العلمُ فى الشبان والشِّيبِ

(الباشا) — ولنرجع الى شأننا فقد اتبعت آراءك وامتثلت لنصائحك وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا

بعد هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ولم يبق لك بعد اليوم وجه فى أى احتجاج وجيه توجهنى بهِ وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام

(عيسى بن هشام) — لا تيأس ولا تقنط فان أمامنا محكمة الاستئناف ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الاحكام . ولو خاب فيها الامل على الفرض والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتمسهُ بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) — لاتذكر لى من الآن حاكما ولا ناظراً فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهما بالغت لى فى الوصف واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) — ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكبٌّ على الاوراد منصرف الى الاذكار . يمسى ليلهُ قائمـا . ويصبح نهارهُ صائمـا . فبين السبحه وأصابعه عهد وميثاق . وبين السجادة وجبهته ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكِّرنا فى هـذا العهد الجديد بعهدكم القديم . وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمهُ حسن باشا المناسترلى

(الباشا) ـ حسن المناسترلى ! ! ذاك خليلى وقرينى وصاحبى وخدينى ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الامر فتكون قد حقنت ماء وجهى وأنقذتنى من كل هذه الاهانة وذلك التحقير

(عيسى بن هشام) ـ ماغاب عنى ان أذكرك به فانه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ماتقلبنا فيه من المصائب وانما نفعه يكون فى آخر الدرجات ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا الا بعد صدور حكم الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولىّ الامر

***

وآن أوان الجلسة فى الاستئناف . فسرنا فى طلب العدل والانصاف . وكل واحد منا مشغول بحاجته . لاهٍ بنازلته. فالباشا يفكر فى مصيبته . ويتألم من بليته . والمحامى يدبر فى أمره . ويتطلع لأجره . وأنا أسأل الله لنا النجاة . من مكايد الحياة . ولما وصلنا الى حى « الاسماعيلية » ورأى الباشا دُورها ومبانيها. وشاهد قصورها ومغانيها . واستطاب رياضها وحدائقها . واستنشق رياحينها وشقائقها . استوقفنا سائلاً مبهوتا. واستنطقنا بعدان كنا سكوتا. فقال ألا تخبرانى عن موضع هذه الجنة الزاهرة. من مدينة القاهرة.

فقلت له هذه « الاسماعيلية » اختطها اسماعيل . فيما اختطهُ لزينة وادي النيل . يسكنها اليوم جماعة من العظماء . ذوى الغنى والإثراء . وقد كانت فى أيامكم خراباً قفرا . لا تحمل بيتاً ولا ترفع قصرا . ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال . ولا من الازهار غير شوك القتاد أو شوك السيّال . ولا من الطير غير البوم والغربان . أو الرخم والعِقبان . ولا تجد فيها من الانس الا لصاً سالبا . أومغتالاً ناهبا . أوفاتكاً متأهبا . أوكامناً مترقبا

(الباشا) ـ لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبدلهم من الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك الاطلال البالية

(المحامى) ـ أيها الامير لا تغبط المصرىّ على نعمته . وتعالَ فابكِ معنا على نقمته . فليس له فى هذه الجنة من دار . يقر له فيها من قرار . وكل ماتراه من هذا الجانب . فهو ملك للاجانب

(الباشا) ـ لله أبوك كيف يختص الاجنبي دون الوطني بهذه الجنان الناضرة . ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة . ولعلك تلغز فى قولك وتحاجى . وتعمّى فى تعبيرك وتداجى

(المحامى) ـ لا تحجية ولا تعمية . بل هكذا قدّر المصرىّ لنفسه . وتبدّل سعده بنحسه . واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف . ورضى

بالقسم الخسيس الضعيف . فبات محروماً تحت ظل اهماله وخموله . وغـدا بائساً فى سباته وذهوله . وما زال الاجنبي يسعى ويكد . ويعمل ويجد . وينال ثم يطمع . ويسلب ثم يجمع . والمصريُّ يبذر بجانبه ويسرف . ويبدد ويتلف . ويحسر ثم يلهو . ويعجز ثم يزهو . ويفتقر . ثم يفتخر . وسادتنا وكبراؤنا . وولاتنا وأمراؤنا . يعاونون الاجانب بسلطتهم فينا وسطوتهـم . ويساعـدونهم علينا ببأسهم وقوتهـم . ويصطفونهم أنصاراً وأعوانا . ليزيدوا بهـم المصريين ذلاً وهوانا . حتى وقعوهم أيضاً بأسرهم . فى قبضـة أسرهم . فتساوى السيد بالمسود . وتشابه الحاسد بالمحسود . وتعادل الرفيع والمنيع . بالحقير والوضيع . واشتركنا كلنا على السواء . فى منازل الشدة والبـلاء . وأصبـح نصيب القوىّ المـكين . مثـل نصيب الضعيف المستـكين . وكذلك تـكون عاقبةمن يلقى للاجنبي بيديه . ومن أعان ظالماً سلِّط عليه :

وَمن يجعل الضِّرغامَ بازاً لصيدهِ تصيَّدَهُ الضرغامُ فيما تصيَّدَا

قال عيسى بن هشام ـ وما كاد ينتهى رفيقاى من خطابهما . ويفرغان من سؤالهما وجوابهما . حتى مر بنا راكب درّاجة تنساب به كالصلال . فى بطون الرمال . ويتمايل بها تمايل النشوان . مالت

ه نشوة الخمر . ويثنى انثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلأ لباشا . تعجباً واندهاشا . وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا ، البهلوان » . فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس . على لمركبات والافراس . ومما يرغبهم فيها انها لا تأكل ولا تشرب . ولا تهزل ولا تتعب . وهـذا الراكب رجل من أهل القضاء . يركبها لرياضة الاعضاء . فأتبعه الباشا نظرهُ فوجدهُ قد سقط فجأة من فوق دراجته فانفرط عقـد الهيئة على سطح الارض الى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فـلمّ شعثه وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها ويماشيها . وأخذ الباشا يخاطبنى فيه وفيها :

(الباشا) — ياحبذا لوعدنا من حيث أتينا . وكنا مطلقين لا لنا ولا علينا . وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم اذا كان هذا منظره وذاك مركبه أمام أعين العامة . وهل حُـكم الناس يوماً بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر وفخامة المواكب وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب فى عصرنا الا فى موكب تحف به الحشم والاعوان . وتتقدمه الجنود والفرسان . فترتجف منه القلوب رعبا . وتخرّ له الاعناق رهبا وقلّ من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يوقفه أمامه يوماً موقف

التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) ـ ذاك عصر مضى . وحكم انقضى . ولقد تفنن أهل العصور الماضية في وصف ماتذكره من منظر الابهة والجلال وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء في مخالصهم البديعة كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلاً :

جمح الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ ... مما يشوب ولا سرورٌ كاملُ
حتى أبو الفضل ابنُ عبدالله رؤ ... يتهُ المنى وهي المقامُ الهائلُ

(المحامي) ـ قد آن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة

(عيسى بن هشام) ـ ولعلنا نجدها باذن الله في مكانها فقد تعودت التنقل من مكان الى مكان حتى اشبهت خيام العرب :

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالـ ... ـعذيب يوماً ويوماً بالخليصاءِ

ثم اقتربنا فوجدناها وأقمنا في ساحتها ننتظر دورنا بين أرباب القضايا حتى نودي علينا فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة فأخذ الاجنبيُّ منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم تستوف مخارجها فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكريّ بالضرب في أثناء تأدية وظيفته في يوم كذا من شهر كذا والمتهم أنكر وشهد المجنيّ عليه ودل الكشف الطبيُّ على وجود

علامات فيه للضرب والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق لمادتى ١٢٤ و١٢٦ عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لى هكذا تجرى العادة هنا فيأخذ مثل هذا القاضى الاجنبى عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائي فيجعلها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل اقامته وأشار الى النيابة بالكلام فشرع النائب فى شرح القضية على ما يوافق هواه . ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له فى كلامه كما يكون فى المحاكم الابتدائيـة (والسر فى ذلك ان بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية فى الاستئناف هم فى حاجة الى العلم بها من أقوال النائب فيتركونه وشأنه فى التطويل والاسهاب) ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز فابتدأ المحامي يسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن المتهم وكلما وصل الى النقطة المهمة فى دفاعه قال له الرئيس : « الموضوع » : « طلباتك » . ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس الى ان كلام

المحامى فى عين « الموضوع » (وللرئيس العـذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لاقوال النيـابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سمعت القضية والحـكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة الى حجرة المداولة وخرجنا ننتظر وسألت المحامى عن المسافة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى :

(المحامى) ـ لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) ـ وما هو المتوسط من عدد القضايا فى الجلسة

(المحامى) ـ متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) ـ وهل تـكفي هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الاوراق

(المحامى) ـ نعم تـكفى عندهم لـكل القضايا ولو كان الاطلاع على القضية الواحدة التى يحكم فيها بالاعدام أو بالاشغال الشاقة المؤبدة يستغرق ساعتين أو ثلاثاً . وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى « الملخص » الى قلم الـكتاب لاطلاع المحامين فنجد عليها رمزاً بأحد هذه الاحرف: «ب» «ع» « ت » . فالباء إشارة الى البراءة والعين اشارة الى العقوبة والتاء إشارة الى تأييد الحـكم الابتدائى . وانما يضع القاضى هـذه الرموز حتى لا ينسى رأيه فى

القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة فاذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة . ولكن لما كان القاضي الجنائي له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة أو للتهمة حتى اذا استقامت لديه الادلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى الغير ولا أن يكون الحكم مبتوتا فى القضية بأحد هذه الاحرف الثلاثة التى عنّت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده ببيته مرّ السحاب

قال عيسى بن هشام — وبينا نحن فى هذا الكلام اذ عادت الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لعدم ثبوت التهمة عليه لانه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة فخرجنا مسرورين بهذه النعمة وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) — لا أنكر اليوم ان العدل موجود ولكنه بطئ . لا يتحمل أعباء بطئهِ البرئ . وكان الأولى فى هذه المحاكمات ان تكون النهاية فى البداية فلا يلحق من كان مثلى هذا الهوان والصغار . ويقع به ما وقع من الحبس والعار . بعد أن يقف موقف التهمة

والإِجرام . ويحل به ما يحل من التعذيب والإِيلام

(المحامي) ـ انى أهنئك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ولا زالت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده . وقد مضى منى الدفاع وبقى عليك الدفع

قال عيسى بن هشام ـ وما زال المحامى عاكفاً علينا يطالبنا بالاجر . والباشا يعده لآخر الشهر . حتى يأتيه بعض خدمه وأتباعه . بمال من عقاره وضياعه . والمحامى يأبى التسويف والامهال . والاّ الدفع فى الحال :

(المحامى للباشا) ـ أتظن ان هذه الوعود . تقوم لدينا مقام النقود . فى بلد كثر فيهِ الانفاق وزادت الضرورات . وقلّ فيهِ الربح كما قلّت المروءات . وصار الدرهم أعزّ عند الاب من بنيه . وعند الابن من أبيه . ولقد تعبت فى القضية تعبين باللسان وبالجنان . ولا استريح منهما الا بنقد الاصفر الرنان . وانك لا تصرفنى ـ وان كنتَ محمود الخلق ـ بالوعد . ولكنك تصرفنى ـ وأنا أحمد ـ بالنقد . وانى لاأريد أن أسكن فى بيت المتنبى :

أنا الغنىُّ وأموالى المواعيدُ

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية . والفكاك من بلية ببلية .

فذلك ما لا يأتيهِ العقلاء . ولا يرتضيهِ الامراء

قال عيسى بن هشام ـ ولما رأيت الباشا لا يقدر على التلفظ . من شدة الحنق والتغيّظ . تداخلت بينهما تداخل الاريب . وتوسطت توسط اللبيب . فنلت بلطف الالتماس والرجاء . رضاء المحامى بالمهلة والارجاء . الى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر . الى الغنى واليسر . وقلت لهُ ما يقال فى باب المروءة والهمة . من وجوب الحنو على من يقع فى مصيبة أو ملمة . وأنّ من تذكر الدهر وغِيَرَهُ . والزمان وعِبَرَهُ . لانتْ عريكته . وطاوعتْ شكيمته . وليس بين صعود المرء ونزوله . وإشراق سعده وأفوله . وبين غناه وفقره . وصفوه وكدره . الا مسافة انقضاض القضاء . من رب السماء . فنظر اليَّ الباشا نظرة الاحتقار والازدراء . وخاطبنى بالانفة والكبرياء :

(الباشا) ـ لَبئس الخدين أنت والقرين . كيف تسِمُنى بسمة الفقراء . وتستعطف عليّ قلوب الضعفاء . وأنا الأمير السرىّ . والغنىّ المثرىّ . وأين ما أدخرتهُ فى عمرى . واكتنزته فى عصرى . من مال وعقار . وفضة ونضار . وقصور وضياع . وزخرف ومتاع . ولقد كان يُضرب بغنائى المثل . فان كنتَ جاهلاً بى فَسَلْ . اذهبْ فأتنى بخبر ما خلّفت وأبقيت . وأثرِ ما جمعت واقتنيت . وكيف

يخفى عليك أو على المحامي مالي من الاموال والعقار . وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار . فاني يشهد الله ما تركت حيلة . ولا أغفلت وسيلة. في الحصول على الاثراء والغنى. حتى جمعت منه كثيراً مما تفرق على الورى . فجعلته عدّة لشدّ أزرى. وأمانا لي من مصائب دهرى . وتركته ذخيرة لابنائي وحفدتي. وميراثا لأعقابي وذريتي. ليكونوا من ذل الحاجة في جُنة . ومن نعيم العيش في جَنة . وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد . رفيع الذكر رفيع العماد

(المحامي) ـ نعم انا لنعلم يامعشر الامراء والحكام انكم قضيتم الاعمار في جمع الحطام واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم من دماء الارامل والايامى وانتزاع الاقوات من أفواه الاطفال واليتامى وكنتم سواء عليكم حزتم المال من حله أو غير حله لم تبالوا بالضعيف المسكين ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البرئ وبرّأتم الظالم فجمعتم لديكم من أثر ذلك ما فرقه الله على عباده من رزق وما قسمه لهم من قوت ورضيتم بالوزر وطوقتم اعناقكم بالإصر ثم حرّمتم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه

وحرمتموها من كل ماحزتموه ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ولم تؤدوا مافرضهُ الله عليكم فيها من الحقوق ولم تطهروها بزكاة ولم تزكوها بإحسان وأطربكم منها رنين الدرهم فوق الدرهم وصمتُ الدينار مع الدينار وأبدعتم ماشئتم فى وسائل وطرائق يأباها الله لعباده ويمقتها ويستبشعها الانسان ويستفظعها السلب ماسلبتموه وكنز ما كنزتموهُ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول واجترأتم على الله فى أوامره ونواهيه وكلفتم العلماء بتأويلها على اهوائكم فأولوها لكم لانحصار الارزاق فى ايديكم واحتياجهم الى ماتقتاتون به من فضلات عيشكم فالوزر عليكم وعليهم ولكنهُ عليكم أعظم وفوقكم أثقل . حتى اذا انقضى العمر وحلّ الأجل تركتم ماخلفتموهُ لغلمة من أولادكم وصبية من جواريكم نشأوا بينكم على الحرمان ولم تثقفوهم بالتعليم ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم والأيام والليالى تهذبهم فكنتم فى أعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز — كما يقال فى الاقاصيص — يحتالون لنقله بقتله فاذا استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم وفرقوا شملها فى أدنى من لمحة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع فما هو الا أن يتسابق الدود والورثة فى احشائكم المدفونة . وأحشائكم المخزونة . فيسبق

الورثة الدود . فى الصدور والورود . فتذهب البَدرة وراء البدرة والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار حتى اذا لم يبق الا بيت السكن أتوا على مافيهِ من الاثاث بيعاً وما فى اعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهناًولا يزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة والدائنون يدخلون فيهِ خطوة إثر خطوة الى أن يندكّ بناؤهُ ويعفو أثره ويزول اسم بانيهِ الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائهِ وهو يشيّع منهم باللعنتين فى الحالتين حالة الخلاص منهُ بالتشييع الى القبر وحالة أسفهم على اهماله اياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم فى خشونة الفقر

هذه أيها الامراء عاقبة ماصارت اليهِ أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم ويا ليت أولادكم واحفادكم خففوا عليكم من الإثم فى جمعها من دماء المصريين بإنفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك منهم كردّ بعض الحق الى أهله ولكن البلاء كل البلاء انها ذهبت جميعها الى أيدى الاجانب والغرباء . وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون اقواتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ماجمعوه ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للاجانب يتمتعون بهِ على أعين المصريين والمصريون أولى بالقليل منهُ . وما دفع بأعقابكم الى

هذا اللِيان والتسليم الاماورثوهُ عنكم من الاحترام لشأن الاجنبي والاحتقار لجانب المصرى وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً للمصريين حتى شاركتم معكم الاجنبي في تلك الربوبية فغلبكم عليها واشرككم مع المصريين فى العبودية وتشابهت الموالى بالعبيد . وقد آن ان تعلم ايها الامير بان جميع اقرانك واخوانك من ذوى الثروة واليسار فى ايامكم قد أصبحت بيوتُهم خاوية على عروشها وأبصارُ أعقابهم شاخصة اليها فان أردت ان تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحث عنها تحت ثِقال تلك الرحى وقل معى ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتى ثَمَّرْتُ مالى وإنما ... لوارثه ماثمَّرَ المالَ كاسِبُهْ

يحاسِبُ فيهِ نفسَهُ في حياتهِ ... ويتركُهُ نهباً لمن لايحاسِبُهْ

فياعبث المدّخِر الجامع . وياغبنَ المكتنز الطامع ما كان أغناكم عن الجمع والادخار . وعن الحرمان فى الدنيا والخلود فى النار

(الباشا) ـ أراكَ قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدّكَ فى اللوم التعنيف وخرجت عن طوركَ فى العذل والتعزير وكان بودى أن عطيك اجركَ مضاعفاً ولا أشاهد منك هذه الجرأة علينا بسوء لتقدع والتوبيخ . وربما قلتَ حقًّا فى بعض ماتقول والرجاء فى غفران

الله عظيمٌ وفي رحمته متسعٌ ولعل ماتخلل اعمالنا في ايامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترفناهُ من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة والاحتيال لالتماس الرزق بعد أن ضاعت الاموال وذهبت من أيدينا الاحكام على نحو ماتروى وتحكى . وما أرى لضيق من مفرج الا أن أُورد نفسي حتفها وأُعيد لها حمامها فما أروَحَ ما كنت فيه من ظلام الرمس . وما أقبح ضياء هذه الشمس

(عيسى بن هشام) — ليس لمثل حالتكم غير الاسف منا والتوجع لكم فقد تمكن الاعتقاد في رؤوس الحكام ان مايقع بالاتفاق لهم بين حين وآخر من ولاية الاحكام فهو قياس مطّرد وصراط مستقيم لا ملجأ لكم سواهُ في وجوه المساعي وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني اهلها منها ثمر الارتزاق والتكسب فاذا خلَتْ ايديكم منها واعتزلتم الاحكام تقطعت بكم الاسباب وضاقت بكم السبل في وجوه المعايش كما تصاب يد الصانع بالشلل فيتعطل عن العمل ويصبح كلاًّ على كاهل الجميع يرجو الموت كما رجوتَ وتمنى راحة العدم كما تمنيتَ . وكأنكم أيها الحكام صنف من فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون الا فوق ذهب العرش أوفوق خشب النعش

وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه وهو فى ضيق الحبس وضيق النفس :

ونحن أناسٌ لاتوسّطَ عندنا   لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

ومعلوم لك مافى هذه الصناعة صناعة الولايه والحكم من قلة مايرفعهُ الصدر وكثرة مايضمهُ القبر . وكان الأَولى بكم ان تكونوا كالناس فى معايشهم لكل انسان آلة بينة من صناعة أو حرفة أو مهنة يحسن بها التعايش والارتزاق حتى اذا أنتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم في بقية الاحياء من افراد الجمعية تنفعون وتنتفعون

(الباشا) — تالله ان ماقاسيته من الآلام أمام البوليس والنيابة والمحكمتين واللجنه كان أقلّ هماً وأدنى شجناً من مرارة هذا النصح والوعظ . وماهو الرأى عندكما وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم يبقَ وقت للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن يجئ لا لمن يمضى

قال عيسى بن هشام — فأحزنتنى حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت أتدبر له وأتفكر فى طريقة يتعيش بها وكلما خطر لى فى ذلك خاطر خاب رجائى فيه حتى كدت أيأس من الحيلة والباشا ينظر الىّ وأنا فى تفكرى تارة ويطرق للتفكير فى نفسه تارة أخرى . ثم رأيتهُ قد انتفض من

مكانه واخذ بيدى يقول لى :

(الباشا) ـ قد وجدت والحمد لله بابًا لسدّ العوز و كفاف العيش

(عيسى بن هشام) ـ ماذا وجدت

(الباشا) ـ كان من عادة الحكام امثالنا فى الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقربهم من الله وتعتق رقابهم من النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافةً وهو اقامة بناء لجامع أو كتّاب أو « سبيل » وكانوا يخصصون له أرضًا أو ضيعة وقفا عليه للانفاق من ريعها على طول الزمان وقد سلكت مسلكهم واتبعت سنتهم وخلفت لذلك وقفًا عظيماً لاتناله أيدى الاعقاب بالإتلاف والتبذير فهلم معى نبحث على ماشيدتهُ ووقفتهُ

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف . للوقوف على تلك الاوقاف . ونسائل العابر وابن السبيل . عن المسجد « والسبيل » . ولا سؤال المجدب عن الروض . والظمآن عن الحوض . فلم نجد من يرشد . الى ماننشد . وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأماكنها . والازقة ومساكنها . ويقول كان هنا وكان هنا . وجلّ مايقضي به إلهنا . ومازال يقاصر فى خطواته . ويطاول من آهاته . ويبكى لرسوم

الاطلال والديار . بكاء صاحب عزّة أو صاحب نَوَار

فاسألنها واجعلْ بكاكَ جوابًا تجد الدمعَ سائلاً ومُجيبا

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب . وترداد المجيء والذهاب . الى منعطف مضيق . في منتهى الطريق . فوقف الباشا هناك قُبالة دُورٍ مهدّمة . وجدرانٍ محطّمة . ومسجدٍ في فجوة منه حانوتُ خمّار . وفي زاويةٍ منه دكان عطار . وبجانبهما حوانيت متباينة الاوصاف . مختلفة الاصناف . فطفق الباشا يصعّد نظره فيها ويصوّبه . ويخطّئ حدسه تارة ويصوّبه . فهداه طول النظر والتدقيق . وشدة الامعان والتحقيق . أن رأى شيخًا فانيًا متربعًا في دكانه . متحيزًا بمكانه . عليهِ علامات الانحلال والسقوط . وشارات الخذلان والقنوط . وسِيمَا الرضاء بالمقسوم . والتسليم للقضاء المحتوم . له جبهة كأنها من ورق البُرديّ العتيق . تتلو فيها مادوّنه الدهر من آيات الشدة والضيق . فخرج الباشا في الحال من حال المتحير المتردد . الى حال الواثق المتأكد . فنادى صاحبَ الدكان عن بُعد . نداء السيد للعبد . فانتفض الرجل انتفاضًا عجيبا . وقصده مُلبيًا ومجيبا . فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية . الآن ملكا ينادي احد الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممتثل الخاضع . والمطيع الخاشع .

فقال له الباشا بعد ان حدّد فيه نظره . واستجمع فكره :

(الباشا) ـ ألستَ انتَ احمدأغا الركبدار المعدود من أهل حاشيتي. ألاَ تعرفني من أنا

(صاحب الحانوت) ـ لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع بين ظهر الارض وبطنها لقلت انك سيدى واميرى ويشهد الله انى كلما أمعنت فى وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى ويندهش لى لاستحكام الشبه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) ـ انى انا سيدك وهذه هى العلامة التي تعلمها فى جسمى من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك في يوم من ايام السبق والرهان

(وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة فوقع الرجل منكبًّا على الارض من شدة الدهشة يقبّل قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع ويقول في بكائه وشهيقه) :

(صاحب الحانوت) ـ كيف بالحياة بعد الممات . لحقّ انت احدى المعجزات . وليس ما أراهُ بغريب فقد شاهدت فى هذا العمر الموجز مالا تحيط بوصفه اقلام ولا تتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب فلا يبعد بعد ذلك ان تشرق الشمس من مغربها وتُخرج الارضُ أمواتها من مقابرها

قال عيسى بن هشام ـ فقلت للرجل لا تكبر من الدهشة والحيرة ولا تغرب فى الاستغراب والتعجب

على أنها الأيامُ قد صِرنَ كلُّها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

واعلم أن القدرة لا تعجز عن شئ فى الوجود ولا تحيط بها العقول. ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية فصاح الرجل يبكى ويتضرع ويقول ليت أمى لم تلدنى وليت القدرة التى بعثت الأمير من بعد موته نشرت معهُ زمنه وأعادت عصره وإلا فكيف لهُ بالعيش فى هذا الزمن. وما أولاهُ بالعودة الى ادراج الكفن.

ثم التفت إلى الباشا وشرع يقص عليه ما مرّ بهِ من الحوادث والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب:

(صاحب الحانوت) ـ ولم يبق لك أيها المولى من أثر يُذكر فى ثروتك ومتاعك. وأموالك وضياعك. وقد عشتُ دهراً وأنا متمتع بريع ما وَقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا المسجد والسبيل والكتّاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك فما لبث الوقف أن تهدّم وتخرب بطول الترك والاهمال فوقعنا كلنا فى الفاقة والاحتياج وانقلب الكتّاب مخزناً والسبيل خمارة والمسجد مصبغة

كما تشاهد وترى وأصبحت أنا بيطاراً بعد أن كنت « ركبداراً » وأخذت هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها وسبحان مقلب الاحوال ومبدل الاشكال

(الباشا) — ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره

(البيطار) — آخر العهد عندى كان بواحد منهم ذهبت اليه لأجل هذه الحانوت وأعلمته بمكانى من أهل الحاشية فانتهرنى وطردنى وأبعدنى وزجرنى ولكن الحاجة دفعتنى إلى الالحاح فترددت عليه مراراً فتخلص من ثقل إلحاحى باحالتى على رجل افرنجي عنده يدبر له مابقى لديه من ثروة نضبت عينها ونزحت بئرها فأحالنى الافرنجي على صاحب الخمارة لأنه أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير ارادته خوفاً من الخصومة فى المحاكم فقصدت الخمار واتفقت معه على أجرة معينة وأقمت فى هذه الحانوت أصرع الدهر ويصرعنى وأطلب القوت ويعوزني وأتعجل الأجل ويمهلنى وتعالى الله المتفرد بعزته المبدع فى حكمته

(الباشا) — وأين هذا الولد العاقّ المخالف لإرادتى وهو يعلم ان شرط الواقف كنص الشارع

(البيطار) ـ هو مقيم الآن فى « الاوتيل »

(الباشا) ـ وما هو الاوتيل

(البيطار) ـ « اللوكاندة »

(الباشا) ـ وما هي اللوكاندة

(عيسى بن هشام) ـ « الاوتيل » هو بيت معروف يعدّونه لنزول من لا بيت له من الاجانب والغرباء على أجر معيّن وهو فى المعنى كالخان الذى تعرفونه فى زمانكم

(الباشا) ـ هل وصل التدنّى بهذا الخائن إلى سُكنى الخان . وسبحان مصرّف الاحوال ومغيّر الازمان . وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أَفكان رجوعى الى الحياة على مالا أرغبه ولا أرضاه . تعذيباً لي على ما فرّطت فى جنب الله . أولم يكن عنده سبحانه فى الآخرة من عذاب النار . ما يغنى عن التعذيب بالعار . فى هذه الدار . ربِّ ان الجحيم لأهون عليّ فى العذاب والنكال . مما ألاقيه من الرزية فى المال والعيال:

فليت وليداً مات ساعةَ وضعهِ ولم يرتضع من أُمّهِ النُّفَساءِ

(عيسى بن هشام) ـ ليست السكنى فى (الاوتيل) اليوم عن ذل وفقر . بل هى عن عز ويسر . فان النفقة فيه بضعة أيام تكفى لنفقة

شهر . على أكبر قصر . بجواريهِ وخدمه . وأتباعه وحشمه . وقد دعا أولادكم الى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للاجانب وإتقان الاقتداء بهم والسعيدُ المنعّم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقارهُ ويرهن ضياعهُ لتتيسر لهُ الاقامة فى هذا الخان ومنهم من يتعذر عليهِ مفارقة أهله فيؤتى لهُ بالطعام من « الاوتيل » إلى البيت وعنده الطباخ فى أسفلهِ والجوارى الطاهيات في أعلاه

(الباشا للبيطار) ـ أرجوك أن تصف لصاحبي مكان « الاوتيل » الذى يسكنهُ ذلك الغلام فان بى حاجة الى لقائهِ

(البيطار) ـ كيف تخاطبنى أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر فى خدمتك ان تأمرنى بما تشاء وهل تظن أنى أفارق ركابك أو أزايل معيتك مهما تقلبت الاحوال وتبدلت الأزمان فهلم منك الامر والاشارة وعلىّ السمع والطاعة

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ ودعاني الباشا للسير معه . وهو يكفكف أدمعه . وتبعنا البيطارُ من خلفنا بخطاهُ الثقيلة . وعصاهُ الصقيلة . فقد صقلها طول التوكأ والاستعمال . وتعزّى بها في السير والانتقال . عن ظهور الخيل ومتون البغال . إلى أن وقفنا عند أحد القصور

الكبيرة . من الفنادق الشهيرة . فهال الباشا ما رآهُ من ضخامة البناء . ونخامة المنظر والرُواء . وما لقيهُ من ادب الخدم والاعوان . ورشاقة الوُصفاء والغلمان . فتخيّل اننا اخطأنا الابواب والمداخل . فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل . وتقدمت للسؤال والاستخبار . وقد خلّفنا البيطار فى الانتظار . فدلّنا احد الخدم عن رقم المكان الذى يسكنهُ الامير . بعد طول التردد والتفكير . فما وصلناهُ حتى دفع الباشا بيديهِ دَفّتى الباب . لم يلتفت لطلب اذن ولا لرجع جواب فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الامراء . وأعقاب الكبراء . مختلفين فى الجلوس . حاسرين عن الرؤوس . ففريق منهم عاكفون على لعب القمار . وفريق ينظرون فى صور خيل المضمار . ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة تصف لا عجوز شوهاء . ولا فتاة حسناء . تجلب الحسن بافراط التأنق والتفنن . فى وجوه التصنع والتزين . فيكاد يضيء وجهها بسنا العقود والقلائد . ويتلألأ جبينها بلألاء الجواهر والفرائد . وفى وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح . فى الاباريق والاقداح . وبجانبها مِنضَدَة . عليها آنية مُنَضَّدَة . وفوقها الدواة والقرطاس . ويراعة مرصعة بالالماس . وكتب أعجمية موشاة بالذهب . لا أدرى ان كانت فى اللهو أو فى الادب . وعلى الارض أوراق أحكام

منشورة . وجرائد تحت الاقدام منثورة . لم يُفضض عنها ظرف .
ولم يُقرأ منها حرف . وسمعناهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون
اللغة التركية أو العربية . الا ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد
ان يبدلوا القاف . بالكاف . وينطقوا بالحاء . كالهاء . ولما رأونا
ظهر منهم العبوس والقطوب . وبدا عليهم انقباض الصدور والقلوب .
وانبرى من جانب المرأة شاب . فأسرع نحو الباب . فخاطبنا بعبارة
فرنسوية . ولثغة باريسية :

(الشاب) — كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) — دعا الى ذلك شوقُ الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) — لست افهم لك كلاماً فصرّح لى وبيّنْ

(عيسى بن هشام) — فلان يسأل عن فلان

(الشاب) — اني انا فلان ولكن من هو فلان الذي يسأل عني

(عيسى بن هشام) — هو جدّك الاكبر أحياه الله بعد مماته
وبعثه من رقاده وكان من أمره انني كنت أزور المقابر ذات يوم
من الايام . . . . .

(الشاب) مقاطعاً مستهزئاً — اذهب عني فلست أسمع لهذا الكذب
والخرف وليس لي اليوم من جدّ ولا والد ولا أنا ممن يصدق بحديث

البعث فى الآخرة فكيف برجوع الموتى الى الدنيا . تعالَوْا أيها الاخوان فاعجبوا معى واضحكوا لما اسمعهُ من هذا الرجل الذى يخاطبنى وانظروا الى هذا « الباشبوزق » الغليظ الذى بجانبه فهو يدّعى انهُ من آبائى وأجدادى بعثهُ الله ليطالبنى فيما أظن بما ورثتهُ من الاموال وينازعنى فى نظارة الاوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما اصبحنا فيهِ اليوم لم يكتفِ الدهرُ بتكدير عيشنا وتعكير حياتنا بمطالبة ارباب الديون حتى بعث الاموات من قبورهم ليطالبونا بمواريثهم واموالهم ألا ترونها ايها الخلاّن انها أبدع نكتة فى أواخر القرن

قال عيسى بن هشام — فاستغرق الجميع عندذلك ضحكاً واستلقوْا قهقهة وكلما سألنى الباشا عن مكان حفيدهِ واستفهمنى عما يجرى معى من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيءٍ مما يقال ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم نادوا بالخادم ليأمروهُ بطردنا وإخراجنا . وحانت فى هذه الاثناء إلتفاتةٌ من الحفيد بين دوراته وحركاته فلمح احد قرنائه واخوانه قد انزوى بتلك الخليلة . التى هى عندهم كالحليلة . يلاعبها وتلاعبه . ويغازلها وتداعبه . فانقضّ عليهما كالصقر الأجدل فاستعرَ بينهم الجدال واشتد الخصام والتفّ حولهم الجمع وسمعت الحفيد يعتب والصاحب يعتذر

والمرأة تبكت وتؤنب وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة فى العتاب والملام ولا يأتى ماتأتيهِ من الحدة والتهور فى الغيرة الا مَنْ كان قائماً بحاجتى مجيباً لرغبتى وقد طلبت منك بالامس ان تشترى لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من أوربا فى البريد الاخير فسوّفتَ وماطلتَ بعد أن أجبت ووعدت واعتذرت بالإعسار والضيق ثم بلغنى اليوم انك اشتريت فرساً جواداً بمبلغ عظيم من المال فكيف تقصر فى حاجتى مثل هـذا التقصير وتبغى منى الاقتصار عليـك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من اصحابك واخوانك »

ثم سمعت الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع انفاسه: « تالله مااشتريت شيئا ولكن بعت أشياآء لأشترى لك العقد بثمنها ولا يغرنك مايقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنئ الخائن وعن قلة أموالى ورهن أطيانى فانت تعلمين بمقدار الاموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك بهِ المحامى فى كل حين »

وماسمع ذلك الصاحب سبهُ بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب . وثارت بهِ سَوْرة الغضب . فتقدم فلعنه وشتمه . ودفعه ولطمه .

فوعده الملعون الملطوم . بالمبارزة في يوم معلوم .

ثم علا هنالك صياح أيضاً في مجلس القمار بين صديق وصديق .
أحدهما في يسر والآخر في ضيق . وأخ يبغى الاقتراض من أخيه .
ومفلس يطالب ميسّراً بدين لا يؤديه . وانكشف الجدال كذلك
عن الضرب واللكم . وانتهى النزاع بالصفع واللطم

واشتبك خصام آخر في ركن المكان . بين أهل السبق والرهان .
هذا يقول فرسي سابق . وفرسك لاحق . وذاك يقول «ركبداري»
حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادي شاهق . وانت الآن
مقرٌّ معترف . بأن الوزن بينهما مختلف . واشتدت المنافسة والمنابزة .
وجرى بينهم حديث للمبارزة . كل هذا والمرأة تنسحب من حلقة
الى أخرى . نسحُب الحية والأفعى . فتطفىء نار الجدال مرة على
حسب بغيتها . وتشعلها طوراً لخبث نيتها

ورأيت الأجدر بنا أن نتركهم على هذه الحال فجذبت بضبع الباشا
وخرجنا من ذلك المكان وأسرعت به منحدراً الى الطريق فسألني
عن تفصيل ما كان وجرى فترجمت له شرح الحال والمآل فاحتدم غيظه
واضطرم حنقه فلم يطفئه الا ما قلته له في آخر الحديث من عزم
القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو يتابع زفراته : لعل

لقدرة تكشف عنى هذا المصاب . وتريحنى المبارزةُ من الابناء والاعقاب . فقلت فى نفسى ان ابناءكم لم يرثوا منكم اخلاقكم كماورثوا عنكم أموالكم وليس عندهم من الشهامة مايدفعون بهِ عن الاعراض والاحساب . ولا من الشجاعة مايؤنسهم بالطعان و بالضراب . ولا يأبهون لكشف العار وأخذ الثار . والمبارزةُ عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار

وتذكر الباشا فى طريقهِ شدة حاجتهِ الى وفاء ماعليه من الاجر للمحامى فالتفت الى البيطار يسألهُ :

(الباشا) ـ هل بقى أحد ممن كانوا حولى من الخلطاء والأقران أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروّة

(البيطار) ـ لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) ـ ابدأ بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم فسرنا الى حيث أشار والهموم تفرسنا . والغموم تخرسنا والاكدار لا تفارقنا . والاقدار لا توافقنا

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه . وبقية أخلائهِ وأصدقائه . فانتهى بنا طول المسير

الى بيت ذلك الأمير . وكأنهُ ميدان فى اتساعه . وحصن فى ارتفاعه .
ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلّم على الخدم وحيّاهم . ثم
سألهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتجهم والعبوس . انهُ فى قاعة
الجلوس . فخطونا فى بحبوحة الميدان . فرأينا فى وسطهِ شجرة كثيفة
الاغصان . حنَى قوامَها تقادمُ الازمان . كأنها الثكلى حلّت شعورها
فى مأتم الاحزان . وفى ظلها فرس يجنّ من النشاط والمراح . وبجانبهِ
كبشُ ضأنٍ للنطاح . وحولهما دِيَكَةُ نزالٍ وضراب . ظنابيبها
مسنونة كالحراب :

فَحُمْرٌ وسود حالكَاتٌ كأنَّها | سَوامُ بنى السّيِد ازدهتهُ القوائمُ
يُزانُ لديها الطعنُ فى حومة الوَغَى | إذا زيّنتْ للعاجزين الهزائمُ
وفيها إذا ما ضَيَّعَ النكسُ غَيْرة | تُصان بها المستصحَباتُ الكرائمُ

ثم وصلنا الى قاعة مشيّدة البنيان . فسيحة الاركان . فى أحد جوانبها
سلسبيل . يسيل ماؤه من أفواه التماثيل . والأرض مفروشة بالبُسُط
الفارسية . وبجلود الضوارى الوحشية . والحيطانُ مستورة بأنواع
السلاح . من خناجر وسيوف ورماح . وفوقها عدة صفوف . من
الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأوانى الصينية القديمة . مع
عيدانٍ للتدخين . من أغصان الياسمين . فخلعنا نعالنا . وتقدمنا

أمامنا . فوجدنا الامير ومن معهُ جلوساً متربعين منصتين مستمعين . يضئ في وجوههم نور الشيب والوقار . وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار . فانقطع الحديث عند دخولنا . برد سلامنا . ولكن مالبث أن اتصل ما انقطع من الكلام . بعد رجع التحية ورد السلام .

ولما استقر بنا المكان همستُ في أذن البيطار أن ينبئني بأسماء الحاضرين فقال لي : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم الخديوى وقد اعتزل الاعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتهجد ويسلك طريق النسك والزهد ويتقرب الى الله بدوام القيام والقعود . وطول القنوت والسجود وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قَعَدَة المشايخ وقُوّام أهل الطريقة وطُوّاف الآفاق من سكان الاماكن المقدّسة رجاء ان يغفر الله له ما تقدم من الذنوب وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه . وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الاعضاء الكرام في مجلس الاحكام . والذى عن جانبه عالم من جلّة العلماء الاعلام والمشايخ العظام . وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادى المشهور في الوقائع والفتوح . والذى بعده فلان من كبار المديرين السابقين . وأما الذى تراه في اخريات المجلس فهو فلان

التاجر من تجار خان الخليلى

(قال عيسى بن هشام) ـ ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرّفنيهِ نظرت الى الباشا فأدركت منه انه لا يبغى المبادرة الى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم فأنصت مع المنصتين فاذا الفريق الجهادى يقول فى اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) ـ وكان «جننمكان» محمد على باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره فى الدّهاء وعلو الهمة وبُعد النظر وإِحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والامانة لخدمته فكان له من الكُفاة مَنْ خدموه بالصدق وافتدوه بالارواح وأذكر منهم المرحوم «محمد بك لاظ أوغلى» فهو الذى دبر له قطع دابر المماليك فى ساعة واحدة . وقد حكى لى المرحوم أخى وكان حاضراً فى تلك الواقعة الهائلة ان المماليك لما رأوا ان المكيدة فى استئصالهم قد استحكم عَقدها واشتد رباطها وأنهم أُحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص من شره فلم يقفوا له على أثر وأعياهم البحث والتنقيب لان «لاظ أوغلى» أخفاه عنهم شديد الإِخفاء وقام له فى ذلك الوقت ـ ان جاز التشبيه والتمثيل ـ قيام

عليّ بن أبي طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة وقد ورث المرحوم محمد علي من ذلك الحين تلك الصيحة المزعجة التي لم تفارقه فيما بعد فكان يزأر في مجلسه بزأرة كزئير الاسود يتقطع من هولها نياط القلوب وقد مات بسببها رجل افرنجي من المصورين كان يقعد له المرحوم لرسم صورته وكان بعض الحجاب نبهه اليها لئلا يفزع منها فلم يستطعها مع ذلك لشدتها وأدركه الهلاك اساعته . فأين مثل « لاظ أوغلى » لمثله من الولاة وأين مثل تلك الصيحة في مثله من الرجال (عضو الاحكام) ـ نعم وكان المرحوم « محمد علي » فوق ما يقال وما يتصور في دقة سياسته لتربية الرجال في خدمته فكانوا كلهم طرازاً واحداً في حسن الولاء وجميل الاخلاص وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمته طول حياته ومن ذلك ما حكاه لي صديقنا المرحوم راغب باشا قال: « كنت اقرأ بين يدي المغفور له أوراقاً وأنا يومئذٍ كاتبٌ من كتبة معيته فدخل علينا سامي باشا في أثناء القراءة ووقف معنا فسأله محمد علي عما يريده فتلعثم تلعثم المتطلع لخروجي حتى ينفرد به فيعرض عليه ما عنده . فقال لهُ : قل ما عندك في الحال فاني لا أخفي عن « راغب » سرًّا من اسراري ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلي وذريتي وبين كتبة معيتي »

فهل تعلمون ياقوم انه يقوم مقام هذه الكلمة فى جلب النفوس وجذب القلوب الى النصح والولاء فى الخدمة إنعامٌ بضياعٍ أو احسانٌ بأموال أو تقليدٌ لرتبة أو نشان . ولقد كان المرحوم راغب باشا كثيراً مايقابل بين هذه الكلمة وبين ما كان يراه فى خدمة الولاة من بعده مثل المرحوم اسماعيل باشا مثلاً فانه كان يتركه وهو اذ ذاك ناظر المالية المصرية والاوراقُ بين يديه وينتقل الى حجرة أخرى للنجوى مع سمسار أو بدّال ويستمر «راغب» فى الانتظار الساعة بعد الساعة واشغال الحكومة الضرورية فى يده ينتظر بها انتهاء المناجاة . فكان اذا قاس هذه بتلك ذهبت هذه بالاحسان والإنعام وبقيت بجانب تلك توخز الصدر وتحزّ فى الفؤاد . فانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة فى تربية رجاله وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو لهُ الملك ويطيب له الحكم

(الشيخ العالم) ـ أصبتَ وصدقتَ وقد اطلعتُ فى التاريخ القديم على واحدة فى هذا الباب للمنصور العباسى تدل على براعته ودقته فى صناعة الملك وهى انه كان يأكل ذات يوم وبجانبه ابناهُ مع شيخ من قواد جيوشه ذهبت أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فمه بعض

الفتات وهو يأكل والاميران يتغامزان عليه فالتفت اليهما الخليفة فرأى مابينهما فمدّ يده فجمع ماسقط من ذلك الفتات فأكله فقام القائد يقول له : لم يبق الآ دينى أقدّمه لك يا أمير المؤمنين فامرنى بما تريد

(المدير السابق) ــ وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد على تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الاهالى وشفقته على الرعية وهى ان احد المديرين أراد أن يفوق اخوانه فى الخدمة لينال مكانة عالية من أميره فجدّ فى تحصيل الاموال وتغالى فى طريقته فأخذ ماعند الاهالى من المال جملة واحدة فضج ضجيجهم واشتد صياحهم حتى بلغ مسامع ولىّ النعم فأمر باحضار المدير فلما وقف فى حضرته قال له : ادن منى . فلما دنا منه اخذ بعنقه فى قبضة يده وصار ينتزع من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة حتى جمع فى قبضته خصيلة من الشعر والمدير لايجد لذلك من الألم الا أثراً خفيفاً ثم ان الامير انتقل الى لحية الرجل فانتزع منها خصيلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصيلة المتفرقة فنبع من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم فقال له محمد على « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الاموال اذا أنت أخذت من ههنا

درهماً ومن هنا درهماً آناً بعد آنٍ خف الوقع على الاهالى ولم يدركوا الألم وتحصلت منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات والكمية واحدة والألم بينهما مختلف فإياك ان تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم الى الشكوى ويجرؤهم على الاستغاثه»

وأعرف له واحدة أخرى فى حسن الإجمال والإدماج وذلك انه صدر أمره الى المرحوم «حسن باشا الانجير كويلى» بتعيينه حاكماً على السودان فامتنع الرجل واظهر عجزه لجهله باللغة العربية وقال : كيف يمكن لى ان أتولى امور قوم لا اعرف حرفاً واحداً من لغتهم . فدعاه محمد على وقال له : ليست معرفة اللغة مما تقضيه ولاية الاحكام ولا هى أداة لازمة للحكم يختل بفقدها وما عليك فى منصبك هذا الا ان تكتفى بمعرفة كلمتين اثنتين من اللغة العربية يجرى بهما لسانك وهما «فلوس» «كرباج»

ولو تأمل المرحوم حسن باشا هذا فى ان محمد على حكم الامة المصرية الدهر الطويل وفتح البلاد العربية ولم يكن ينطق بكلمة عربية فى حياته ـ فما منعه ذلك من تسديد الحكم وتشييد الملك ـ لم يعتذر عن قبول المنصب بمثل هذا الاعتذار

ومن النوادر التي يُستشهد بها في هذا الباب ان محمد على أمر بأن يكون اهل العاصمة رديفاً عسكرياً ثم عين عليهم ضباطاً منهم بالرتب العسكرية فدخل عليهِ وفد من أولئك الضباط وكان الذي يترجم بينهُ وبينهم المرحوم صبحي باشا فقال لهم محمد على كلاماً يقتضي الاجابة بالشكر عليه فقال لهُ متكلمهم : « ناأشَكْ يا افندينا » - وهي كلمة عامية منتشرة في ذلك الزمن بين العامة يقولونها عند الاستحسان والاعجاب - فظهر الغضب على وجه محمد على لانهُ فهمها على اللفظ التركي : « نَهْ أَشَكْ » فأسرع صبحي باشا بتفسيرها لهُ فاستلقى الامير على ظهره من شدة الضحك . فأيّ فائدة حينئذٍ من معرفة اللغة العربية اذا كان اهلها لايجدون في مخاطبة اميرهم غير هذه الالفاظ الساقطة السافلة . والذين تولوا زمام المصريين من الامراء والوزراء ولم يكونوا يعرفون لغتهم عدد ليس بالقليل

(الشيخ العالم) منشداً :-

فلا تكثر واذكرَ الزمان الذي مَضَى   فذلك عصر قد تقضّى وذا عَصْرُ

ورحم الله الماضي وأَعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل . واني لأراكم ايها الامراء مهما أسهبتم في محاسن المغفور لهُ وأفضاله . وأطنبتم في حميد اخلاقه وخصاله . فلستم ببالغي حق الشكر . ولا

موفين بجميل الذكر . ويكفيه من الحسنات التي يغني ذكرها عن الاجمال والتفصيل . وتحكم له بالسبق في باب التميز والتفضيل . انه كان يقرب العلماء ويعظمهم . ويدنيهم منه ويكرمهم . ثم يقضي حاجاتهم . ويتبرك بدعواتهم . ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له في أخراه . بأن له جانباً مع الله . وانه نال جزاء الاحسان . بسكنى فراديس الجنان

قال عيسى بن هشام ـ وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من اهل مكة المعروفين بالمطوِّفين أو المزوِّرين فتقدم الى رب الدار فقبل يده والى الشيخ العالم فلثم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزأً من التمر ومشطاً ومكحلة وسبحة وشيئاً من الحنّاء ثم قرأ الفاتحة وخاطب الامير بقوله :

(المكّيّ) ـ قد جئتك ايها الامير بالقطعة التي امرتني باحضارها من الكسوة الشريفة وأتيتك بجزء من تمر النخلة المباركة التي غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة

(الامير للخدم) ـ عليّ بالمعلم مسيحة الباشكاتب ومعه الكيس لنعطي هذا المسافر جائزته

(وحضر المعلم مسيحه ودنا من الامير فلما بصر بتلك الهدية المباركة

بين يديهِ انكبّ على وجههِ يقبّلها واحدة بعد واحدة ويقول للامير وهو يتبرك بها ويتيمن) :

(المعلم مسيحه) ـ تالله ما أنقذ ابني من عماهُ الا هذا الكحل المبارك ولا شفي والدتهُ من داء الرعدة الا هذه الحنّاء الطاهرة

(الشيخ العالم) ـ بعد ان ذاق التمر واستطابه ـ إيه إيه صدقتَ ايها الرجل ومَنْ كان صائمًا فأفطر على تمر المدينة كُتبت لهُ الجنة

قال عيسى بن هشام ـ فرأيت الباشا يتأفف بجانبي ويزمجر ويتململ ويتضجر ويهمّ بأن يتكلم فالتفت صاحب الدار عند ذلك الى البيطار يسأله عن شأن هذا التأفف التضجر . فتقدمتُ لهُ بشرح القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعهِ إلى الدنيا فنهم من صدّق ومنهم من كذب فتنحنح الشيخ العالم وأشار فيهم باشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) ـ اعلموا انه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق حصر ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن اليقين . ان ننكر بعث الدفين . والرجوعُ الى الدنيا بعد الفناء . أمر معلوم بلا امتراء . تخص القدرة بهِ من تشاء . ببركة الأصفياء والأولياء . وأقرب ما أستشهد لكم بهِ على ذلك من كتاب « مناقب

تاج الأولياء وبرهان الأصفياء القطب الربانى والغوث الصمدانى السيد عبد القادر الكيلانى » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر فى رسالة حقيقة الحقائق ان امرأة غرق ولدها فى اليمّ وجاءت الى الغوث الأعظم وقالت : ان ولدى غرق فى البحر واعتقادى جازم بأنك تقدر على رد ولدى الىّ حياً . فقال لها رضى الله عنه : ارجعى إلى بيتك تجدى ولدكِ فى بيتك . فراحت ولم تجده . فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها الغوث أيضاً : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى بيتك . فراحت ولم تجده . فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع فراقب الغوثُ وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى البيت . فراحت ووجدت ولدها فى البيت فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبية : يارب لِمَ أخجلتنى مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : ان كلامك حين قلت لها كان صدقاً ففى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة وفى المرة الثانية أحييته وفى الثالثة أخرجته من اليمّ وأوصلته الى دارها . فقال الغوث : يارب خلقت الأكوان بأمر « كُنْ » ولم يسبق زمان ولا آن وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لا نهاية لها وتحشرهم فى طرفة عين وجمعُ أجزاء جسدٍ

واحد وإحياؤه وبعثهُ الى دارها شئ جزئى فما الحكمة فى هذا التأخير . فجاء الخطاب من الرب القدير : اطلبْ ما تطلب فقد أعطيناك عوضاً من انكسار قلبك فتضرع الغوث ووضع وجههُ على التراب وقال : يارب أنامخلوق فبقدر مخلوقيتي يليق بى الطلب وأنت خالق فبقدرعظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء . فجاءه الخطاب كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرَّباً وإذا نظرتَ إلى التراب يكون ذهباً . فقال : يارب ليس لى نفع من هذين أعطنى شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت أسماءك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ اسماً من أسمائك فهو كمن قرأ اسماً من أسمائى »

ورُوى فيهِ أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : توفى أحد خدام الغوث الاعظم وجاءت زوجته الى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فقال : ياملك الموت قفْ وأعطنى روح خادمى فلان (وسماه باسمه) فقال ملك الموت : انى أقبض الارواح بامر إلٓهى وأؤديها الى باب عظمته كيف يمكننى

ان أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى . فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فبقوّة المحبوبية جرّ الزنبيلَ وأخذه من يده فتفرقت الارواح ورجعت الى أبدانها . فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليّك عبد القادر فبقوّة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الارواح فى هذا اليوم . فخاطبه الحق جل جلاله: ياملك الموت ان الغوث الاعظم محبوبى ومطلوبى لِمَ لاأعطيته روح خادمه وقد راحت الارواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت »

قال عيسى بن هشام ـ وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول لهم والغضب بادٍ على وجههِ والغيظ يتقد فى صدره :

(الباشا) ـ اعلموا أيها الاخوان ان مغفرة الرحمن وسكنى الجنان لاتُنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن بالأوراد وما نكتسب الدرجة الرفيعة عند الله الا بالعدل والاحسان وفعل الخير واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد

الله . وقد غرنى فى دنياى ما يغركم الآن فكنت أسمع قبل مماتى من مثل هذا الشيخ العالم ما يهوّن علىّ ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور فى معاملة الناس ارتكاناً على نهارٍ أصومه . وليل أقومه . وحرزٍ أحمله . وأثرٍ أقبله . فنمتُ عن عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف فلما توفانى القدير العليم وسكنت فى حفرة القبر علمت مالم أكن اعلم فلم يغننى ذلك وحده من الله شيئا . وما خفف علىّ أهوال القبر وهوّن علىّ سؤال الملك الا حسنة واحدة كنت أتيتها فى إغاثة مظلوم استجارنى فأجرتُهُ وهو فى يد الجلاّد بين السيف والنطع . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى الله فى عباده وإفشاء البر والمعروف فى خلقه ولا تطيعوا النفس الامارة بالسوء فتركنوا الى الاغترار بالامل . وتطلبوا المغفرة بلا عمل . بل استكثروا من الخير قبل حلول الاجل . وتذكروا قول الله الأجل : « وَمَنْ يَعملْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَهْ » واتّعظوا بقول علىّ رضى الله عنه : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وكم من قائم ليس له من قيامه الا السهر والعناء » . واسمعوا القول حكيم الشعراء :

مالخيرُ صومٌ يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوفٌ على الجسدِ
وانما هو تركُ الشر مُطَّرَحاً وَنَفْضِكَ الصدرَ من غلٍّ ومن حَسد

(الشيخ العالم) — انى لأخالك أيها الرجل شيطاناً في زيّ انسان وزنديقاً يتستر بدعوى النشور من القبور . تعساً لهذا الزمن ما أكثر أضاليله وبؤساً له ما أعظم أباطيله ولم يبق علينا من مُدّخرات عجائبه الا ان يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع

(صاحب الدار للباشا) — سألتك بالله ان تخبرني بأية لغة كان سؤال الملكين لك أبا لعربية أم التركية أم السريانية فان هنالك اختلافا وأقوالاً بين العلماء

(الشيخ العالم) ناشدتكم الله ان تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه فانه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال عيسى بن هشام — فلم يسع الباشا الا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغلي ويستعيذ ويستعدى فانخرطتُ وراءه وأنا اذكر قول عمر رضي الله عنه في مثل هذا الشيخ الغليظ البَدِين «ان الله يبغض الحَبْرَ السمين» وأردّد قول أبي تراب كرم الله وجهه «أشكو الى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضُلّالاً ليس فيهم سلعة أبْوَرَ من كتاب الله اذا تُلِيَ حق تلاوتِهِ ولا سلعة أَنْفَقَ بيعاً وثمناً من الكتاب اذا حُرِّف عن مواضعهِ ولا عندهم أنكَرَ من المعروف ولا أعْرَف من المنكر»

ولحقَ بنا البيطار فى خروجنا ومعه التاجر الذى كان مقيماً فى المجلس يناديا بنا فوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له:

(التاجر) — أُشهد الله أيها المولى انى مصدق بأمرك وليس بعد العيان من برهان وما أخطأ نظرى فيك فأنت سيدى الباشا بعينه وأنت صاحب اليد التى أتذكرها طول عمرى. ومالى من نعمة فمنك وما أصبحت فيه من ثروة فبيُمنك وفضلك ولست أُنسى ان اصل شهرتى واتساع تجارتى هو انك جلست فى دكانى مرة عند ماعثرت بك رجلك وانت تقصد زيارة الحسين فارتفع بتلك الجلسة قدرى واشتهر ذكرى وأقبل علىَّ الناس من دون التجار لتوهمهم فيَّ ان لى برحابك صلة وبجنابك نسبة فأصبحتُ ولله الحمد فى غنًى متسع ومالٍ كثير وقد بلغنى من أحمد أغا هذا ماأنت فيه من الحاجة الى الدراهم لأجرة المحامى التى جاءت بك الى هذا المجلس ولكنك أنفت من ذكرها عندما غضبتَ لله . وأنا اتضرع اليك بخالق الخلق ان تتنازل فتقبل منى ماتسد بهِ حاجتك وتتخلص بهِ من مطالبة المحامين

(وأخرج التاجر كيساً مملوأ فقدمه الى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد فأخذه الباشا وقال له):

(الباشا) — انى اشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله

لك حسن الجزاء فهلمّ اكتب لك صكاً بالمال لأردّه اليك عند استرداد أوقافى

(التاجر) ـ حاشا للّه ان أكون من أهل هذا الزمن الذين اصبحوا لا يثقون ببعضهم بعضاً فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا الصاحب صاحبه ولا الجار جاره على درهم واحد الا بعقود وصكوك بل أنا لا ازال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان دون احتياج الى تحرير الاوراق وتسطير الصكوك . وما يكون الاستيثاق الا عند توهم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام ـ فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لى: انصرفْ بنا الى المحامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب الى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا . فما نخرج من قبضة محام . الاّ الى قبضة محام . ونسأل الله السلامة فى الختام

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وأخذتُ طريقى . مع رفيقى . أَنشد صاحباً أسترشده . فى محام شرعىّ أقصده . . وبينا نحن نسير . ونسأل الله التيسير . اذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ما خطبُك قلت

قضية. فى المحكمة الشرعية. فما طرق الخبرُ سمعَه حتى أجرى دمعه. وهوّل الامر وهوّلت. وحوقَلَ وحَوْقلتُ. ثم قال لقد وقعتُ قبلك فى هذا البلاء. ولمّا تم لى النقاهة من الداء. وأنا أنصح لك ان كنت مدعياً أن تترك دعواك. وتصبر على بلواك. أما ان كانت الدعوى عليك. فليس الخيار اليك. ولا مردّ لحكم القضاء. بتدبير الآراء. فقلت للضرورة أحكام. فأرشدنى لانتخاب محام. يكون مشهوداً بعدالته. مشهوراً بطهارته. بعيداً عن خُلْف الوعد. بريئاً من خُلُق الوغد. لا يتفق مع الخصم. ولا يسرق من «الرسم». قال اطلبْ من أنواع المحال. أن يحمل الذرُّ الجبال. ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط. فينتهى بك الأمر الى اليأس والقنوط. ولمحاولةُ الارتقاء. فوق متن العنقاء. أيسرَ من ذلك مطلبا. وأوسع مذهبا. والمحامون الشرعيون — حماك الله — يستوون لدى الاختيار. كأَسنان المشط وأسنان الحمار. بل هم جميعاً كحمارَى العبادى قيل لهُ أىّ حماريك شرٌّ قال هذا ثم هذا. وأُقسم لك بخالص الود. أنى لا أثق منهم بأحد. وكيف تكلفنى أن انتقى لك ذئبا من الذئاب. وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب. فأعفنى من هذا الاختيار والانتقاء. عافاك الله من جميع الأسواء. ثم ما لبث ان خلّفنى

ومضى . وتركني على مثل جمر الغضى . فسرت كئيبا حزينا . أبغي سواه مرشدا ومعينا . ولما لم أجد من أصحابي مَن يأخذ على عهدته . اختيارَ محام يوثق بذمته . قصدت أحد المعلومين عندي بكثرة الخصومات . وطول المحاكمات . فكاشفتُه بطلبتنا . ليكشف من مصيبتنا . فقال اعلمْ ان المحامين الشرعيين أجناس وصنوف . فمنهم المبصر ومنهم المكفوف . وفيهم - كتب الله لك السلامة - . صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة . وانا أدلك على أهونهم شرّا . وأقلّهم ضرّا . وأخفّهم رزيةً وبلية . وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية . فعليك بفلان وبيتُه معلوم . في منتهى «حارة الروم» - فقصدنا البيت نشقّ طرقاً مُعْوجّة . ونخترق ثنيّاتٍ مزدوجة . الى ان انتهينا الى باب دار . كأنها مطلية بالقار . تسوّرتْ بأكوامٍ من الاقذار . وتلفعت بتلالٍ من الأوضار . ورأينا عند مدخل الباب . صِبيةً يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تَجمّعَ على وجهها من الذباب . مثل البرقع تنقبتْ به قبل أوان النقاب . ولما تخطيناهم غشيتنا رائحةُ المرحاض . فاستندنا هنالك على هضبة أنقاض . بجانبها مِذوَدُ أتان . تزاحمها عليه إوَزّتان وبَطّتان . ثم إهتدينا الى حجرة في جهة اليمين فرأينا أمامها فرّانا ينادي : «العجين» «والاجرة» . فسألناه عن رب الدار

فأشار الى الحجرة . فدخلنافوجدنافيها حصيراً تغطّى بالغبار والحصباء . ومتكئاً تعرّى من الفرش والغطاء . وفى زاوية من زوايا الاركان . سراجٌ لا ينفذ نورُه من تكاثف الدخان . وفى أعلى رفوف الرواق . أحمال كتبٍ وأوراق . قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد . وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد . وفوق الارض زجاجات مطروحة من المداد . وفى بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب الاولاد . وبَصُرنا برجل :

نَعُرِّفُ حَنَاؤُهُ شَيْبَهُ ۝ فهل غَرَّ الظَّهرَ لمّا انحنى

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة . وعن يساره امرأة كأنها السعلاة . فسمعناه يقول لها فى تسبيحه : « أتستكثرين — أدرّ الله عليك خيره . وأبدلك زوجاً غيره . — ما أخذتُهُ منك لاستنباط الحيلة فى التفريق . واستخراج الحكم بالتطليق . فأبعدتُ عنك زوجاً تكرهينَه . لتبدّلى منه زوجاً تحبينه » . ثم انه استحس بدخولنا من ورائه . فارتدّ الى اتصال تسبيحه ودعائه . وانتفضت المرأةُ فتنقبت بخمارها . وتلفعت بإزارها . وخرجتْ وتركنا مع رجل يخدع الانام بطول صلواته . ويتلو سورة الأنعام فى ركعاته :

اذا رَامَ كيداً بالصلاةِ مُقيمُها ۝ فتاركُها عمداً الى الله أقربُ

وجلسنا مدة ننتظر خلاصه من هذا الرياء . وخلاصَ الملكين من صحيفته السوداء . وخلاصنا من هذا الكرب والعناء . فاذا هو قد وصل المغرب بالعشاء . وكنا نشاهد منه فى خلال ذلك نظرات مختَلَسات نحو الباب . كأنه هو أيضاً فى انتظار وارتقاب . الى ان دخل علينا غلام يصيح به : الى متى هذه العبادة . فقد بليتْ السجادة . وحاجاتُ الناس موكولة اليك . وقضاء مصالحهم موقوف عليك . وهذا دولة البرنس ينظرك فى القصر . منذ العصر . دَعْ مدير الاوقاف . ونقيب الاشراف . » فلم يعبأ المصلى بهذا الكلام . بل جهر بالآية من سورة الانعام : « قُلْ إن صَلاتى ونُسكى ومحياىَ ومماتى للهِ ربّ العالمين لاشريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أوّلُ المسلمين » . فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق . واشتدّ بنا الضجر والقلق . فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء . ولهذا التسبيح انقضاء . وهممنا بالقيام . فالتفت الشيخُ للغلام . وأشبعه من التأنيب والملام . ثم حيّانا بألطف سلام . وقال بارك الله فيكم وعليكم . وانا فى الخدمة بين يديكم . فقلنا علمنا أنك رجل عدلٌ عف . فجئناك لقضية فى وقف . فقال الغلام أتطلبون ريعه . أم تريدون بيعه . فقلت سبحان الله وهل تباع الاوقاف . قال نعم ويباع جبل قاف .

ثم تنحنح الشيخ وسعل . وبصق وتفل . وانسعط . ثم تمخط . واقترب منا ودنا . ثم قال لنا :

(المحامى) — دعونا من هذا الغلام وقولا لى ماهو الحق فى الوقف وما هو شرط الواقف وكم يقدر ثمن العين لتقدر « قيمة الاتعاب » بحسبه

(عيسى بن هشام) — ان لصاحبي هذا وقفاً عاقته عنه العوائق فوضع سواه عليه يده ونريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد

(المحامى) — سألتك ماهى قيمة العين

(عيسى بن هشام) — لست أدرى على التحقيق ولكنها تبلغ الألوف

(المحامى) — لا يمكن ان يقل مقدم الاتعاب حينئذ عن المئات

(عيسى بن هشام) — لا تشطط أيها الشيخ فى قيمة الاتعاب وارفق بنا فاننا الآن فى حالة عسر تقضى عليك بذلك

(الغلام) — وهل ينفع فى رفع الدعاوى اعتذار باعسار ألم نعلم ان هذا شغل له « اشتراكات » وللكتبة والمحضرين « تطلعات » وأنى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى وكسب القضية بما يهون معه دفع كل ما يطلبه فى قيمة أتعابه وهل يوجد مثله أبداً فى سعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة فى استمالة محامى الخصم واستجلاب عناية القضاة

(عيسى بن هشام) ـ هذا والله كل ما يمكننا دفعه الآن من الدراهم ونكتب بما يبقى صكاً لحين كسب القضية وليس يفوتك شيء من ذلك مادام ربحها مضموناً لديك على كل حال

(المحامي) بعد ان استلم الدراهم يعدّها ـ أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما ادّخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة المسلمين . وعليك بشاهدين للتوكيل

(عيسى بن هشام) ـ وبأية طريقة يكون التوكيل

(المحامي) ـ يجب عليك ان تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة بأن فلاناً بن فلان بن فلان وكّل فلانا بن فلان بن فلان في المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفي المطالبة والدفع والاقرار وفي كل ما يصح فيه التوكيل شرعا وفي أن يوكّل عنه في الدعوى غيره وان يعزله وان يفعل ذلك مراراً وتكرارا كلما بدا لهُ فعله المرة بعد المره والكرة بعد الكرة »

وأنا أنتظر حضوركما غدا مع الشاهدين ومستند الوقف

(عيسى بن هشام) ـ ليس لدينا الآن إلاّ شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه

(غلام المحامي) ـ هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها

ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهد به بين يدى الحق

(عيسى بن هشام) ـ وليس فى يدنا أيضا مستند للوقف

(المحامى) ـ أما من جهة المستند فينبغى استخراج صورة من السجل «المصان» (كذا) وهذه خطوة ثانية فى متاعب القضية

قال عيسى بن هشام ـ وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا واستقبل القبلة بوجهه وقام لصلاة العشاء فقمنا للانصراف. وسرت مع صاحبى وأنا غريق فى الافكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد ان كان شديد الحدة سريع الغضب يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب فأصبح بفضل وقوعه فى هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتابعة لين العريكة واسع الصدر موطأ الكنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه فى يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذى يجعل دأبه البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم وازددتُ يقينا بأنه لا شىء أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالاخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأنّ أسوأ الناس أخلاقاً وأنكدهم عيشاً هم هؤلاء

الا غمار المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان ولم تهذبهم صروف الازمان . ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على ان قال :

(الباشا) ـ قلتَ لى ان المحامين الشرعيين فيهم صاحب الطربوش وصاحب العمامة فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى شاهدناه أم يوجد بين الفريقين فرق

(عيسى بن هشام) ـ اعلم أن الخيرة فى الواقع والحمد لله على كل حال فان فيهم تحت « الطربوش » . من هو أشد فتكاً من ضوارى الوحوش . وأعرفُ طربوشاً منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على إنكار كلام نطق بهِ فى مجلس كنتُ حاضرَهُ إرضاءً لأحد أرباب القضايا وإغضاباً لخالق البرايا واستهانةً بحكم الشارع واعتماداً على قول الشاعر :

وإنْ أَحلفونى بالطلاقِ أتيتُها   على خيرِ ما كُنّا ولم نتفرّقِ
وإنْ أَحلفونى بالعتاقِ فقد دَرَى   عُبَيْدٌ غلامى أنه غيرُ مُعْتَقِ

قال عيسى بن هشام ـ ومضت علينا الايام ونحن نقصد الشيخ المحامى فى كل يوم فلا نتمكن من لقائه فان ذهبنا اليه فى البيت قيل لنا انه فى المحكمة وان ذهبنا الى المحكمة قيل لنا انه فى القصر الفلانى أو القصر

الفلانى من قصور الامراء والكبراء حتى حفيت الاقدام ومللنا الاصطبار فاخترنا ان نربط له أمام بيته عند الثلث الاخير من الليل فنصطاده عند خروجه وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانَهُ فتقدمت اليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنبُ فيه لكثرة مشاكل الامراء ودعاويهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة فذهب بنا « الى كاتب الاشهادات » فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه من حمرة الحذاء فى رجله وزرقة الجبة على كتفه وصفرة الحزام فى خصره وبياض العمامة فوق رأسه

تعدّدتْ ألوانُهُ كأنهُ قوسُ قُزَحْ

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة المتوقف وقال انه شاب صغير السن وانه وانه ... فمال عليه غلام المحامى وألقى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره الى قاضى الجلسة لسماع الاشهاد بعد ان قال لنا الغلام: وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الاشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى مسافة يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف: يجب بعد هذا ان نقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها

ومن عملية مَنْ هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) نخرجنا نبحث على احمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا الى مطلوبنا فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا فقال ان عندى ورقة فيها نمرة الوقفية كنت تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الجهيد والزمن المديد لاثبات حقى فى ريع الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد الينا بالورقة فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل « العملية » فقصدنا غلام المحامى وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا العريضة وقدمناها لحضرة القاضى فوضع عليها اشارة لحضرة الباشكاتب ليتحرى عن مسألة « الشأن » وطلبوا منا شهوداً يشترط فيهم ان يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بانه صاحب الوقف وأن سواه وضع يده عليه فأدركتنا الحيرة فى الامر فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد ان قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية . ولما نظر الباشكاتب فى العريضة ووجدأننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب « العملية » قال لنا انه لا يمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك وانه لا بد لنا من انتظار السنين والاعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدها . فعاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام : لا تحزنا فأنا أساعد على

سرعة الانجاز وأتوجه معكما الى الدفتر خانة ان شاء الله . وهذه هى الخطوة الخامسة فى تكاليف القضية » . وما يزال الخبيث يعدُّ لنا الخطوات. ونعدُّ له فى كل خطوة دُريهمات . ونحن نسأل الله ان ينقذنا مما اصابنا من حكم الدهر . وأن يعجّل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وعكفنا زمنا نشتد فى الطلب . والمحامى يشتد منا فى الهرب. فلما طال علينا الامد فى ارتياده . ويئسنا من لحاقه واصطياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه . فرأينا الخبيث يصعّب فى الامور والاحوال . لنسترضيه بالعطاء والنوال . وقال لنا أقول لكما الحق والحق أقول . انه ليس من المتصور المعقول . ان نهتدى فى هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها . دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يجول فى الخواطر والأوهام . ان يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير وحى أو إلهام . الاّ بعد كرّ السنين ومرّ الاعوام . وان اعتراكما بعض الشك أو الريب . ولم تصدّقاني بظهر الغيب . فهلمّا معى أطلعكما على ما يزول معه اللبس . وتقتنع به النفس . فقيدناه بقيود الترغيب والتأميل . وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليلٍ . فانطلق أمامنا يثب ويحجل . حتى دخلنا

بيت السجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتاب . ألفينا خشباً مسنّدة . على خُشُب موطّدة . وهيا كلَ تفترش الفِرا . فوق الثرى . لاتميز منهم وجه انسان من انسان . لعشوة البصر من ظلمة المكان . فتذكّر الباشا عند ذلك ظلام الرمس . وكرّ راجعاً ينتظرنا في ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى أذن أحدهم يكلمه . بما لا أعيه ولا أفهمه . فبادر الرجل بالنهوض والقيام . وسار بالغلام وأنا في عقب الغلام . فما خطونا بضع خطوات حتى حيل بيننا وبين ضوء النهار . وتجللنا من حندس الليل بحجبٍ وأستار . فوقفت لا أبصر ولا أهتدى . فأخذ الغلام بيدى . وقد عميت عليّ وجوه المسالك . في هذه المخاوف والمهالك . وسرتُ فوق أرض تَهَشُّ تحت القدم وتلين . كأنها مفروشة بالهشيم تلبّد في الطين . وما زلنا نمشى فى أنحاء تلك المطمورة . على هذه الصورة . حتى تخيلتُ أننى فى قبور قدماء المصريين . أو فى هياكل الاسرار بمعابد الرومانيين . أو فى طريق الامتحان عند أحرار البنائين . فوجب القلب . من شدة الرعب . خشية أحبولة نُصبت . أومكيدة رُتبت . ووجمت . ثم أحجمت . وقلت للغلام ليس بيننا مايوجب للاحتيال . أو يدعو للاغتيال . وماذا تريد منى فى هذا الغيهب . وليس معي من فضة ولا ذهب .

ولا مِن شيء يُستلب أو يُنتهب . فقهقه الفاجر ثم أقسم بالله وثنّى بالطلاق . أننا نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولفائف الاوراق . وقال كنْ آمناً مطمئنا على نفسك . وسترى الحقيقة بعينيْ رأسك . وما كاد الشقي يتم لي هـذه العبارة . حتى عثرتْ قدمي في لفافة فوقعتُ على غِرَارة . واذا بصائح يصيح من تحتها متبرّماً متأففا . ويقول لي متغطرسا متعجرفا : ما هذه العشاوة ياعديم الإبصار . ونحن لا نزال في أديم النهار . فقمتُ متثاقلاً متساندا . وقلت في نفسي منشدا :

دُجًى تتشابهُ الأَشياءُ فيهِ   فيَجْهَلُ جِنسُهَا حتى يَصيحَا

ثم تأملت فاذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته . بذيل مئزره أو جبته . فتولاني الخوف والوجل . وقلت مَن الرجل . فقال الغلام كاتبٌ من كتبة «السجلات» . ينبش عن اوراق في سجل «الايلولات» فقلت وكيف يهتدي لذلك . وسط الظلام الحالك . فقال أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كالخُفَّاش يبصرون في سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الوَرَى هكذا   لَمَا حَسَدَ العُميُ مَنْ يُبصرونْ

ثم انعطفنا من ذات اليمين الى شبه قاعة . يلوح فيها من الضوء مثل

جناح يراعة . واذا هو لُعابُ الشمس يسيل من ثُقب . في سقف ذلك الجُب . وهو يموج بأنواع الجراثيم . تموُّجَ الماء بالهشيم . نخلتُ ان عجوز الفلك الدوّار . ـ أُريدُ بها شمسَ النهار ـ . خشيتْ أن تضل في ظلمة هذه المفازة . فاتخذت لها من لُعابها عكازة . تتوكأُ عليها للاهتداء . وتدب بها في هذا العماء . فمسحتُ على بصري . وأحدقتُ بنظري . فأبصرت وماذا أبصرت . ونظرت وماذا نظرت :

ما إنْ سمعتُ ولا أُراني سامعاً أبداً بصحراءٍ عليها بابُ

نعم رأيت فضاءً متسعاً ترا كم فيهِ من الاوراق الرثيثة والدفاتر البالية . مثلُ الرُّبى الشاهقة والأَكمَات العالية . غير أن هذه تثمر وتُجنى . وتلك تعثّ وتَبْلَى . هذه تكون مخضرّة مخصبة . إن جادها الحَيَا أينعتْ بالغضّ من النبات . وتلك سوداء مجدبة . ان بلّتها الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرضُ تبسُطُ في خدّ الثرى وَرَقاً كما تُنشَّرُ في حافاتِها البُسُطُ
والريحُ تبعث أنفاساً مُعطَّرَةً مثلَ العبير بماءِ الوردُ مُختلطُ
وهذه بسَطتْ فوق الثرى ورقاً لكنهُ للبلَى والعُثّ منبَسطُ
وريحُها تورثُ الأَسقامَ ناشقَها كأَنهُ من تَراب القبر يَستعطُ

وما لبثتُ أن استبان لي شخص الكاتب المرافق لنا . في لمحة

ذلك السنَا . فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقنعٍ بالاصفرار . وعينٍ مكتحلة بالاحمرار . وقد طوى من خلفه الجبة . ورفعها على ظهره كالجعبة . وفى حزامه دواة من نحاس أصفر . وبين طيّات العمامة أوراق بالتواريخ « والنمر » . فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم . وقلت لذلك الغلام اللئيم :

(عيسى بن هشام) — هلمّ بنا أيها الراوغ الى الباب لنعود الى ضياء الحياة فقد يئست من أمرنا . وأنّى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث فى هذا اللُّج القامس . والليل الدامس

(غلام المحامى) — لا تنكرنّ على مثله الاهتداء فى دياجى الظلماء ولا يهولنك تشتت الدفاتر وتراكم الاوراق فهى مرتبة فى حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيهِ وعن جده فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء « البوغاز » فى الاسكندرية هداية السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الارض فى قاع البحر . ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث ولوصلنا الى الغرض

(الشيخ الكاتب) — نعم لا تنكرْ علينا بارك الله فيك اهتداءَ نا للبحث فى هذه الأوراق . والله يعلم ان هذه الدفترخانة مرسومة

فى ذهنى منـذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب فهى مقسمة الى عدة سجلات منها «سجل الباب العالى» تسجل فيه الاعيان المباعة غير الموروثة . ومنها «سجل القسمة العسكرية» تسجل فيه الاعيان المباعة الموروثة . ومنها « سجل الايلولات » تسجل فيـه الاعيان المحصورة من تركة تخصص أو تباع بالمزاد . ومنها « سجل الاعلامات » تسجل فيه المواد التى تصـدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان . ومنها « سجل التقارير» تسجل فيـه تقارير النظار وقفاً وغيره . ومنها « سجل الوقفيـات » وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصـادق ....

(عيسى بن هشام) ـ سبحان الفـاتح الوهاب . ومن يهدينى الى طريق البـاب

(الشيخ الـكاتب) ـ ... ومنها «سجل الديوان العالى» تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبـار العلماء من المذاهب . ومنها « سجل القسمة العربية » تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين ...

(عيسى بن هشام) ـ اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلمّ فقد

ضاق بنا الوقت

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً — ... ومنها «سجل اسقاط القرى» يسجل فيه ما يأخذه الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى. وليس يخفى انه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبل السلطان وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الانواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) وكانت مراكزها فى جهات «باب الشعرية» و «قناطر السباع» و «جامع طولون» و «جامع قيسون» ....

(عيسى بن هشام) — يكفى أيها الشيخ فقد وجب الرحيل. ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) معدداً — ... وفى جهات «درب سعادة» و «باب الخرق» و «الصالحية» و «النجمية» و «أحمد الزاهد» و «البرشمية» و «مصر القديمة» و «بولاق» و «جامع الصالح» و «جامع الحاكم» ....

(عيسى بن هشام) — تبارك من له الاسماء الحسنى. ومن يعيدنى الى الحياة الدنيا

(الشيخ الكاتب) — ... ثم «محكمة الباب العالى» وهى المحكمة

الـكبرى وقاضيها هو المسيطر على الجميع المولّى من القسطنطينية .
و « محكمة القسمة العسكرية » وقاضيها يعين كل سنة من دار السعادة كقاضي المحكمة الـكبرى ويسمى « القسّام » وشغله المواريث بأنواعها فقط و . . . .

(عيسى بن هشام للغلام) — لقد ملّ سمعي . وضاق ذرعي . فاخرج بنا وأنقذني من شر هذه الدار . ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار
(الغلام) — لا تضجر ولا تقنط وأنظرني قليلاً حتى أستنير برأي الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة وفرجاً للكربة . (ثم مال على الشيخ منفرداً به فسمعته يقول له) :
(الغلام) — مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها وأنت لا تأبى الربح والكسب انا جميعاً وأصحابُ القضية من كبراء الناس أهلِ السماحة والكرم
(الشيخ الكاتب) — مهلاً فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل فان لكتابتها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخِلَع التي خُلعت على كاتبها بقايا الى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان فدونك وأصحاب القضية فاتفقْ معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ

وجئنى بها نافعةً تشفع لنا أجمعين والله ينفعنا بنفع المسلمين

(الغلام لعيسى بن هشام) ـ قد تيسرت الحال بإذن الله ووصلنا الى معرفة اسم الكاتب الذى تُستخرج به الصورة . والرأى لك فى هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام ـ ثم انطلق الغلام أمامى يسحبنى وراءه حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجهرتْ عينى وسدرت فلم أبصر فى الشمس عند الباب الاّ بعد التردد مراراً بينها وبين الظلام . ولما التقيتُ بالباشا فى الموضع الذى كان ينتظرنى به سألنى عن طول هذا الغياب فلم أرد ان أضيف الى مصائبهِ مصيبةً أخرى بوصف ما كنت فيه بل كتمته إياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على ان يباشر وضع اسم الكاتب فى الورقة ويعود بها فى اليوم الثانى الى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية بعدأن نقدناه ما نقدناه

ثم دارت بعد ذلك علينا الايام ومضت الشهور ونحن نتردد على الدفترخانة تارة فى صحبة الغلام وتارة بدونه الى أن حل الأجل وآن الأوان فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح الغوّاص بدرّة التاج . تحت تلاطم الامواج . ونهضنا معهُ الى الدفترخانة

فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته فى الاهتداء
عليها مع قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجد
فحمدناه على همته العالية وصنعهِ الجميل فأخرج من تحت إبطه أوراقاً
بالية متخرقة متآكلة لاتستوى منها ورقة مع أختها فيها سطور متقطعة
وخطوط متوزعة لايستطيع ان يحلها الاّ من كان عريقاً فى كشف
الرموز وفك الطلاسم . فقلت لهُ ان الاهتداء الى نقل صورة مفهومة
من هذه الاوراق لَأعظمُ مشقةً وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها
من تلك الصحراء المظلمة . فقال لى ان كثرة التعود تيسر العسير
وتهوّن الصعب وقد ورثتُ عن المرحوم والدى أيضاً قراءة هذه
الخطوط وتلفيق مارثّ من أواخر السطور والعبارة واحدةٌ لاتتغير
تقريباً فى كل باب من أبواب السجلات . ورأيته يستعد ليسترسل
فى أبواب الشرح والوصف وخفتُ ان تشتد به نوبة الهذر والإكثار
فودعناه وانصرفنا وكلفنا غلامَ المحامى ان يأتى لنا بالصورة من عنده
بعد انتهائها فطلب منا ان ندفع رسمها وان نأتى بشاهدين يشهدانِ
علينا باستلامها ووعدَنا بأنه ينوب عنا فى اجتلابهما بعد ان طالبنا
بالمكافأة الواسعة . على هذه الخطوة السابعة

*

* *

قال عيسى بن هشام — ولما صارت فى يدنا الصورة . بعد تلك المواقف المذكورة . خطا غلامنا الثامنة من خطواته . فى بعض روحاته الى المحكمة وغدواته . فذهب الى كاتب «الطلبات» . لتحديد إحدى الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس . على ان تكون الجلسة فى يوم الخميس . وأنه حرر «طلباً» لحضور الخصوم . فى الوقت المعلوم . فأقمنا أياماً نعلل النفس بالأمل . حتى حلّ هذا الأجل . وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ المحامى ولقائه . بعد طول احتجابه عنا واختفائه . ورضى ان يتوجه معنا الى المحكمة . ليكشف عنا بيمنه كل مظلمة . فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعىّ . والحكم المرضىّ . والعدل المقضىّ . بوحى الإله وسنة النبىّ . حيث تقام منابر الهدى . وتشاد منائر التقى . وينبلج نور الحقيقة والعدالة . وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة . ويؤخذ من الظالم للمظلوم . وينتصف من الحاكم للمحكوم . ويسارُ على الصراط السوىّ . فى الحكم بين الضعيف والقوىّ . — حيث تتحد المواقف والاقدام . وتستقيم الاوامر والاحكام . وتغدو فيه الثكلى ربةُ الأيتام . أعزّ من الفارس رب الرمح والحسام . ويصبح الأعزل الشاكى . أقوى من المدجج الشاكى . ويتساوى لديه رب الشُويهة والبعير . برب

التاج والسرير . ـــ نعم حيث يكون المقعد الموروث . عن النبي المبعوث . وحيث يُعمل بالسنّة وآي الكتاب . فيُنتصر للذليل على العزيز . ويُقتدَى فيهِ تارة بسيرة عمر بن الخطاب . وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقر المهابة والجلال . ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والامانة . ومنبع العفة والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع

ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات . تجرها الجياد الصاهلات . وبجانبها الراقصات من البغال والحمير . عليها سُرُجُ الفضة والحرير . فحسبناها مراكب للعظماء والأمراء . في بعض مواكب الزينة والبهاء . وسألنا لِمَنْ هذي الركاب . فقيل لنا انها لجماعة الكتّاب . فقلنا سبحان الملك الوهاب . ومن يرزق بغير حساب . ونحوْنا نحو الباب . في تلك الرحاب . فوجدنا عليهِ شيخاً حَنَتْ ظهرَهُ السنون . فتخطّتهُ رُسُل المنون . قد اجتمع عليه العَمَه والصمَم . ولجّ به الخَرَفُ والسّقم . وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من نوازل القضاء . ثم صعدنا في السلم فوجدناه مزدحماً بجملة أناس . مختلفي الاشكال والاجناس . يتسابّون ويتشاتمون . ويتلاكمون ويتلاطمون . ويبرقون ويرعدون . ويتهددون ويتوعدون . وأكثرهم آخذٌ بعضهم

بتلابيب بعض. يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الارض . ومازلنا نزاحم على الصعود فى الدّرَج . والعمائمُ تتساقط فوقنا وتتدحرج . حتى منّ الله علينا بالفرج . ويسّرَ لنا المخرج . فى وسط هذا الجمع المتلاصق . والمأْزِق المتضايق . ووصلنا الى القاعة السفلى . فوجدنا عندها امرأة حبلى . تتقلب على الارض كالثعبان . وتستشهد بالأهل والجيران . أنّ بعلها . أنكر حملها . وحاولنا ان نخطو خطوة الى الأمام . فلم نستطع من شدة الزحام . وكيف بالتقدم فى عُباب موجٍ ملتطم . ومنحدر سيلٍ مرتطم . من نساءٍ صائحات مولولات . ونائحات مُعولات . ونادبات باكيات . وصارخات شاكيات . كأنهن قائمات فى مأتم على مدافن الاموات . تقرّحتْ فيهِ العيونُ وبُحّت الاصوات . فيهنّ المُسْفرة والمتقنعة . والمضطجعة والمتربعة . والحاسرة عن الذراع والرأس . وأختُها تفلّيها فى وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن ثدييْها . ترضع طفلاً على يديها . وغيرها ترضع طفلين فى حذاء . وزوجُها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى آخذةٌ بضفيرة ضَرّتها . ورضيعُها يتلهف على ضَرّتها . ومن بينهن مَن يتقدمها طليقُها . ويتبعها عشيقُها . تشيّع الاولَ باللعن والسبابِ . وتغمز الثاني بكف مزدانةٍ بالخضاب . ورأينا العقيلة المخدّرة مع « الأغا » . لا يستطيع ان يحميها فى حومة هذا الوغى . وشاهدنا فى

الجمع جماعة من فجار الخلعاء . وتبَّاع النساء . يغازلون كل غانية هيفاء .
ويغامزون كل غادةٍ غيداء . ويتعرضون لفضّ النزاع . بين ذوات
القناع . وفصلِ العناد والشقاق . بين الطاعنات بالاحداق . فتختلط
غمزاتُ الطرْف . بهمزات الكف . فيزول ماهنالك من الجدال
والخصام . ويصيرون جميعاً الى الحسنى والرقيق من الكلام . ورأينا
فيما رأينا من غرائب البشاعة . وعجائب الشناعة . رجلا وامرأةً
يتسابقان فى ألفاظ الفُحش والهُجر . ويتباذَّانِ فى أقوال البذاءة
والنكر . وهما يتجاذبان فى أيديهما غلاما . كأنما يحاولانِ له اقتساما .
ليأخذ كلٌّ منهما من أعضائه بنصيب . والغلامُ يبكى من شدة
الالم والتعذيب . فاستعذنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم .
وسمعنا من أفظع ما سمعنا امرأةً تنتحب وتقول . ونقابُها بماء العين
مطلول : ـ لو كان للنساء قضاة من النساء . لَما وصلنا الى هذه الحالة
التعساء . فان الرجال يميلون لجنس الرجال . وينتصرون لبعضهم على
ذوات الحجال » . فاستعنّا برب المثانى . وصعدنا فى السلم الثانى .
فاذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل . أو خلايا النحل .
وانتهينا منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة . هذا يصيح « الخبزَ
والجُبن » . وذاك ينادى «الدخانَ والبن» . وآخر يقول « الزبدة

والعسل » . وبعضهم يردد « الفولَ والبصل » . وبائع الضأن يفتت بسكينهِ جماجم الرؤوس . والثلّاج يصفق باكواز «العرقسوس» . وهناك قهوة يدب فيها الشهود بالعشرات . كدبيب الحشرات . فيعرضون أنفسهم على الخصوم . للشهادة أو التزكية بأجر معلوم . وغلمانُ المحامين يروحون بين الجموع ويغدون . فيمكرون بهم ويكيدون . ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون . فيخدعون ويغتالون .

ودخلنا حجرة صغيرة من حُجُرات الكتّاب . فثار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب . فرجعنا على الأعقاب . ونجونا من الأوصاب . ثم انحدرنا مع غلام المحامى الى حجرة كبيرة الساحة . فقال اجلسوا هنا للاستراحة . فأجلسنا في صدر المكان . بين الكتبة والغلمان . ولا بد لكل كاتب هناك من غلام . يقوم مقامه في تنسيق الاحكام . فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين . يقسم على أقواله بكل يمين . بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق الميدان . لمَا تأخر حماره عن حمار فلان . وسمعت صاحبه بجانبه . يحلف بجدّهِ وأعزّ أقاربه . انه لولا حبسه للعنان . لسبق كل الحمير في يوم الرهان . ويقول له وهو يتلفف في العباء : « قد بلغنا عن الأجداد والآباء . انه اذا صحّت الشعرة الخضراء . لم تتعلق

بذيل الحمار الهواء» . ثم التفتُّ ذات الشمال وجدت كاتباً منهم غض الشباب . عظيم التأنق فى لبس الثياب . فهو يتلألأ ويتألق . فى سندس وإستبرق . كأنما خاطوا له قباءً من أزهار بستان . مختلفة الاشكال والالوان . يفعم الأنوفَ بعطره . ويعبق الجو بنشره . وأمامه رجل فى يده صرة ثياب ينشرها ويطويها . فيأخذها «السيد» منه ويرميها . ويقول له فى حدّته . وشدة سَوْرَته :

(السيد) ـ هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها . وبئس المفصّل مفصلها

(الخياط) ـ كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد . أنها أوسع من ثياب السيدين عبد العزيز وعبد الحميد

(السيد) ـ كذبتَ ورب الكعبة فان استدارة الكم ضيقة والرقبة لا تنطبق على الزىّ الحاضر

(الخياط) ـ وماذا أصنع وذلك كل ما فى عرض الحرير ولو كنا على الزىّ القديم لدخل مع السيد فى طىّ ثيابه . اثنان أو ثلاثة من أصحابه

(أحد أصحاب القضايا) ـ صبّح الله السيد بالخير والإنعام

(أحد الكتبة الظرفاء) منكتاً ـ لا بل بالخيل والأنعام

(صاحب القضية) ـ أرجو سيدى أن يعطينى الاعلام

(السيد) ـ اذهب حتى يأتى الغلام

(الكاتب الظريف) مورياً ـ عليك بهِ فى شارع أمّ الغلام . تجده جالسًا نصاًّ تحت الاعلام

قال عيسى بن هشام ـ وعافت نفسى هذه النكت الباردة والمعانى الساقطة فأعرضت عن الاصغاء . وسرّحت طرفى فى بقية الانحاء . فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون . هذا يَلُتُّ فى يده أفيونه . وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه . والغلمانُ يشتغلون تارة بأوراقهم . وطوراً يتباحثون فى أذواقهم . وأربابُ الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد . ومطل الوعد . وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية . بألفاظ بذية . ويقول له: كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد أتظنه كان لك من العبيد . أتريد أن يكتب لك ويتعب . وهو لا أجرة لهُ فى المحكمة ولا مرتب . بغير ربح ولا مكسب . ان هذا لَمِنْ أعجب العجب » . وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده راقداً كالنُفَسَاء . فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته . وقال بعضهم لا بل اتركوه فى

رفدته . أنسيتم حكم عادته . بأنه لا يفيق من غفوته . قبل ان يسيل الافيون مع الدم فى دورته. ثم اتفق معهم الرسول . على ان يرجع فيقول : انى لم أجد الشيخ مكانه . وعلمت انه نزل الى الدفترخانه » . ثم استيقظ الراقد بعدمدة فتثاءب وتمطّى . ثم تدثر وتغطّى . ثم عاد الى ما كان فيهِ من السبات . وهو ينشد للمعرى من أبيات :

وفضيلةُ النوم الخروجُ بأهلهِ عن عالَمٍ هو بالأذى مجبولُ

ثم جاءهُ بائع كتبٍ وأوراق . فصاح به حتى أفاق . وقام بعون الله وحوله . يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب)ـ هل أحضرتَ ماطلبته من الكتب

(البائع)ـ نعم جئتك بكتب قديمة . لا تقدّر لها قيمة . منها كتاب « حل الرموز . لفتح الكنوز » . ومنها « أصول المراسم . فى فك الطلاسم » . ومنها « حسن ارشاد الناس . فى استخراج الذهب من النحاس » ومنها « القول المأثور . فى تأثير البخور » ومنها . . . . .

(الكاتب) ألم تعثر لى على كتاب فى « الاستحضار »

(البائع)ـ نعم معى كتابان أحدهما « قلائد اللؤلؤ والمرجان . فى استحضار الجان » والآخر « خير المواقت . لرؤية العفاريت »

(الكاتب) ـ بارك الله فيك وجزاك خيراً فان عندى نسخة محرّفة من هذا الكتاب الاخير فاصحبنى الى البيت لنقابلها ونصححها

قال عيسى بن هشام ـ وقام هذا الكاتب مع البائع . وأقمت أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبينا انا كذلك اذ أشار علينا غلام المحامى بالقيام فقد قرب أوانُ الجلسة لقضيتنا فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التى تنعقد فيها الجلسة فرأينا الزحام خارجها وداخلها على أشد حالاته وسمعنا الحاجب ينادى تارة بصوت عالٍ وتارة بصوت منخفض فسألت الغلام عن ذلك فقال انهُ يخفض الصوت حتى لا يسمع أرباب الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه وفوق ذلك فان للحجّاب أن يُدخلوا الجلسة من أرادوا ويحجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئيسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر وقد تعسر علىّ ان أفهم كلام الباشا وهو بجانبى يخاطبنى لشدة الضوضاء وعلو الاصوات . ثم دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته . وكأنهُ الطاووس فى هيئته . فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه يضعه فى

لدواة تارة ويضعه فى أذنه أخرى ثم يلهو بتفقد ثيابه ويشتغل بلمس الإبر التى تتشبك بها العمامة ثم ابتدأوا فى سماع القضية وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم لكثرة الجلبة والصياح وانما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط ـ وكأنما يكتب من عنده ـ ما أنقله بحرفه وهو :

«استُحضر أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود فتقدم المدعى وعرّف انه فلان بن فلان بن فلان وسمى شاهدىْ معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ثم قال المدعى المذكور ان لى قبَل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة »

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند فوقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر ثم نودى علينا بعد برهة فقالوا لنا ان المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى ـ على ما اخبرنا به المحامى ـ بالإعذار الى المدعى عليه وقال لا بد أن

نطلب ذلك من المحكمة لانه لايسوغ لها ان تعذر الا بناء على طلب المحامى فقدمنا الطلب . فتقرر إصدار الإعذار . والله يكفيك شر مافى هذه الدار . من الأقضية والاقدار . وكثرة الهموم والاكدار

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ ودخلنا لا أدخل الله عليك طوارق النقم . ولا أخرجك من طرائق النعم . ـ فى دَوْر الإنذار يتبعه الإنذار . والإعذار يتلوه الإعذار . ومندوبُ المحكمة يعود الينا بالخيبة . فى كل أوْبة . زاعماً ان خدم الخصم لا يقابلونه الا بالازدراء . كغيرهم من خَوَل أبناء الأمراء . حتى وصلنا الى حد الإعذار الأخير . ورمينا المندوبَ بالإهمال والتقصير . فرأينا ان نَخبر خبره . ونقتفى أثره . ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع . للاستخفاف برسول الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان . يشهدان بأنه أعذر فلانًا بن فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم بكتف الآخر . على هيئة تستفز كل هازئ وساخر . وكلٌّ منهم يخدّ الارض بحذائه . ثم يعفى الأثر بفضل ردائه . وهم يتنقلون فى المشى من الذميل الى الرسيم الى الوخيد . كأنهم مسرعون الى جفنة ثريد . ونحن من خلفهم نخبّ ونُهرول ونُحَسبل ونُحوقل . الى ان كادوا يغيبون

عن البصر . وكدنا نفقد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان الكهرباء . فطاحت العمامةُ وانفلت الحذاء . فانفتل يلتمسها ويلتمسه . فلم يَرُعهُ الاَّ السائق وجرسه . فما تحرك ولا انتقل . حتى أدركته العجل . وكاد يداس ويُقضى عليه . لولا ان جذبه رفيقهُ اليه . فخيلَ بين الرجل وبين عمامتهِ ونعله . ووقف مخبولاً لا برأسهِ ولا برجله . وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث . حتى مرَّت عليهما المركبات الثلاث . فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل . فبشرناهُ بسلامتهما فاعتمّ وانتعل . وحمد الله على هذا اللطف فى القضاء . وحمدناه على ما أتيح من التعويق والابطاء . اذ تمكنا من اللحاق بهم . وقدرنا على استئناف السير فى عقبهم

وقد انتهى السير بنا الى قصر فى سُرّة بستان . يزرى فى الحسن بقصور بغداد وغُمدان . وقد ترصع البستان بأنواع الازاهر . كأنه مُحلّى بصنوف اليواقيت والجواهر . والقصر فى وسطها كأنه الدرة البيضاء . أو البدر بين نجوم السماء:

كأنه جيدٌ وبستانهُ من حولهِ عقدٌ بديعُ النظامْ

وما عساى أقول فى وصف روض . قد نسجته يد الارض لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها . ونمنمتهُ رداءً لها تختال بهِ فى

حسن رونقها وبهجتها:

مُؤَزَّرةٌ من صنعةِ الوبلِ والنّدى   بِوَشْيٍ ولا وشيٌ وعَصْبٍ ولا عَصْبُ

قد أغنى الغواني نسيمُهُ العليل. عن المسك الأذفر. وكفاها ريحهُ البليل. تَعطُّرَهَا بالطيب والعنبر:

بِغَرسٍ كأَبكارِ الجواري وتُربةٍ   كأنّ ثراها ماءُ وَردٍ على مِسكِ

ومُنى العرائسِ أن لو اتخذت من نوّار الازهار. فصوصاً للخواتم. ومن اكمام الاشجار. معاقدَ للتمائم. وودُّها ان لو تأزرت من سندس ارضه بأبهى إزارٍ ومِرْط. وتحلَّت من جوهر نباته بأزهى شَنْفٍ وقُرْط:

اذا ما النّدى وافاهُ صبحاً تمايلت   أعاليهِ من درٍّ نثيرٍ وجوهرِ

اذا قابلتهُ الشمسُ رَدَّ ضياءَها   عليها صقالُ الأُقحوانِ المنوَّرِ

وقامت فيه مثمراتُ الاغصان قيام الكواعب الأتراب. ساقياتٍ بالأباريق والأكواب. ساكباتٍ سؤرَ الطل من تلك الاقداح. مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح:

شقائقُ يحملنَ النّدى فكأنهُ   دموعُ التّصابي في خدود الخرائدِ

فما تخيلنا فى هذا الروض مذ رأيناه الا اننا في حفلة عُرس. جمعت أسباب اللهو وأطراف الأُنس. قد نصبَ الدُّجنُ عليها سُرادقَه.

ومدّ ملتفُّ النبات فيها ثمارَقه . وأشرقتْ فى الاغصان الأَنوار . إشراق المصابيح بالانوار . وقامت الاطيار على الأعواد . تتسابق فى الترنم والانشاد . فهى تغرّد بألحانٍ يقطع السامع لها حبلَ النَفَس . ويأنس اليها مستنفرُ الوحش المفترس :

رأتْ زَهراًغضًّا فهاجتْ بمزهَرٍ   مَثَانيهِ أحشاءٌ لَطُفْنَ وأَوْصالُ

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والخفيف . من ثقيل فى الضرب أو خفيف . تصفق لها أكفُّ الاوراق . وتقوم الأَفنانُ للرقص على ساق . مترنحة الأَعطاف من خمر النَدَى . مهتزة القدود بغمز الصَبَا . تبسم عن أقاحٍ نضيد . يزرى بثنايا الغيد . ثم تميل برشيق القوام . فتلتقط ماينقطها به الغمام . والجدولُ يجرى تحت أذيالها ويتعثر . وينساب الماء فى ظلالها ويتكسر . كأَن حصباءه اللؤلؤ والمرجان . فى نحور الحسان . أو قلائد العقيان فى أجياد القيان:

تَرُوعُ حَصاهُ حَالِيَةَ العَذارَى   فَتَلْمَس جانبَ العقْدِ النّظيم

ولمّا مُلِئنَا من هذه الجنَة طربا . وقضينا عجبا . قلنا ماشاء الله لاقوّة الا بالله . ما أعجز الخلق عن شكر نُعماه . واذا بقوم عند باب القصر. كأنهم أفراخ فى مخلب صقر . تعلو وجوهَهم قَتَرَة. تَرهقها غبرَة . وهم بين باكٍ ومنتحِب . وصارخٍ ومصطخب .

فتفرستُ فى هيئاتهم . وهم يذكرون حاجاتهم . فاذاهم جميعاً فى يأس وقنوط . وخيبة وحبوط . واذا الصيرفىُّ يقول . بصوت المقهور المخذول:

(الصيرفى) — تعساً لى لقد ضاع مالى . وذهبت آمالى

(التاجر) — وبؤساً لى لو كنت أعلم بهذا المآل . لم أقع فى تلك الحبال

(البائع) — ياويح نفسى اغتررت بالمقام العالى . فخسرت رزق عيالى

(الجوهرى) — ويلٌ لمن خدعتهُ الظواهر . فضاعت عليه الجواهر

(الصيدلانى) — أقسمت لا يضيع عنده ثمن الدواء . ولو تعلق بأطراف السماء

(الخمّار) — سَقياً له من محتالٍ مالَ على دَنِيّ . ثم اختفى عن عينى

(القصّاب) — انا لا يضيع عنده حقى . ولو وضعوا السكين على حلقى

(الخياط) — وانا لا أترك هذا الباب . حتى أمزق ماعليهِ من الثياب

(الإسكاف) — ورأسِ أبيهِ وجدّهِ . لآخذنّ ثمن الأحذية من جلده

(الحلاّق) — أنا ابن جلاَ وطلاّعُ الثنايا . وكم لصنعتى من منافع ومزايا . وليتنى كنت شوّهت خلقته . ومسخت سحنته . فنتفتُ شاربه .

وحلقت حاجبه . تالله لآخذنّ بناصيتي هذا الثقيل البارد . ولأسدنّ عليه المصادر والموارد . ولألزمنّه صباح مساء . ولو حلق في الهواء

كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار . ويقسمون انهُ لم يبق لديه درهمٌ ولا دينار . واذا همّ احدُ الغُرَماء بالدخول منعوه . أو دافعهم احدُهم دفعوه . وبينما نحن نتأمل ونتعجب . ونتقلّى على الجمر ونتقلب . ونقابل بين سعد المكان . ونحس السكان . اذا برجل افرنجي قد خرج من بيت الحَرَم . وهو يلتهب غيظاً ويضطرم . ويقول للبواب برطانته . وسوء عبارته : لقد طالبتهُ فأبانَ الافلاسَ والعجز . فلم يبقَ الا توقيع الحجز . واليك قائمة البيان . وحذارِ من التلف والنقصان . وما كاد « مُحضر المختلطة » ينتهي ويذهب . حتى حضر « مُحضر الاهلية » يلهث من التعب . فسلّم للبواب ورقةَ إنذار . فأخذها وهو يدعو بالثبور والدّمار . وبعقبِ ذلك انصرف المحضر . وتبعه جميع مَنْ حضر . لاشتداد حرّ الظهيرة وأُوراها . ولفحِ الشمس للوجوه بنارها . فانتهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبُنا وتقدّم . وخاطب البواب وهو يتلعثم . فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه البلية . ثم دفعه في صدره . فردّهُ الينا بظهره . بعد أن أخرجنا من الجنان . وأُغلق باب البستان . فأخذ

المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر . ووقف بينهما ينادى في الهواء بالنداء المقرّر :

« يافلان بن فلان بن فلان ان مولانا قاضي مصر يأمرك بأن تحضر الى المحكمة في يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وان لم تحضر فى اليوم المذكور يَنْصبْ عنك وكيلاً ويسمع الدعوى فى وجههِ ويحكم عليك غيابياً »

ثم ودعنا المندوبَ والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت أنا والباشا فى دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا . ثم استند الباشا الى سور البستان وشرع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره :

(الباشا) — مازالت بواطن الامور وحقائق الاشياء تتجلّى لى على وجهها منذ عمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا انما تجرى كلها على التضليل والبهتان وتدور على التمويه والبطلان وتنطوى على الغش والتدليس . فبالله عليك من ذا الذى يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه الحسد لساكنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع الى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوءَ

قسمته فى العالم

(عيسى بن هشام) — لازلتَ ترى الحق وتقول الصدق عما يتسع لك من سبل الهداية والحكمة . نعم ان جُلّ من نراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفتَ عن باطن امرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لوقفتَ على مايوجب الاسى والاسف ويدعو الى الرحمة والشفقة لا مايدفع الى الحسد والغبطة ولأيقنتَ ان الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالاً . والغالب انهُ كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً كان باطنه مقتماً مظلماً . وأشد مايكون من البلاء على أهل هذه الطبقة انهم يقضون اوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع فيكون الواحد منهم غريقاً فى بحور الهموم والاكدار وتراه يقسر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح واكثر ما يكون فى الضيق والافلاس تراه يتعرض للتبذير والإنفاق فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس وان كان عظيم الثروة كثير الغنى فانه لا غنى مع ازدياد الحاجات ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات

(الباشا) — قد كانت الحال فى أيامنا على العكس . ان كان لا يسرك

من الرجل ظاهر حاله فانه يرضيك باطن أمره وربما كان يجتهد فى التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد الغنى ويبدى الشكوى اذا أسرّ الرضى

قال عيسى بن هشام ـ وقضينا برهة فى مثل هذا الحديث وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق بالابحاث العقلية والتعمق فى معرفة الاخلاق النفسانية حتى صار من ديدنه ان يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به الى عالم الفضيلة والحكمة وازددتُ يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غِرًّا بالامور غافلاً عن حقائق الأشياء فاذا وقع فى أشراك الخطوب استنارت بصيرتهُ واستضاءت قريحتهُ وَعلمَ بطلانَ ما كان فيهِ بحقيقة ما وصل اليه

ثم حانت منا التفاتة الى ماوراء السور فرأينا خدم البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقةً وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب يبتدئ فيقول :

(البواب) ـ ليت أمى لم تلدنى وليت أبى لم يعلّمنى رسم الخط فقد كلّتْ يدى وحفى قلمى من طول التوقيع بالاستلام على الانذارات والمحاضر فقلما يمضى يوم الا ولى فيهِ من التوقيعات ما ليس لرئيس قلم فى ديوان . فبئست المعيشة معيشتى وبئس الحظ حظى وليتنى كنت قادراً على الانضمام الى صف هؤلاء المطالبين والغرماء فأخلص بجزء من اجرة

لشهور المتراكمة . ومن لي بالتباعد عن هذا البيت الذي انتشر فيه جراد الحجز وأزعجت من فيه أصواتُ الغرماء وأزعجني ترددُ المحضرين على صندوق ثيابي

(الكاتب) — لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت وماذا يحتال لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل . وان صدق ظني كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الايام انه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختتم امره بأقبح الخواتم . ويعلم الله انه لولا ما ألتقطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عنا اجور الشهور . وقد دعاني هذا الامير أمس وأعطاني خاتماً من الياقوت لأبيعه فذهبت به الى الجوهري الذي كنا اشتريناه منهُ باكثر من مائة جنيه فلم يدفع لي فيه الا خمسة وعشرين فبعتهُ إياه وعدت للامير بالدراهم فكأنما فككتُ الأسير من القدّ وأنقذت الغريق من اللُّجّ

(الوصيف) — الآن انحلّ ما كان مشكلاً وانكشف لي ما كان غامضاً فاني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهتدِ الى مورده أعطاني منه عشرة جنيهات وأمرني ان ابتاع من أخيه هذا الكلب الذي

روبه مولعاً بملاعبته منذ الصباح

(الفرّاش) ـ وأنا اشتريت له من صهره تلك البيغاء بخمسة جنيهات وأخذتُ له غرفة فى « تياترو الاوبره » بثلاثةٍ وزجاجةَ عطر باثنين

(الكاتب) ـ فعلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهات ولا بد أن أبادر فى الحال لمطالبته بإِنجاز الوعد الذى وعدته لصاحب الجريدة المعلومة حتى يسكت عنه ويكفّ عن التعرض لهُ

(السائق) ـ وأنا أذهب اليه أيضاً لآخذ منه ثمن الريش والاسفنج الذى وعدنى به ما دام معه من الدراهم بقية

(الخصىّ) ـ انكم لفى نعمة وغبطة مما تنالونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ولكن غيركم من الخدم فى الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الاكل والشرب من غير أجر وصبرنا على هذه الحال وفاءً بالعهد لأهل البيت . وياليت هذه النعمة تدوم فقد سمعتم اليوم وعيد البك الجزار كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز

(السقاء) ـ ما أظن ان لنا حيلة نلجأ اليها فى آخر الامر الا ان نطلب منه إحالة ارزاقنا على ريع الوقف الذى سلم وحده من الحجز

(البواب) ـ لقد خاب ظنك وضاع أملك فان هذا الوقف الذى

كنا نرتكن عليه قد دخل فى دور القضايا والدعاوى وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الاخير ومن يعلم ماذا يكون من أمره

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشتت الجمع نحو المطبخ لحلول وقت الغداء فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا

قال عيسى بن هشام — وحلّ اليوم الموعود لجلستنا فى المحكمة الشرعية فتوجهنا اليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته ولما فُتحت الجلسة تقدمنا اليها وشهد أمامها شهود المعرفة ثم اطلع الاعضاء على الاعذارات الثلاثة فوجدوها جامعة للشروط المقررة فأمروا بأن ينصب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقا بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ثم أخذ محامينا ينظر فى صورة الوقفية التى استخرجناها من الدفترخانة ليعدد الاعيان فلم يجد فيها جميع ما عددناه له بل وجد منها جزأ قليلا لا يقوم بالتعب فى إقامة القضية وخشى ان المحكمة لا تحكم لنا بغير المبيّن فى « الصورة » من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الاعيان الموقوفة فوافقه الوكيل المنصوب للغائب فتأجلت القضية

الى ما بعد الفسحة القضائية من العام

وخرجنا من الجلسة مع المحامى وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد ولما سألناه عن المظان التى تنبئنا عن بقيـة أعيان الوقف تلكأ فى الجواب ثم أحالنا على الغلام وتركنا معهُ وانصرف . فقال لنا الغلام لا مظنة عندنا غير ديوان الاوقاف لانه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الاعيان وطلب منا ان نتفق معه على أجر معلوم للسعى وراء هذا الغرض . فوافقنـاه على هـذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد

***

قال عيسى بن هشام ــ ولما حال أمرُنا من المحكمة الى الاوقاف . وأيقن الباشا بما هنالك من قلة الانصاف . وأنه لا بدّ لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغـدوّ والرواح . فى كل مساءٍ وصبـاح . فنُبلى فى هـذا الديوان جدّة الزمن . ونقف عليهِ وقوف العاشق على الدِّمَن . لِما هو مستفيض من اختلال أعماله . واعتلال عمّاله . وفساد إدارته . وسوء نظارته . ــ نزل به من الهمّ والغم . ما أورثه الضنى والسقَم . وحلّ به من الحزن والـكمد . ما أخلّ بنظام الجسد . فغدا هزيلاً نحيلا . ووقع مريضاً

عليلا . فأشرتُ عليهِ بالطبيب . قال يخطئ ولا يصيب . وماذا يجدى العلاج وما يفيد . وللآجال توقيتٌ وتحديد . فأقنعتهُ بأن الاعتقاد بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العلل . وسبحان من أرشدنا الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء . فقبل إشارتى بعد طول الإِباء . فجئت له بأحد الاطباء . من ذوى الشهرة بالبراعة. فى ممارسة الصناعة . فجلس بجانبهِ يجسّ نبضهُ ويقرع صدره . ثم استلم قلمه وولاّه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيدٍ دائمةِ الاختلاج . ثم قال دونكم هذا الدواء . جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإِنهُ صادق مؤتمن . لا يغشُّ فى التركيب ولا يُغلى فى الثمن . ثم وقف عند المرآة يسوّى مفرق شعره . ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب بنظرٍ مستراب . كأنه يريد ان يستشفّ ما وراء الحجاب . من آنسةٍ فى الخدر أو كعاب . ولما أعوزه ما تفقده . طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى بعيادته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . وتلطف من حدته

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجةُ الحرارة لا تفتأ فى صعود . والمريض يهذى فى شدة حُمّاه . وأنا اتضرع وارُحماه .

حتى كدت أيأس من الشفاء . وأسلم لحكم القضاء . ولكن زارني أحد الاصدقاء . ممن يتولعون بالطب والاطباء . فقال لي وهو يبصر حالته : مَن الطبيبُ الذي يعالج علته . فقلت هو الشهير فلان . قال علمت السبب الآن وأنا أنصحك أن لا تعتمد في الطب . الا على أطباء الغرب . أولئك قوم قد برعوا في معرفة الامراض . وتشخيص الأعراض . وأحاطوا بكل جليل وحقير . من البسائط والعقاقير . فالأدواءُ لا تستعصي في أيديهم . وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم . وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفةً وعلما . وأشهر صيتاً وإسما . وقام فعاد بأجنبي يهدّ الارض بخطواته . ويكثر من اشاراتهِ والتفاتاته . فتقدم نحو المريض فجسّ ولمس . ثم قطّب وعَبَس . ووضع طرف منديلهِ على أنفه . وقال لنا في صلفه وعنفه . ان هواء الغرفة فاسدٌ قتّال . وداء المريض داء عضال . ولا رجاءَ الا باتباع اشارته . في تواتر زيارته . ثم هزىء بما رآه من دواء الطبيب الأول . بعد أن كتب علاجه بوصفٍ مطوّل . وقال لا يُحسن تركيب هذه الاجزاء . الا صاحب صيدلية الشفاء » . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضُر . والعلاج يتجدد ويتكرر . والمريض يتألم ويتضجر . والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر . حتى جاء في خاطر ... أن [illegible] جماعة للاستشارة والمداولة . فنخلص من هذه

للمراوغة والمطاولة . فلما اجتمعوا وقعوا في الحِجَاج واللجاج . ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج . وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه . لا يهتدي الا بهديه . وسمعت بينهم مَنْ يقول لرفيقه . لا ينبغي ان نوافق فلاناً في تحقيقه . كما لم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية . وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية

ثم خلّفونا ونزلوا على الخلاف . وان كانوا اتفقوا في تناول الاجرة عند الانصراف . وكنت شاهدت بينهم طبيباً يُظهر نفورَهُ من طريقتهم . ويجري معهم على غير حالتهم . فأرسلتُ في أثره مَنْ دعاه . وكاشفتهُ بأنني اخترته على سواه . فقال لي ان علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلّها ناشئة عن انفعالاتٍ نفسانية . من هموم ٍ جنائية . فقلت له نعم أصبتَ في النظر . ثم اخبرتهُ بجملة الخبر . فقال الآن تبيّن ان معالجة الاطباء . كانت بغير اهتداء . ولا يلزم لعلاجه الا الامتناع عن هذه المركّبات . والاكتفاء ببعض البسائط من النبات . مع جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقنّا حينئذٍ بمهارته . وسلّمنا لإشارته . فلم يمض الا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَور السقم والاعتلال . الى دَور النقاهة والإبلال . وجلس الباشا ذات يوم

الى الطبيب يشكره على حذقه وبراعتـه . ويحاورنا فى الحـديث على حسب عادته :

(الباشا) ـ كيف اهتديتَ أيها الطبيب الى مالم يهتدِ اليه سواك من الاطباء فأدركتَ سببَ علتى وأحسنت تشخيص مرضى وأصبت فى اختيار العلاج فـكان الشفاء . لاشك عندى أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك

(الطبيب) ـ لافضل لى يستحق كل هـذا المدح والثناء . والسبب فى خطأ الاطباء ان العدد الأعظم منهم يسيرون فى ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محـدودة قررتهـا العادة فيهم فهم لايتخطونها ولا يتعدونها فترى كل واحد منهم يحصر فى ذهنه عدة امراض معلومة وعللٍ معروفة فيطبّق عليها كل مايراه من الأعراض التى تظهر له فى عامة المرضى — والأعراض تختلف وتشتبه — فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعيّن لذلك المرض المعيّن بقطع النظر عن الفحص والتأمـل فى حال المريض أو البحث والتـدقيق فى معرفة الاسباب المادية والادبيـة التى يرجع منشأ المرض اليها ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الاحوال فيعيش فى اسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحث فى اختـلاف الامزجة وتباين الغرائز

وتفاوتِ المعايش وتغايرِ القُوَى فى البُنى فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب

(عيسى بن هشام) - كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآليه الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكرة فتنطلق ايديهم على وجه واحد وتنصرف افكارهم عن التصرف أو التفنن فى وجوه شتى

(الطبيب) - نعم لقد أصبتَ فى التشبيه. وغير ذلك فانه يوجد بين هؤلاء الاطباء مَنْ لا يرى فى صناعته الاآلة لاجتلاب الرزق واصطياد الربح واستدرار الدرهم والدينار حتى يصلوا الى اكتناز الاموال ويصبحوا فى مصافّ اهل الغنى والثراء لا يبالى احدهم أىّ باب طرق ولا أىّ سبيل قصد للتوصل الى هذا الغرض المطلوب فكل الوسائط لديه مقبولة وكل الطرق عنده مسلوكة فهو يدخل على المريض طامعاً فى ماله لا طامعاً فى شفائه فيحتال لهُ انواع الحيل لتطول مدته فى المرض فيتسع نصيبه فى الاجرة فيعطيه من أصناف الادويه مالا ينفع ولا يضرّ أستغفر الله بل مايضرّ ولا ينفع ليبقى المريض فى حاجة دائمة الى تجدد العيادة والزيارة وفى كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفاً جديداً من المركّبات التى يعظم ثمنها بمقدار

مايقل نفعها وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده لهُ الصيدليّ في دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الادوية المنكررة . فيضرب الطبيبُ في صناعته بقدحين . ويصيب في الكسب بسهمين . بعدأن يملأ جوف العليل من كل دواءٍ ضار . ويُخلي كيسه من كل فضةونُضار

ومن أولئك الاطباء مَنْ يجعل همه منصرفاً الى الإبداع والتفنن . في وجوه التزيي والتزين . ويسلك سبيل التصنع والتكلف . في أبواب التظرف والتلطف . ثم يتفنن ما استطاع في حسن المحاضرة . ويتعمد رقة الحديث والمسامرة ويتقلب في أساليب المؤانسة والمجاملة . وأفانين المغامزة والمغازلة . ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة . وسوقا رائجة . فيحل من اهل الحرم محل الجليس المحبوب والأنيس المطلوب . وينزل من ربات الخدور بمنزلة المُحبّ المكرَم . ويكون بين مقصورات القصور اكرم زائرٍ في أرحب منزل . والنساءُ لا يعدمْنَ العلاّت . على العلاّت . ولا تعوزهنَّ العلل . في اختراع العلل . لاسيما ان كانت دعوى المرض . تدني من نيل الغرض . فيكون للطبيب بينهنّ زيارات وعيادات . وروحات وغدوات . والطبيب كما يعلم الناس مؤتمَنُ الجانب . يؤتمن فوق الاهل والأقارب

تفتح أمامه الابواب . ويُكشف مِن دونهِ الحجاب . فترى له زيارة بين كل صباح ومساء . تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاءِ . بوافر الأجر فى دفتر حسابه . وبسوء الجزاء يوم عرضهِ وحسابه .

ومنهم من يتطلع الى ما فوق ذلك فيطمع فى ثروة البيت باكملها وفى حيازة الاموال بأجمعها فيديم التردد ويوالى العشرة ويحكم الصلة ويلحم الخلطة حتى اذا تأرّبت عقدة الحبل تم الاتفاق بينهُ وبين ربة البيت وصاحبه المتاع على التأهل بها لا التفات هناك الى تفاوت الاقدار ولا عناية بوجوه الكفاءة فتصبح لهُ حليلة . بعد ان كانت خليلة . وينتهى ما كان من أمر الداء والعلاج . بما تمّ من أمر العقد والزواج

(عيسى بن هشام) ـ الآن تبين لى ما كان عليّ غامضا وانضح ما كان مبهماً من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا فى كثرة الزيارة وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق فى تعيين الصيدلية وطول استراق النظر لما وراء الحجاب

(الطبيب) ـ أجلْ . هذا هو حال بعض الأطباء مع الأَعلاَّء وأشباه الأعلاَّء . فاما حالهم مع الاصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب . وما يغرب عنك أن كثيراً من المولعين

بسوء التقليد للغربيين والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترف يتغالون في الاحتياط لأبدانهم ويبالغون في التوقي لأجسامهم فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرا . ويتوقعون من كل شربة ضرا . ويتخيلون ان في كل لقمة تخمة . وفي كل جرعة غصة . فلا يتناولون قدحاً من الماء . أو يستنشقون نَفَساً من الهواء . الاّ وفي اعتقادهم انه لا يخلو من كل هامّة سامّة . أو جرثومة ضارّة . ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب ويُبعدوا ما ما استطاعوا في طرق الحمية من غير علة ولا داءٍ فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنيّ ويهجروا الاغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن الى الاطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داءً دفيناً ومابه من داءٍ وعلةً كامنةً ومابه من علة فيشكو أمره الى الطبيب فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله في اختلاق علة له واختراع مرض دون ان يفحص أمره أو يبلو خبره فينزل به ماينزل من بوائق الخوف والفزع ويوالي عليه الطبيب مايوالي من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة

والمركبات الحادة فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف مايترصص عليها من ألوان الطعام والغذا . ويتقيد المسكين بعيشة لاتناسب غريزة البنية ولافطرة المولد ولاطبيعة الاقليم ولا توافق الا مَنْ جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندره لا مَنْ ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة . فلا يلبث ان يأتى على مابقى فى الجسم من قوة وما فى البدن من صحة ويعيش ان عاش فى يد الطبيب حياً كميت ويكون بين الاموات والاحياء . لاهو من هؤلاء ولا من هؤلاء . الى ان يُلحَد فى لحده . شهيد طبيبه وقتيل يده . وهنالك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لابسواد المداد . ما كُتب على قبر عظيم من قدماء القواد : « لم تُمتنى قوة الاعداء . وانما أهلكتنى قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لانرى فى جمهور مَنْ نراهم من المترفين المقلدين الا شاكيًا من ألم أومتألمًا من مرض فراجت سوق الطب وعظم عدد الاطباء وغدت حوانيت الصيادلة فى الاسواق اكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين . وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديقُ الدواء وآنية العلاج وقل ان تجد اليوم بيتاً خاليًا من مريض ولا مجلساً ليس فيه من سقيم

(عيسى بن هشام) - كأنك تحاول أيها الطبيب الآسي ان تقنعنا بقوة البرهان وجليّ البيان ان لا فائدة من الطب ولا منفعة في الاطباء

(الطبيب) - حاشا المثلك أن يشتبه عليه القصد أو أن يذهب بقولي خلاف مذهبه وما قصدت بكلامي هذا كله الا أن أظهر عيب بعض الاطباء في ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب في ذاتها. على انه يمكن لي ان أضيف الى ما قلتهُ ماقد قيل من قبل وهو أن العلم علمان علمٌ تستنير به البصائر وتهتدي به العقول فهو جميل الأثر. محمود الورد والصدَر. وعلمٌ تصدأ منه الافهام. وتضل به الاحلام. فهو وبيُّ المرعى. سيي العقبى. وكذلك الطبُّ طبان طبٌّ يصحح الاجسام. ويشفي الاسقام. فهو عظيم النفع جليل القدر. وطبٌّ يورث الامراض ويولد الادواء فهو شديد الوطء عظيم الضر. ومدار الامر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطيب والخبيث. ولا تتوهمنّ أيضاً انني أتناول بكلامي جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكنني أعني من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها أو يتعمدون الحيل وينصبون الاشراك حتى يعتل جسم الصحيح ويزمن مرض المريض ليكون لهم من وراء ذلك مايسد بعض شرههم في الغنى واليسار. وما أَولى

سائر الناس بأن يثبتوا بينهم عادة اهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء
الاطباء . وذلك أنهم يُجرون على أطبائهم العطاء ماداموا أصحاء فاذا نزل
أحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب حتى يعود المريض الى
سلامته فيكون من مصلحة الاطباء على الدوام ان تطول مدة السلامة
وتقصر مدة العلة على خلاف الحال بيننا

وما ينبغى ان ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من
ذوى الحذق والامانه الذين يوفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب
عليهم فيها حق أدائه والذين يراعون فى ممارستها ما يكون من تفاوت
الاحوال فى العلل والامراض وما تقضى به أحكام البلاد والعادات
واختلاف الامزجة والطبائع والذين يجعلون لانفسهم من حسن
تبصرتهم وكثرة تجربتهم عُدةً حاضرة لمقاومة الامراض وصحة
تشخيص الأدواء ولطف تناسب العلاج وحسن الارشاد لرفع
الوسواس ودفع الخيال وما يجرى هذا المجرى من استعمال ما يليق
بأهل الاقليم الحار مما لا يليق الاَّ بأهل الاقليم البارد واجتناب
مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركَّبات المجهَّزة لطبائع
أهل البلاد الغربية . ولقد طالما سمعت عن أشياخى فى الصناعة أنهُ
يجب على الطبيب فى مصر ان يختار ما يكون من الادوية وغيرها

ألين قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولا يلحق أبدانهم منها مضرة وأن لا يقدم على الأدوية الموجودة فى كتب أهل الغرب فان أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الاخلاط على خلاف المعهود فى أهل مصر فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف فى إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من مقدار تركيبها ويبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه وأن لا يهمل الاعتماد على الادوية الطبيعية وهى البسائط واللبن والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء . وان يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة فى ذاتها لا يعادلها لديه سواها من سائر اللذات ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون فتعظم عنده نفسهُ ويشرف فى عينهِ قدرُه فيترفع عن سفالة الطمع وحطة الشره ويزهد فى نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائهِ من وراء هذه الصناعة الجليلة . وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مال وجاه أو زخرف ومتاع فى جانب لذة الاتقان فى الصنعة والاحسان فى العمل . وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل وهو القيّم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الاجسام والرقيب على اعتدال الامزجة والمشرف على سلامة الجوارح . لا بل أية

صناعة فى الوجود تفضُل صناعته وهى أمسُّ الصناعات بخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر . واذا كان قد بلغ عُجبُ الصناعة بأحد النحاتين المصورين فى الزمن السابق لمّا ازدهاه جمال الإتقان والإحكام فى صورة إنسان نحتها من المرمر أن استخفّه الطرب واستفزّته لذة الصنعة فعمِّىَ عليه فأنحى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان بعد أن أُحكمت فيه خلقة الانسان ويكلف الجماد وقد أُتقنت فيه الصنعة أن يخرج من الجمود الى الحركة حتى أطار عنه بعض أجزائه وبقى التمثال قائماً الى اليوم يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال فى جمال الاتقان ومقدار لذة الاحسان فى عمل الانسان ـ فما بالك بلذة الطبيب ومقدار طربه فى صناعته اذا هو شاهد أجسام الاحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الامراض واستنقذها من آفات العاهات وردّها الى سواء التكوين وأعاد نظام الخلقة الى أصله وانتساق التركيب الى شكله. فهل يجوز فى العقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الاطباء ان يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة الى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته الى مصافّ أهل التجارة والسلع لا يفقه فيها من معنى سوى اصطياد الدرهم ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الاموال . لاجرم ان الطبيب

المدرك يفضل لذة صناعته فى ذاتها على كل لذة ويسلو عندها أعظم مزية فى الوجود وأعلى رتبة فى العالم . وفصلُ الخطاب . فى هذا الباب . ان يكون مبلغ همته . ومجمع لذته . أن يرى المريض بعد شفائه . بوجهٍ لامعٍ كالدينار . لاأن يراه فى طول شقائه . بنظر طامعٍ فى درهم أو دينار

قال عيسى بن هشام ـ فأعجبنى من هذا الطبيب صدقه فى مقالته . وحسن نظره فى صناعته . وسألت الله لجماعة الأطباء . انيهتدوا مثل هذا الاهتداء . ثم انى ودعتهُ بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء . وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء . الى ان يتدرج من النقاهة الى تمام الشفاء

*
* *

(قال عيسى بن هشام) ـ فطاوعنا القدر . وعزمنا السفر . إلتماساً لبرءِ الداء . بتبديل الهواء . ونزلنا من ضواحى الاسكندرية قصراً ذا روضة غنّاء . فى بقعة فيحاء . لاتسمع فيها الاّ هديل الورقاء . إيقاعاً على هدير الماء فاذا بلّل الموجُ جناح النسيم . فرفرف على ذلك الروض البسيم . نثرَ الماءَ درًّا على تيجان الازاهر . ورقرقه دموعاً فى أحداق العباهر . هنالك يتمنى العاشق لو استعار هذى

الدموع لمحاجره . فيستلين بها قلب شاجيه وهاجره . وتودّ الغانية لو نَظمت من ذلك الدرّ عقداً لنحرها . أو نطاقاً لخصرها :

إنّ هـذا المـكانَ شئٌ عجيب تَضحك الارضُ من بكاء السماءِ
ذهبٌ حيث ما ذهبنا ودرٌّ حيث دُرنا وفضـةٌ فى الفضاءِ

أو قُلْ إنه المجرّة قامت فيه زواهرُ الزّهر . مقام الـكواكب الزُّهر . وعناقيدُ الـكروم . مقام ثريا النجوم . وأنوارُ الاثمار . مقام الشموس والاقمار . فأقمنا فى ذلك الظل الوريف . مـدة من أيام الخريف . ومكثنا نقتطف القطوف الدانيـة . بين تلك الاعين الجارية . فى عيشة راضية . لا يُسمع فيها لاغية . آخذين بسننّ النحيزة . ومجتنّ الغريزة . فى ما يوافق صحة البدن من طعام شهىّ . وغذاءٍ مَرِىّ . ورياضةٍ للاعضاء . دون تعب أو شقاء . وتطهيرٍ للنفس من أدران الـكدر . بلطف البحث وحسن النظر . وتجريدٍ للصدر من عوامل الهواجس . وغوائل الوسـاوس . بالتبصر فى حقـائق الوجود . والتمعن فى صـنعة الخالق المعبود . وأفضتْ بصاحبى طيبُ هـذه الاقامة . الى المقصود من تمام العافية والسلامة . لولا أن راعنا شيطان من الانس بخـبر الطاعون . فقلنا إنا لله وإنا اليه راجعون . وسبحان الله والحمد لله مازلنا نعلل النفس . بزوال النحس والنـكس . ومازالت

تناوبنا النوائبُ والاحزان . وتراوحنا النوازل فى كل منزل ومكان.
وانبرى الباشا يسألنى عن هذا الطاعون وأخباره . وما يتوقعه من
هول أفعاله وآثاره . فأجبتهُ بأنه لا يلبث أن يصبح أثراً بعدعين . وما
أصاب الى اليوم الاَّ عدد أصابع اليدين . وقريباً يفرُّ من أمامنا هذا
العدوُّ المناجز . ونردّد فى أثره قول الراجز :

قد رَفَع اللهُ رماحَ الجنِّ   وأذهب التعذيبَ والتجنّى

(الباشا) ـ كيف تدعى ذلك وتزعمه وما عهدت منك إخفاءَ
للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها
المآقى والاحداق وتتفطر منها القلوب والاكباد وهو عندنا من
أمراض مصر الوضعية التى تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون
يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة «الفصل» فيقولون جاء
«الفصل» عند ظهور الطاعون فترتاع النفوس وتنخلع القلوب وتخور
القُوَى وتذهل العقول ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف
سيلُهُ عند حاجز ولا يمنع اندفاعَهُ مانع ولا تغيض قرارتُهُ حتى يخرب
القصور . ويعمر القبور . فتصبح الاطفالُ يتامى . والنساء أيامى.
ويمسى الخلق بين ثاكل ومثكول . وحامل ومحمول . هذا يبكى
أباه . وذاك يندب أخاه . وهذه تولول على أهلها . وتلك تنوح على

بعلها . وقد سمعتُ عنه فى زمانى من أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥ :

« ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ وداخل الناسَ منه وهم عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه فى رجب وشعبان ومات به ما لا يحصى من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد والكُشّاف والامراء ومات من الصناجق أُمراء الالوف اثنا عشر صنجقا منهم اسماعيل بك الكبير . وقد أفنى عسكر القليونجية والارنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة وكانوا لكثرة الموتى يحفرون حفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها . وكان يخرج من بيت الامير فى الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك . ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزّياً أو مشيِّعاً او راجعاً من صلاة جنازةٍ أو دفنٍ أو مشغولاً بتجهيز ميت أو باكيا على نفسه موهوماً . ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الاّ على أربعة أو خمسة وندَرَ من يصاب ولا يموت وقلّ ظهور الطعن على

الجسم فيكون الانسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر فلا يفيق الا مخلّطًا أو يموت في غده ان لم يمت في نهاره . واستمر فتكه الى اوائل رمضان فمات الاغا والوالي في أثناء ذلك فولوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافهما فماتا ايضاً . واتفق ان الميراث انتقل ثلاث مرات في سبعة أيام . وأُغلق بالمفتاح بيت أميرٍ كان فيه مائة وعشرون نفساً فماتوا جميعاً »

(عيسى بن هشام) ـ اني لأظنك تصف لي موقفا شاهدتَهُ من مواقف الآخرة وأهوال القيامة

(الباشا) ـ وما كان الامر ليقتصر في الطاعون بعد ذلك على فتكه بل كان يزيد عليه من البلاء ما دسّه الافرنج للولاة من وجوب إزعاج الناس بأمورٍ تشقّ على نفوسهم يزعمون انها تدفع الطاعون فيفصلون بين الناس وبعضهم ويفرقون بين الأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون ان هذه الاعمال التي تؤذي النفوس وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس ويلاً على ويل وحزنًا على حزن وخرابًا فوق خراب. وقد شاهدت بعيني ما تشيب له النواصي في سنة ١٢٦٠ وقصّ عليّ

أخى ما رآه منه فى سنة ١٢٢٨ وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير . قال :

« أمر جنتمكان محمد على بعمل « كورنتيله » بالجيزة فى اليوم العاشر من ربيع الثانى وعزم على الاقامة بها اذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليل من الاصابات بمصر ومات به الطبيب الفرنسوى وبعض من نصارى الاروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيله وانها تمنع الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير على مذهبهم وكان أفندينا لشدة شغفه بالحياة وحرصه على الدنيا يصدق هذا الزعم ويغرسه في نفوس حاشيته وأهل دائرته واتفق أن مات بالطاعون شخص بالمحكمة من أتباع القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخيره بالأبخرة المتنوعة وكذلك الأوانى التى كان يمسها وأمروا أصحاب الشرطه انهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشر الثياب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخّنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا على كورنتيلة الجيزة أمر فى ذلك اليوم ان ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الاقامة فليمكث بالبلدة والا فليخرج

منها ويذهب فيسكن حيث أراد وأعطوا مهلة أربع ساعات فانزعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم من أقام وكان ذلك في وقت الحصاد وللناس مزارع ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى ولا يخفى احتياج الانسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدّوا خروق السور والابواب ومنعوا مراكب المعادى من السير . وأقام الباشا ببيت الازبكية لا يجتمع بأحد من الناس الا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد الى قصره وأوقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة فاذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسلُ للمقيد بذلك في طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزارق آخر على بعد منهما ويعود راجعاً فاذا قرب من البر تناولها المنتظرُ له أيضاً بمزراق وغمسها في الخل وبخرها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه بكيفية أخرى وأقام الباشا على ذلك أياماً وسافر الى الفيوم ثم عاد وأرسل مماليكهُ ومَن يخاف عليه من الموت الى أسيوط . »

(عيسى بن هشام) — اعلمْ أن ما كان يَعترض عليه عامةُ الناس في الازمان الغابرة — ولا يزال بيننا الى اليوم بقية منهم — من الأخذ

بأسباب التوقى والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بماهيته وأسباب انتشاره هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصتَ علىّ طرفا منها وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها

(الباشا) - قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى بالأجل وأىّ ارتباط بين هذا البخور وحمّى الطاعون اللهم الا ان يراد به تلطيف أمزجة الجن

(عيسى بن هشام) - لايفوتنّك ان كثيراً من الماهيات والحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد بالعلم ولبعد تناولهِ على بقية الطبقات فلما انتشر العلمُ وأضاء برهانه كَشف للناس ما كان مكنونا عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما كانت تقف دونه الافكار حَيْرَى. فان كان الناس فى زمانكم يعتقدون ان الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لاشئ يَقوَى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين بان للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفيا دونه وخز الرماح وعَوَا لِى المُرّانِ ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسّم الاشياء الدقيقة وتعظمها وتبرزها مرئيةً للعين فوقفوا بها

على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها

(الباشا) — وماذا تجدي الوقاية والحذر من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) — حفظتَ شيئاً وغابت عنك أشياء . ان الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين فقد ظاهر عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين . وقال الله تعالى « وأعِدُّوا لهم ما استطعتُمْ مِنْ قوّة » . واِطُرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفيّ الذي يسمونه « المكروب » وهو دُوَيبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر برهةٍ من الزمن . وهم يتخذون البخور في الوقاية لينحلّ تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواه

(الباشا) — لقد كشفتَ لي معنى دقيقاً في رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه في عصرنا الماضي وهل لك في أن تطلعني على تلك الآلة العجيبة المجسّمة للاشياء الدقيقة لأزداد بصرةً وهدًى بالنظر في عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام — فذهبت الى معمل كيماويّ وأريتهُ نقطة من الماء تحت « المكرسكوب » فلما رآها كأنها غديرٌ ورأى ألوف

الالوف من الهوامّ سابحةً فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق والتمجيد لعظمة الصانع وتلا قولَهُ عزّ مِن قائل : « وَمَا يعلَمُ جُنودَ رَبِّكَ الاَّ هُوَ » فحمدت الله اذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل مافعلهُ ذلك الهنديُّ مع العالم الالمانيّ حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ليقنعهُ بأن ماء الشرب مشحون بما يحرّم أهلُ الهند قتلَهُ وأكلَهُ من الحيوانات فسَخِر الهنديُّ منه وكسر النظارة إصراراً على الباطل وعناداً للحق . ولما أيقن الباشا بصدق ما قلتهُ وما رآه وأن العلم هزم جنودَ الطاعون وحطّم رماحه ولولاه لمات به اليوم مئات الالوف مكان العشرات سألني يقول :

(الباشا) . ومَنْ هو المخترع لهذه الآلة التى تدل بغير واسطةٍ على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين . وفى أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنردّد الثناء عليه ونذكر اسمَهُ بالحمد

(عيسى بن هشام) — أُقسم لك بالله وملائكتهِ وكتبهِ أن اكثر مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالعهد بهم فى معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم وهم الى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران

البنادق فى معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها الا ما نَخَر كُتُبَهم من الأَرَضَة وماسَبَح فى حلقات دروسهم من القمل والنمل وما دار فى أمثلتهم من «أكلونى البراغيث»

(الباشا) ـ ومع هـذا كلهِ فلا مُقام لنا اليوم فى هذه البلدة التى أصيبت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قدر الله الى قدر الله فَعُذْ بنا الى مصر ان شاء الله آمنين

(قال عيسى بن هشام) ـ فأجبته الى سؤله وقفلنا للرجوع . بعد أن ودعنا محاسن تلك الربوع

*
* *

(قال عيسى بن هشام) ـ وأقمنا فى مصر مدة وقد أَبَلّ الباشا من علتهِ وسقمه . وتمت لهُ العافية والسلامة فى جسمه . فأخذتُ أُهنئهُ ذات يوم بالشفاء والإِبلال . من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة الأبدان . هى مِلاكُ السعادة للانسان . وأنك لو جمعتَ نِعَم العالم للمريض . من مالٍ واسع وجاهٍ عريض . لانصرفتْ نفسهُ عنها انصراف الضب عن الماء . والأرمدِ عن الضياء . والممعودِ عن شهىّ الغذاء . وأن خاتم الياقوت فى الإِصبع التى أُصيبت بدُمّل.

لا يساوى عند صاحبه حبةً من خردل . وأن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس . لَيهونُ عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

وَمَن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يجد مُرًّا به الماءَ الزُلالا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة. أراه يزيد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة . وتحققتُ أن المرء انما يذكر النعيم فى البؤس ولا يذكر البؤس فى النعيم . وينسى المرض فى الصحة ولا يذكر الصحة الا وهو سقيم . وقلَّ من يحمد النعماءَ فى لبسها . ويدرك سعادة الحياة الا فى نحسها . فهذا معنى من معانى الآية الشريفة : « وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُرُّ دعانا لجنبهِ أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يَدْعُنَا الى ضُرٍّ مسَّهُ » . فسألته عما دهاه . وأذهله عن شكر الله . فأجابنى يقول . وهو فى حال الخبل والذهول :

(الباشا) — فيمَ الهناء بكشف البلاء والضرر . وما انتقلت من خطر الا الى خطر :

فإنْ أَسلمْ فما أَبقَى ولكن ... سلمتُ من إِلحمام الى الحِمامِ

ألم تسمع معى بخبر انتشار الوباء فى مصر بعد أن خلفنا الطاعون فى الاسكندرية . فما هذه الرزايا المتساقطة وما هذه البلايا المتلاحقة أوَ كلما انتهينا من بلاء دخلنا فى بلاء وانصرفنا من شقاء الى شقاء

(عيسى بن هشام) ـ أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس يغلب عليك الفزع والوسواس . وان كنت جربت فى هذه الحياة شدة الألم . وذقت فى القبر راحة العدم . وأن ما كنت تمناه على دهرك . من الرجوع الى قبرك . عند اشتداد الكروب . من وقع الخطوب . لم يكن لشجاعة فى النفس . تستهين بسكنى الرمس . بل كان لضعفك عن احتمال الآلام . من نوازل الأيام . وأراك لا تزال مع صحة الدين . وقوة اليقين . ترهب الموت وتخشاه . وتعتورك الأهوال من ذكراه . وهذا داء فى الناس قديم . عز شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوف الردى آوى الى الكهف أهله　　وعلم نوحاوابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم　　وقدوعدامن بعده جنتى عدن

ولكننى لا أزيدك فى الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس والوساوس بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة أطلعت عليها اليوم فى بيان أحوال الناس وتقسيم طبقاتهم فى أهوال هذا الوباء فإن اردت تلوتها عليك ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت

(الباشا) ـ هات أسمعنى لازلت للحق راويا . وللهدى داعيا

(عيسى بن هشام) قارئاً ـ « انما النوازل العظيمة والخطوب

الجسيمة محكّ الطباع ومسبار الاخلاق فهى لشدّتها وهولها تكشف من الناس ما يخفونه عن الناس وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات فلا تمالك النفوس ان تبقى على التظاهر بما ليس فيها ولا التطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلّى للناظر بما اشتملت عليه ضمائرها واحتوته سرائرها من قوة أو ضعف ومن فضيلة أو نقيصة ومن علم أو جهل . وهنا يتمكن الباحث فى الاخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقق وهى مجردة أمامه من كل غشاء عارية من كل غطاء

« وليس فى باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء . فلذلك لا نرى بأساً من الكلام بشئ عما يجده المستقرئ لأحوال الناس من طبقات المصريين وهم بين أيدى هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى

« فطبقة العامة أناس جبلوا فى مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء وتفويض الامر لأقدار السماء وهم لا يعلمون من أمر الوباء ما جراثيم الداء ولا علة المرض والشفاء ولا سبب الهلاك والنجاء وليس فى قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم أو يحولهم عن يقينهم ولا فى استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح

الخطباء ان يضع فى رؤوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور وأن الحذر يُنجى من المكتوب وأن طب الاطباء يؤجل فى الأجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع فى رد القضاء المحتوم . وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطة أموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد فى عمرهم ساعة ولا تكفّ عنهم غَرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح . فهم بمعزل عن الخوف والهلع وفى أمانٍ من الذُّعر والفزع وفى ضمانٍ من الوساوس والهواجس وإن كانوا مقيمين فى غفلة عما يجب عليهم لانفسهم من المحافظة على صحة الابدان وتعهدِ الاجسام بما يدرأ عنها الاستعدادَ لقبول الداء والوقوعَ فى مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام « إعقلها وتوكلْ » لكنهم لا يزالون على كل حال فى صحة من الارواح وإن أعوزتهم صحة الابدان

« وطبقة الخاصة ونعنى بهم أهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون أيضا على التسليم لاحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والإيمان بأنه لن ينالهم الا ما قدّره الله لهم ولا نفتأ تجرى ألسنتهم فى مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله : « ولكل أجلٍ كتاب » : « فاذا جاء أجلهُم لا يستأخرون ساعةً

ولا يَستقدِمون» : «أينما تكونوا يُدرككُمُ الموتُ ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَة» : «قُلْ إنَّ الموتَ الذي تَفرُّون منه فانه مُلاقيكُم». تعالى الله أحكم القائلين . وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمرٌ واقع لامردَّ منه وأن الانسان عرضة له في كل وقت ولحظة وأن طعمه واحد سواء كان بمرض الوباء أو صواعق السماء أو زلازل الارض أو كان بغصة شرابٍ أو عثرة قدم أو لسعة حشرة وأن نَفَسَ المرء خُطاهُ الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته في كل حركة وسكون وعند كل قيام وقعود :

وما نَفسٌ الاّ يباعِدُ مولداً ويُدنِي المنايا للنفوس فتقربُ

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حيّ للفناء وانه مقيم من دنياه أبداً فى أرض وباء وإن لم يكن ثم وباء :

ما خَصَّ مصراً وَبأٌ وحدَها بل كائنٌ فى كلِّ مصرٍ وَبأْ

وأنّ مَنْ فرّ من المقدور فعلى المقدور نزل . ومَنْ هرب من القضاء فإلى القضاء رحل :

مَهلاً أَمِنْ وبأ فررتَ وهل تَرَى فى الدهرِ الاَّ منزلاً مَوْبوأَ

وأنَّ مَن حانت منيته . لم تنفعه تقيته . ومن حلّ أجلُه . لم يحمِهِ وَجَلُه:

ومَنْ هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

الا انهم مع ذلك كلهِ لا يرون من مانع يمنعهم عن الاخذ بأسباب التقية والحذر ولا فى العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها فى حفظ صحة الابدان وما يقرره اهلُ صناعة الطب من سبل التوقى والتحرس اتقاءً لِمَا نُهوا عنه من الإلقاء بالأيدى الى التهلكة واحتذاء لما ترسمه ظروف الاحوال وتقضى به احكام الازمان ولا يجدون الطاعة لاشارة الاطباء فى مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً وإن لم يكن من ورائها فائدة فليس فى عقباها مضرة . فتراهم لذلك فى أجلّ مقام من شجاعة القلب وقوة النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين وعلى أحسن حال من سلامة الجسم وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام بما يرشد اليه من وسائط الوقاية لا سلطة للوساوس والهواجس عليهم ولا محل للرعب والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحد منهم بالروح السليمة فى الجسم السليم

« وهناك طبقة ثالثه حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ولم يتأدبوا بأدب الدين ولم يرتاحوا لحسن اليقين بل اقتصرت

بضاعتهم على ماتلقوه فى المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة قد أخذوا عن الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع وتقرير الحقائق وترويض القلوب على التجلد والثبات عند وقوع المكروه ونزول الملمات فنجدهم قد ظهروا للناس فى هذه النازلة الوبائية وانكشفوا لاهل البحث والنظر أصغرَ خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدهم قلقاً واضطراباً وأعظمهم خوفاً ورعباً واكبرهم بلآء وكرباً يتمثل لهم الموت فى أعينهم على أفظع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم ويهابون دنوّه وهو آخذ بتلابيبهم. حلّ الخوفُ مفاصلَهم واستلّ الرعبُ نخاعهم فهم يرون فى كل عُودٍ نعشاً لهم ويحسبون كل صيحة عليهم اؤلئك لا إيمان لهم يثبّت أقدامهم ولا علم لديهم يرجّح أحلامهم بل هم على مثل حال المغشيّ عليه من الموت أو الممسوس من الشيطان يتوهمون طعم الموت ومذاقَ الوباء فى تنفس الهوآء وتناول الغذاء وشربِ المآء وملامسة الأيدى ومخاطبة الناس فاذا رأى المسكينُ منهم تلك الآلة الحدباء تحمل أحد المصابين

بالوباء جمدَ دمهُ وسال عَرَقه وخمدت أنفاسه والتوَتْ اعصابهُ وأمسك مَنْ بجانبهِ يستنجد به ويستغيث ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم في حالهم هذه من الخور والهلع والفزع والجزع الاّ بمثل أناسٍ قُضي عليهم بالاعدام لِوَقتهم فهم وقوفٌ بين يدى الجلاد والسيّاف اذا قُدّم احدهم للسيف والنطع مات الذى يليهِ من الخوف قبل القتل . ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليلَهُ ونهاره عساها تجهّله كيف اطمأنت به الحال ومنهم من يبالغ ويغالى فى تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه الاطباء لقتل الجراثيم فهو يشربها ويستعِطُها ويدهن بها جسده ويغمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويغسل بها آنية طعامه وشرابه وكلما سمع بزيادة العدد فى المصابين زاد فى مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم حتى أُصبحت اجسامُهم مسمومةً وأبدانُهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم مغبرّة وأناملهم مصفرّة ينطبق عليهم قولهُ جلّ وعلا : « ويأتيهِ الموتُ من كلِّ مكانٍ وما هوَ بميّت » اذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل لولا أن هؤلاء يَفْضلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والفناء . ولمّا كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة ومن أعظم الاسباب

فى رأى الاطباء لجلب الداء كانوا هُم أعداء أنفسهم بأنفسهم وأصحاب الارواح السقيمة فى الاجسام السقيمة لهم النكد فى هذه الدنيا ولهم الخزى فى الآخرة »

ـ فأين تَضع نفسَك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات

(الباشا) ـ ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتَنى وأرشدتَني الا فى طبقة أهل الخاصة الذين يسلّمون للقضاء والقدر ويعملون بالحيطة والحذر لكننى مع ذلك أفضّل الابتماد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء وأرغب فى التخاص من النظر اليهم وهم فى مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع وليس من الصواب ان نجمع بين أكدارنا وهمومنا وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام ـ وخشيتُ على الباشا إن أنا تركته فى هذه الحال غريقَ أفكاره . وأسيرَ همومهِ وأكداره . ان يَنتويَهُ الانتكاس . ويعتريَهُ الارتكاس . والنكسةُ بعد البِلّة . شرّ ادوار العلة . فبادرتُ الى طاعته . وامتثال اشارته . فاخترت له من ضواحى المدينة مكاناً قصيّا . ومسكناً مَرْضيّا

***

قال عيسى بن هشام ـ واعتزلتُ بالباشا مدة من الدهر . نستملح

العزلة ونستعذب عليها الصبر . ونعيش فيها عيش الحكماء . من حسن الرضاء بحسن الاكتفاء . ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه . وإغماض الجفون على قذاه . مؤتنسين كل الائتناس . بالوحشة من الناس . بعد الذى شهدنا من اعمالهم ورأينا . وسمعنا من اقوالهم ووعينا . وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصوّت إنسانٌ فكدت اطير

إن سالمتهم حاربوك . وان وادعتهم ناصبوك . وان صادقتهم عادوك . وان واثقتهم كادوك . واذا خالطتهم لا تأمن الاعتداء . واذا مازجتهم لا تعدم الافتراء . واذا طالبتهم بحقّ فانك لا تُسمع الصُمّ الدعاء :

فلو خبّرتهُمْ الجوزاء خبْرى   لَمَا طلعتْ مخافةَ ان تُكادا

ولو أنك لم تخالطهم الا فى مجالس أنسهم وصفوهم . ومعاهد لعبهم ولهوهم . لم تجنِ منها الا كلّ ما يُبعد وينفّر . وينغص ويكدّر . تدخلها اذا دخلتها مستروحاً مستبشرا . وتخرج عنها مستقبحاً مستنكرا . فعيشتهم فى كلتا الحالتين قرارة معائب . ومجتمع نقائص ومثالب . ومنابت اكدار . وينابيع اضرار . ولا راحة فى الدنيا الا لمن تنسّك وتزهّد . ولا سلامة من الخلق الا لمن اعتزل وتوحّد .

يأبعدُ الناسِ عن معاشرة البرايا . أقربهم الى كرم السجايا :

بُعدي عن الناس برءٌ من سقامهمُ   وقربُهم للحِجى والدّينِ أدواءُ

كالبيتِ أُفردَ لا إيطاءَ يدركهُ   ولا سِنادَ ولا في اللفظِ إقواءُ

وعكفتُ مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب . وأنتقل به من مطلب الى مطلب . في مطالعة الاسفار والكتب . من تاريخ وأدب . ومن حكمٍ متينةٍ قويمة . وشتى علوم حديثةٍ وقديمة . أُهديه من كل طرف بطُرفة . وأتحفه من كل باب بتحفة . وأجتنب معه ما يدعو الى الضجر والملل . ويدني من الكد والكلل . فتارةً أخوض معه عُباب البحار . وطوراً أجتاز به سراب القفار . فنرى مَن يحرق في البحر مراكبه . ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه . ونسمع الشاعر في القفر يحدو بناقته . ويشبّب بمعشوقته . ثم لا يقعد به ذل الغرام . عن التفاخر بعز الكرام . ولا ينسيه ذكرُ الهوى . مواقف الحتفِ والردى . فيخلط بالغزل الفخر . ويخاطب خلّتهُ من جوف القفر :

إنّا مُحيّوكِ يا سَلْمى فحيّينا   وإِنْ سقيتِ كرامَ النّاسِ فاسقينا

وإن دعوتِ الى جُلّى ومكرمةٍ   يوماً سَراةَ كرامِ الناسِ فادعينا

إن تبتَدِرْ غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ   تَلْقَ السوابقَ منا والمُصلّينا

وليس يَهلك منا سيدٌ أبداً   الاّ افتلَيْنا غلاماً سيّداً فينا

إنا لنُرخص يومَ الروعِ أنفسَنَا ولو نُسامُ بها فى الأمن أُغلينا
بيضٌ مفارقُنا تغلى مراجلُنا نأسُوا بأموالنا آثارَ أيدينا
إنى لَمِنْ معشرٍ أفنَى أوائلَهُم قيلُ الكُماةِ ألا أينَ المحامونا
اذا الكُماةُ تنحوْا أن يصيبَهُمُ حدُّ الظُّباةِ وصلناها بأيدينا

ونرى الناقةَ تطرب تحته الى مواطنها . وتشتاق الى معاطنها . فتحنّ حنينَه . وتئنّ أنينَه . وكلما رآها تشكو مثل شكواه . وتصغى بأذنها الى نجواه . وتردّد برُغائها صَداه . وتسعده بترجيعها فى هواه . تأوّه وتنهد . وترنم فأنشد :

لقد زارنى طيفُ الخيالِ فهاجنى فهل زار هذى الإبلَ طيفُ خيالِ
لعل كَرَاها قد أراها جِذابَها ذوائبَ طَلْحٍ بالعقيق وضالِ
ومَسْرَحَها فى ظلّ أحوَى كأنها اذا أظهرتْ فيه ذواتُ حجالِ
تَلَوْنَ زَبُوراً فى الحنين مُنَزَّلاً عليهن فيه الصبرُ غيرُ حلالِ
وأنشدْنَ من شعر المطايا قصيدةً وأوْدَعنَهَا فى الشوق كلَّ مقالِ

ثم ننتقل الى مشاهدة المعامع المشهورة . والوقائع المذكورة . فنرى الدماء تجرى أنهاراً فى الوديان . والمُهَج تسيل انحداراً من من مسايل الأبدان . والموت واقفاً يحصد الرؤوس . ويجنى نفائس النفوس . والفارسَ يمشى فى الصفوف مِشيةَ الخُيَلاء . ويطعن

برمحه كل طعنة نجلاء . ثم ينشد فى وصف أثرها . وبعد غورها :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ماوراءها

يهون على أن ترد جراحها ... عيون الاواسى اذحمدت بلاءها

أو يقول فيها :

أضرب الضربة الفريغ كفى البا ... زل أحيا له المرار مريرا

برسوب يهوى الى ثبرة الما ... ء ولو أنه أصاب ثبيرا

هدرها يسكت البليغ ولو زا ... د على المصعب الأغر هديرا

كالقليب النزوع فى القلب لاتنـ ... ـبط الا الدم الغريض الزبيرا

أسهرته وأهله وهى كالمغـ ... ـمور نوماً تحس منها شخيرا

أو يقول فى وصفها أيضاً :

غارت وفارت وألقى من يمارسها ... فيها العمائم أبدالاً من القلل

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفئ نارها . ولا يخمد أوارها . الا وقد غادرت النساء أيامى . والاطفال يتامى . والاموال نهباً منهوبا . والاعلاق سلباً مسلوبا . والمدائن خالية خاوية . والقصور بائدة بالية . والحرب يتخذل فيها القوى لاوهى سبب . وينتصر الضعيف من حيث لايحتسب . فكم دالت بها الدول ودارت الدوائر

وانثلّت العروش وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود . وبساطِ المجد الممدود . وذلك التناهي في العَظَمُوت . والتمادي في الجبرُوت . وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطُها . ويخطر في الخيال هبوطُها . كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر . اذا نزل القضاء وحُمّ القدر . وكل مُلكٍ مهما امتد ظلهُ زائل . وعند التناهي يقصر المتطاول .

ثم أدخلُ به في مطالعتنا الى حلقة حكيمٍ واعظٍ يسلب الالباب بقوة بيانه . ويخلب العقول بضوء برهانه . ويسترق النفوس بطلاقة لسانه . ويقول في حقارة الغنى وهوَانِه :

« ايها الناس واللهِ لَلدُنيا كم هذه أهوَنُ عندي من عُراقِ كلبٍ في يد مجذوم »

« والمخيَّرُ بين أن يستغني عن الدنيا وبين أن يستغني بالدنيا كالمخيَّر بين أن يكون مالكاً اومملوكا :

مَن سَرَّه أن لا يَرى ما يسوءه فلا يتخذْ شيئًا يخاف له فقدَا

« والحياة الطيبة هي حياة الغني والغنى هو القنوع لأنهُ اذا كان الغنى عدم الحاجة الى الناس فأغنَى الناسِ أقلّهم حاجةً الى الناس ولذلك كان الله تعالى أغنى الاغنياء :

غنَى النفسِ ما يكفيك من سَدِّ خلّةٍ فإنْ زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرَا

ويقول فى محاسن الاخلاق : « الجودُ حارس الاعراض والحلمُ فِدَامُ السفيه والعفوُ زكاة الظفر والاستشارة عين الهداية وأشرفُ الغنى تركُ المُنى وكم من عقلٍ أسير عند هوًى أمير ومن التوفيق حفظ التجربة ومَنْ لانَ عودُهُ كثفت أغصانهُ ومن لانتْ كلمتهُ وجبت محبته »

ويقول فى مساوىء الصفات: « الكاذبُ فى نهاية البعد من الفضل والمُرائى أسوأُ حالاً من الكاذب لانهُ يكذب فعلا وذلك يكذب قولاً والفعل آكَدُ من القول . فأما المعجب بنفسهِ فأسوأ حالاً منهما لانهما يَريانِ نقص أنفسهما ويريدان إخفاءَهُ والمعجب بنفسه قد عمى عن عيوب نفسه فيراها محاسنَ ويبديها . وانى لأعجب للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب . ويفوته الذى إياه طلب . فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء . ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء . وأعجبُ للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة وفى الغد جيفة . وأعجب لمن يغفل صبرَه ويشكو الى الناس دهره فان كان عدوًّا سرَّه وان كان صديقاً أساءه وليس مسرَّة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة:

ولا تَشْكُ الى خَلْقٍ فتُشْمِتَهُ   شكوَى الجريح الى العِقبان والرَّخمِ

« والعجز عجزانِ أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثانى

الجدّ في طلبه وقد فات

ويقول في ذكر الحياة والموت : « انما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب ومع كل جرعة شرقٌ وفي كل أكلة غصص ولا ينال العبدُ نعمةً الاّ بفراق أخرى ولا يستقبل يوماً من عمره الاّ بفراق آخر من أَجلِه فنحن أعوان المنون وأنفسُنا نصب الحُتوف فمِنْ أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً الا أسرعا الكرة في هدم ما بَنَيَا وتفريق ما جمعا وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى مَن يموت »

ويقول في وصف العلماء . « الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة ويَعذِرهُ بنقصه في ما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته

ثم يختم وعظه بقوله :

الدينُ إنصافُك الاقوامَ كلَّهمُ وأيُّ دينٍ لآبِي الحقّ إنْ وَجَبَا

والمرءُ يُعييهِ قَوْدُ النفس مُصحبةً للخيرِ وهو يقود العسكرَ اللَّجبا

اللهم اكفني بوائقَ الثقات ومكائد الاصدقاء »

ثم انتهى بصاحبي الى مجلس محاضراتٍ بين الادباء . ومفاكهات بين الندماء . فنقرأ من لطيف بوادرِهم . ورقيقِ نوادرهم . ما ينير

ظلمة الفهوم . ويجلو صدأ الهموم :

لفظ كأنّ معانى السكر تسكنهُ ... فمَن تحفَّظَ شيئاً منهُ لم يُفِقِ

جزلٌ يشجّع مَنْ وافى لهُ أُذُناً ... فهو الدواء لداء الجبنِ والقلق

اذا ترنّم شادٍ للجبانِ به ... لاقى المنايا بلاخوفٍ ولا فرَقِ

وإنْ تمثّلَ صادٍ للصخور به ... جادت عليه بعذبٍ غير ذى رَنقِ

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائسَ الأعلاق . من بطون الاوراق . وأقتطف معه زهر الأدب العاطر . من حدائق الكتب والدفاتر . الى ان قال لى ذات يوم . بين ندمٍ ولوم :

(الباشا) ـ إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الايام التى أضعتُها من سالف عمرى فى مالا يجدى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهى العيش ويا ليتنى كنت قصَرت همى منذ صباى على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً أتنقل من مطالعة الكتب الى مذاكرة العلماء ومن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء الى مطارحة الادباء . ويعلم الله ان أسفى ليزيد شدةً وإن ندمى ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى عنه فى

أيام دولتى عن مجالس العلم والادب فما كنت آبَهُ بها ولا أنتبه اليها وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزْل والرّدْن والحمد لله الذى أرشدنى الى الهدى آخرَ الدهر فعلمت مقدار هذه النعمة التى حبّبت الىّ الحياة ثانية وهوّنتْ علىّ احتمال متاعبها وما إخالك تبخل علىّ بعد الآن وقد علمتَ نفع ذلك لى بمداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد وما أرى من بأس فى أن نترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الادب ومجامع الفضل وأندية العلم لنتذاكر معهم مانطالعه ونأخذ عنهم مايحفظونه . وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الاوبئة والطواعين والحمد لله رب العالمين

(عيسى بن هشام) — لا تطمعنّ أيها الاميرُ ـ دَفَعَ اللهُ عنك المكاره ـ فى مثل هذه المجالس فقد طوتها الايام ورمستها الليالى ولم يبق اليوم مَن يأنس اليها وينافس فيها

(الباشا) ـ كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعددِ الطالبين وسهولةِ الحصول على الكتب ووفرةِ المطابع وإطلاق الافكار من القيود . وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الاول من تعسّر الوصول

الى الكتب وتعذر استنساخها اضنّ أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئا هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضربا من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الانتفاع بها إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكّنه من استنساخها او ابتياعها فلا بدع اليوم أن يكون فى يد كل مصرى كتابٌ يطالعه وأن يكون كل واحد منهم قد اصبح فى العلوم والفنون أليفَ محاضرة وحليفَ مذاكرة تُزدهَى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب وكيف لا يكون ذلك وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنسانى حلاوة كل لذة فى العالم

(عيسى بن هشام) — نعم شاعت العلوم فى هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ولكن قلّ بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها فكسد سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الامور الباطلة والاشياء التافهة ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل . والناسُ اليوم فى حركةٍ لاشرقية ولاغربية قد اشتغل بعضهم ببعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتعطلت

بينهم مجالس العلم واندرست مجامع الأدب واقتصروا على مطالعة اخبارهم فى الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب. وانّى يكون لهم الاستقرار فى المجالس وهم لا يستقرون فى مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون عن نقلة وسفر واكثر ما يكون جلوسهم فى المركبات مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء . وأهل اليسار منهم يقضون جزأً من شهور العام مترحلين فى بلاد الاجانب متنقلين فى ديار الغربة للتنزه والتفكّه . وقصارَى العلمِ عندهم أن تلقى الطالبُ أشتاتًا منهُ فى المدرسة وأطرافًا وهو بالسنّ الذى لم يصل فيه بعدُ الى تمام التعقل وكمال الادراك فيحفظها ويؤديها كالببّغاء فان أسعدهُ الحظ فى آخر الدراسة ونجح عند الامتحان تأبط صك الشهادة ونَفَضَ يده من تلك العلوم وطرحها عنه طرح الثوب الخَلَق ونبذَها نبذ القادم على أهله ما أَسِنَ من ماءٍ وماجفّ من زادٍ انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة وقاساهُ من تعب فى درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزيةً فى ذاتها أو يذوق لها حلاوة فى طعمها فاذا هو بلغ إربته ودخل فى خدمة الحكومة أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء وقلّ فيهم بعد ذلك من يصبو الى العلم وأهلهِ أو يحنّ الى الادب وكتبهِ ولئن مال بعضهم

للمطالعة فانها لا تتجاوز حدّ الكتب المتعلقة بأصول وظيفته ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لِما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك فى الاشغال المتجددة فلا يقوى احدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الاّ وقد بلّه العرقُ ودهمهُ الكلال والملال ونزلَ بهِ الضجر والسأم وإنك لترى مثل هذا بيّنا فى حديثهم فهم لا ينصتون الى قصة متصلة ولا يتبعون فى الكلام قضية مرتبة ولا يعجبهم منه الا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجذوما

(الباشا) ـ ما اكاد أخليك ايها الصديق من غلوٍ فى وصف هذه الحال . وهل خلا أو يخلو زمان فى البداوة كان او فى الحضارة من مجالس للعلم ومجامع للفضل وأسواقٍ للادب وما كان زماننا الذى كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والامراء ممن لا نصيب لهم من العلم والادب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد أو فاضل أريب اونديم اديب او محدث ظريف تتفكه به النفوس وتستريح له القلوب هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلمُ بعيد التناول فما بالكم اليوم على هذه الحال التى تصف والصحفُ منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة

(عيسى بن هشام) ـ قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والادب وقصروا هممهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة والادوات المصنّعة من عمل الغربيين فترى الكبير أو العظيم يقلّب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً او الساعة التي ترنُّ بعدد الثواني وهو يعتقد أنها أجلُّ قيمة في العين وأجمل أثراً في النفس من جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التي تصفو ساعات الحياة بمطالعتها. ولا تتوهمنّ أنني اجزم لك بخلوّ هذا الزمن عن مجالس للعلم ومحافل للادب وما كان كلامي الاّ على الوجه الأعم وقد آن أن أجيبك الى ما طلبت فأزور بك بعض المجالس والمحافل لينقطع ريبك وليطمئن قلبك

***

قال عيسى بن هشام ـ فتخيرتُ من مُنتدَيات اليوم. ومجتمعات القوم . ما يقوم بوفاء العهد . وإنجاز الوعد . ليقف الباشا بنفسه على ما يجري فيها . من ظواهرها وخوافيها . ورأَيت ان أبدأ منها بزيارة السادة الاعلام . من علماء الإِسلام . مصابيح الدين. ونباريس اليقين . ونجوم الارشاد . ورجوم الإِلحاد . ونصراء الحق. وحلفاء الصدق . وهُدَاة كل ضالٍّ ومارق . ودعاة الخلق الى معرفة الخالق .

تيمناً بشرف مكانهم . وتبركاً بنور إيمانهم . فقصدنا مجلساً لهم تَجمع كل أغرّ منهم محجّل . وكل معظّم فيهم مبجّل . فوجدناهم قد تبوّؤا المقاعد . بين المقالم والمحابر . وتوسدوا الوسائد . بين المساعط والمجامر . فسلّمنا وجلسنا . وتكلمنا واستأنسنا . ثم أطرقنا نستجمع قُوى الادراك والعقل . لنلتقط ما ينتثر عن افواههم من درر العلم والفضل . وإذا بهم يخوضون منذ البداية الى النهاية . فى حديث غريب الرواية لطيف الحكاية . فسمعنا أحدهم يقول لصاحبه فيما يبسطه ويقرره . ويعيده ويكرره :

(احد المشايخ) — لقد وهمتَ يا مولانا فى زعمك ان امتلاك الاطيان والجسور خير من اقتناء الابنية والدور . فقد جربتُ كلا الموردين واستقيت من المصدرين فوجدت دخل البناء أعظم ربحاً وأقل خطراً وأثبت حالاً فى تعاقب الصعود والهبوط لا سيما اذا كان الصقع جيداً والموقع عامراً وكان الساكن فيه من جماعة الافرنج الذين هم أقلّ من المسلمين عيالاً وأخفّ على البناء وطأةً وأهون على الدار ثقلاً فلا يدقّون ولا يطحنون ولا يعجنون ولا يخبزون ولا يغسلون ولا يستحمون ولا يقبلون عندهم اقارب او ضيوفاً ولا يملأُون البيت خدماً وغلماناً وبهذا ينتفى ما ذهبتَ الى تقريره

آنفًا من أن البناءَ سريع العطب متطلب لدوام النفقة

(شيخ ثانٍ) ـ ولكنك ايها الاستاذ حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء وتسرعت بالحكم على المسألة والقطع فى القضية فأين انت من بقية الطوارئ والنوازل فى البناء وأين انت من الحريق والزلازل اللهم الا ان يكون هنالك خروجٌ عن رأى الجماعة ودخولٌ فى مذهب الذين يقولون بتحليل التأمين على البناء عند شركات الافرنج وادّخار العوض فيها لسد الخسارة عند الخطب

(جميع المشايخ) ـ نعوذ بالله من شر البدع ونبرأُ اليه من تحليل المحارم

(شيخ ثالث) ـ وأين انت فى الاطيان ايضاً من النداوة والدودة ومن الشرَق والغرَق

(الشيخ الثانى) ـ من المسلّم ان يصيب الاطيانَ بعضُ ما ذكّرتنا إياه ولكنها لا تزال بعينها باقية ويُرجى فيها ان تعوّض سنةٌ خسارة أختها اما البناء فانه يزول من اساسه بنكبة من تلك النكبات التى تأتيك بغتةً وتنزل عليك فجأة وتذهب بالجدار هباء ولا سبيل الى الانتفاع بأرضه الا بانشاء البناء وتجديده

(الشيخ الأول) ـ لكم دينكم ولىَ دين. فلست أتحوّل عن فكرى

ولا انزل عن رايي فى فضل البناء على الاطيان وقد عوّلت على بيع المنزل الكائن بحارة النصارى لأشترى بثمنه بعض الاطيان المجاورة لاطيانى بناحيتنا لتخلص لى اطيان الناحية كلها

(شيخ رابع) - أيغرب عنكم بارك الله فيكم ان ربح التجارة خير من هذا وذاك وهو الربح المستتر عن النظر المحتجب عن سوء العينة المحفوف بالبركة والنمو على الدوام ومَنْ منكم بلغ من الثروة بأطيانه أو أبنيتهِ ما بلغهُ مثل الشيخ فلان رحمة الله على الجميع من التجارة والبيع

(الشيخ الثانى) - نعم ان التجارة لكمَا ذكرتَ لولا ما فيها من المشاغل والمتاعب ولولا ما تحدثهُ من التلهّى عن العلم والدرس

(الشيخ الثالث) - لقد كان شيخنا المرحوم الذى نحن بصدده يُعدُّ من اكابر التجار وأعاظم اهل البيع والشراء فلم تلههِ تجارته عن التقدم فى مراتب العلم والتعلق بالمناصب العالية ولم تشغله عن إفادة الطلبة بدروسه وتقاريره وبشروحه وحواشيه . وهؤلاء تلامذته ممن تزدانُ بهم اليوم حلقات الدروس وتفتخر بهم مجالس العلم يشهدون على ما أقول

(الشيخ الرابع) - متأسفاً متحسراً :

واذا السعادةُ لاحظتك عيونُهَا ... نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنّ أمانُ

(شيخ خامس) — لكنما الأضمنُ عندي والاوثق في هذا الشأن أن يضع المرء ماله لديهِ من فضة ونضار عند من يثق به ويعتمد عليهِ من خيرة التجار فيشتغل لهُ في التجارة ويضاعف له الربح والكسب فيأتيه من ذلك رزقهُ عفواً صفواً بدون اشتغال فكر او تعب جسم او إضاعة وقت

(شيخ سادس) — لقد فاتني ان اخبركم بما سمعته من فلان باشا وهو ان الربح كل الربح اصبح اليوم في مشترى أسهم الشركات وأنه قصر سعيه في نمو الثروة عليه . ولكن ماقولكم دام فضلكم في هذه الاسهم وهل يحل التعامل بها أم يحرم

(الجميع) — وهذه ايضاً بدعة البدع

(شيخ سابع) — نعم وان كانت المسألة خلافية . وليس عندي أوثق ولا أضمن من ادّخار ذهبي في صندوقي تحت يدي وأمام عيني يصبح لي سالمًا وأبيت عليهِ آمناً . وعلى ذكر فلان باشا هل عندكم من خبر عن ترويج ابنته من فلان بك

(الشيخ السادس) — نعم بلغني ان الخطبة تمت بينهما

(الشيخ السابع) — ومتى يكون العقد

(الشيخ السادس) — لا تطمعنّ أيها الاستاذ في الدعوة لعقد الزواج

وتناول الهدية ولا يطمعنّ فيها أحد منا بعد أن علمتم أن جماعة الكبراء والعلماء قد حكروا عقد العقود على اثنين من أرباب المناصب العالية بيننا حباً فى السمعة والفخفخة فهم يتباهون يوم العقد مثلا بوجود الشيخ محمد كما يتباهون ليلة الزفاف بوجود الشيخ يوسف

(الشيخ الخامس) — الشيء بالشيء يذكر فهل بلغتكم الدعوة الى عرس فلان

(الجميع) — نشهد أن الدعوة بلغتنا جميعاً

(الشيخ السابع) — نعم ولقد أجّلت سفرى الى الريف حتى أجيبها معكم

(الجميع) — أحسنتَ وأصبتَ فان المجاملة تقضى بذلك

(الشيخ الثالث) — والله لولا أن سعادة فلان باشا دعانى الى العشاء معه فى هذه الليلة الموعودة وأن فى نفسى قضاء حاجة عنده لكنت معكم أيضاً ولكنى اخاف ضياع الفرصة فقد روى لى سائق مركبتى ان عنده حصاناً عتيقاً هو فى غنى عنه وأنه مشابه لحصانى فى الطول والشعرة ولى أمل أن أبتاعه من سعادته بعد العشاء بما طفّ من القيمة وخفّ من الثمن

(الشيخ الخامس) — ولكن عسى الله ان يكون مجلسه خالياً فى

هذه المرة من وجود مثل ذلك السفيه الذى شوش علينا مجلسنا حين كنتُ معك بسوء المجادلة فانه خيّبه الله كان يحتج علينا فى تحليل التحلى بمصوغات الذهب بأن فلاناً من العلماء يحمل ساعةً من ذهب غير ملتفت الى اختلاف المذاهب فى هذا الباب ولو كان الشيخ الذى سمّاه ممن يهتدى بنور العلم لمَا جعل لمثل هذا السفيه سبيلاً فى الاحتجاج علينا

(الشيخ الرابع) — قُلْ ماشئتَ فى هذه الايام التى اجترأ فيها أرباب الطرابيش على أرباب العمائم بمباحثتهم ومجادلتهم ومناقشتهم ومزاحمتهم لهم فى علومهم وأين نحن من تلك الايام الماضية وما كان عليه العلم والعلماء من العز ورفعة القدر ووقوف الناس عند حدهم والتزامهم الصمت وحسن الاذعان والتسليم فى مجالس العلماء مع التوقير والتعظيم والاجلال والاكرام لكل من اتّسم بسمة العلم حتى كأنه قد كُتب على صدر كل واحد منهم نص الحديثين الشريفين: «العلماء ورثة الانبياء» و «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» . وكيف لا يكون الخطب جليلاً والمصاب عظيماً أم كيف لا تنهلّ العين بالدم دون الدمع وهؤلاء المتمشدقون لم يكتفوا بالاقدام على مجادلة العلماء بل أقدموا على تجهيلهم فى العلم وسعوا فى ادخال بعض العلوم المحدثة المبتدعة فى

حلقات دروس العلم الطاهرة ليجعلوا كبار علماء الدين الذين لا يكترثون بهذه العلوم الباطلة كالتلامذة لهم فانظروا الى أين وصلت بهم الجراءة والوقاحة . على أن علومهم هذه ليست بنافعة في الواقع ونفس الامر وماهي والعياذ بالله الا مَدْرَجة للزيغ ومَزلقة عن الصراط يستدرجهم الشيطانُ بها من حيث لا يشعرون وأنتم تعلمون أن في معرفة قواعد الحساب الاربع مثلاً مايغني عن التبحر والتعمق كما يفعلون في علم الحساب ليتدرجوا بالطالب الى علوم الفلسفة الممقوتة ويبعثوهُ على الزندقة والالحاد وَقانَا اللهُ كيد الخائنين ومكر الماكرين

(الشيخ الثالث) ـ وعندك من هذه العلوم أيضاً علم التاريخ فانهُ عبارة عن الاشتغال بالاقاصيص والأساطير ولا بد ان يجرّ صاحبَهُ الى الخوض في سيرة الصحابة رضي الله عنهم وماوقع بينهم من الحروب مما نهى الشرعُ عنهُ بنص الحديث: « اذا أفضيتُم الى ذكر أصحابي فأمسكوا » ويكفي من هذا العلم كلهِ أن يحيط المرء بماجاء في « السيرة الحلبية » وحدها

(الشيخ الثاني) ـ خبّروني ناشدتكم الله ماهو هذا العلم من علومهم الذي يسمونه « الجغرافيا »

(الشيخ الثالث) ـ هذا هو الذى يقال له عندنا علم تخطيط البلدان ولو كان قاصراً عندهم على ذلك لما كان ضارًّا ولا نافعاً ولكن ضرره عظيم ومغبّته وخيمة بما امتزج فيه من نسبة الدوران للارض والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التى يكذبها العيان ولا يقوم عليها البرهان مثل زعمهم ان مطر السماء من جوف البحر وأن السحاب أبخرة متكاثفة وأن الرعد والبرق من احتكاك السحب بضغط الهواء مما ينافى العلل المعروفة المعقولة بيننا ويناقض ما رواه كعب الاحبار من أن السحاب من ورق الجنة وأن الرعد صوت ملك يسوق السحاب وأن البرق لمعان حربة بيده . وأين هم حسبهم الله مما رُوى عن ثبات الارض وأنها محمولة على قرن ثور والثور محمول على صخرة والصخرة على ظهر حوت سابح فى الماء وأن أول ما يأكل أهل الجنة من كبد ذلك الحوت على أننا لو طالعنا كتبهم التى يرون أنهم فاقوا بها الأوائل والأواخر بزعمهم ووصلوا بها فى علم تخطيط البلدان الى ما لم يصل اليه سواهم بدعواهم لوجدناها عاجزة فى الاحاطة والافادة عما بلغته « خريدة العجائب » وحدها للامام ابن الوردى فاننا لم نسمع أنه ذكر فى كتبهم من عجائب المخلوقات مثل ما ذكر منها فى الخريدة كبلاد

« واق الواق » التي يثمر ثمرها بالكواعب الأتراب معلقة من شعورها في ذوائب الاغصان وكلما أشرقت عليها الشمس صاحت : واق واق . سبحان الملك الخلاق . ومن مثل ما ذكر في « بدائع الزهور ووقائع الدهور » عن الشيخ حامد أنه بلغ في رحلته منبع النيل بعد أن عبر اليه البحر الاسود على ظهر دابة لعبد الشمس فاذا أشرقت الشمس على أحد شاطئيه أتت الى ذلك الشاطئ ولا تزال دائرة مع الشمس حتى تصل الى الشاطئ الآخر . وقد رأى الشيخ حامد النيل يجرى في ذلك البحر كالخيط الأبيض في الثوب الاسود ووجده يخرج من قبة من ياقوتة حمراء وراء جبل قاف وأن ماءه هناك أبيض من الثلج وأحلى من العسل وهذه القبة يخرج منها أيضاً ثلاثة أنهر وهي سيحون وجيحون والفرات . فهل وصل القوم الى معرفة مثل هذه الحقائق في بدائع المخلوقات الى اليوم وهل عندهم من أثر لذلك في كتبهم المحدثة وعلومهم المبتدعه

(الشيخ الرابع) — تالله انَّا لفي زمنٍ أصبح القابضُ فيهِ على دينهِ كالقابض على الجمر في جانب هذه البدع الافرنجية « ومن يُضللِ اللهُ فما لهُ من هاد »

(الشيخ الاول) — اذكروا لى بالله عليكم ماذا حصّل طلاّبُ هذه

العلوم الجديدة منها وماذا أفادوه وهل سمعتم يوماً أن أحدهم نفع الناس فوضع لهم متناً أو شرحاً على متن أو حاشيةً على شرح أو تقريرا على حاشية أو اختصر مطوّلاً أو طوّل مختصراً

(الشيخ الثانى) - ما أعجزَهم عن مثل ذلك وأقصرَهم وجُلُّ ما في طاقتهم أنهم يكتبون المقالات فى تعييرنا بإضاعة العمر فى هذه الاعمال النافعة ويسعون جهدهم فى إبطال ما ندرسه منها وهل سمعتم لعمر أبيكم بدينٍ قام أو يقينٍ رسخ أو شرعٍ نفذ الا بهذه الشروح والحواشى ولكنهم لما قصرت أفهامُهم وضاقت قرائحهم عن استيعابها وحفظها حسدونا عليها فارادوا أن يحطوا من هذه المزية الكبرى حتى لا نمتاز عليهم بفضل ولله در القائل :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَهُ فالكلُّ أعداءٌ له وخصومُ

(الشيخ الثالث) - صدقتَ صدقتَ وما أحكَم قول الآخر :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتُهُ من الفهم السقيمِ

(الشيخ السادس) - اطووا عنا هذا الحديث ولا تشغلوا أوقاتكم بالكلام فى أولئك الثرثارين المتفيهقين فلهم كتبُهُم ومدارسُهم ولنا علومُنا ودروسُنا واللهُ يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة

(الشيخ الخامس) - كان يجوز لنا السكوت عن منكرهم لو لم

يتعرضوا لناو يعرّضوا بنا فى مايسمونه بالجرائد فيملاؤها بالانتقاد علينا والقدح فينا ويتطفلوا على موائد اللغة الشريفة ويفخروا بأنهم برعوا فى فصاحة الوعظ والارشاد ونبغوا فى جميع العلوم وسبقونا اليها . وانما الجرائد أيضاً بدعة من البدع وفتنة من الفتن ولو شئنا لكتبنا وأملينا

(الشيخ الرابع) — ومع ذلك ففى كثير ممن طلب علينا العلم وسوّلت له نفسه الكتابة فى الجرائد من قد فاقهم فى طريقتهم وبذّهم فى ميدان فصاحتهم وهذا الشيخ فلان ذلك النابغة الازهرىّ قدّم الىّ بالامس مقالة مطبوعة له فى الجريدة من أبلغ ما كتب الكاتبون وأفصح ما نثر الناثرون لايمكن لاحد من أهل الدعوى أن يتعلق بغبارها أو يجرى فى أثرها والجريدة فى محفظتى فان أردتم ان أتلوها عليكم فعلت لتعلموا أن ليس لأولئك المغترّين من فضل علينا ولا مزية دوننا

(الجميع) — أسمعنا أسمعنا

(الشيخ الرابع) — يقرأ :

« عوامل الفتح الالهىّ طراءة التأثير بحكم باعث اعتدال راعٍ فى رعيته ومرعىً مع راعيه ولما كانت القوانين الطبيعية تدعو الى

حفظ مزاج الجامعة من طوارئ الكوارث الدهرية التي اذا دعاها داعي التفرق والانقسام تلبيه حيث هي النتيجة من مقدمات الاعتساف الذي هو مهد التخالف وبساط عدم التآلف وكان الانسان بحكم نشأته ميالا الى أقرب العوامل تأثيراً فقد وجب أن كل أمة لابدّ لها من أمرين

« فالامة هي منزل الكمال . ومحتد الجمال . ومربع الامارة . ومطمح الاشارة . ومقصد العبارة . ومورد المحافظة . ومسند المحاضرة . وسجل المناظرة . وكمال الناقص . ومرتغب الشاخص . وهي الرباط الاقوم . والحفاظ الانظم . فيها كل خير . ولها كل نفع وعليها كل ضير . ذات الحق . وحليفة الصدق

«وإنيّ ليدهشني وقعاً ويدهاني صدعاً اصلٌ جامع واثر نافع ما نطقت به ألسن الحكمة من سوالف العقلاء المفكرين وذوي الدراية المتوغلين وهو : « ان مبادئ تلاشي الامم تخاذل عقلائها » أجلْ أجلْ . إن هذا الامر ادعى الى لمح السوانح الفكرية والمسابقة في مضمارها حتى يتبين طريق التلافي لاضرار التلاشي وذلك أن تخاذل العقلاء يفضي الى انقسام الوجهة وبانقسام وجهتهم تنقسم امة البساطة فيسود الإيغار وتحفّ مراكز العمران بالاخطار ويتنفس فيها

مصدور الاكدار بزفرات هى مبدأ كل دمار وتتولد الضغائن بين الحميم والخليل والوكيل والاصيل فيمسى الحال بخيبة المآل إن لم تتوفر شرائط الاعتدال ثم والعقلاء فى كل أمة هم اركان مجدها وأعمدة قوامها وسراج سبجها ومفتاح أقفالها ومعيار أقدارها ومصفاة ادرانها ومشكاة أفراحها فالاتحاد بينهم اقرب منه فيما بين غيرهم على بصيرة من صيرورة التساهل فيه الى حد التخاذل الذى هو أس المبادىء العقيمة . والمواجيد السقيمة . والعوامل الكليمة . والضرورات الاليمة والبسطاء تباع فيما يسنونه لهم من قوانين التزلف والاذلال والخرف إن كانوا متخاذلين وقوانين الحكمة والمدنية إن كانوا متعاقدين متحدين وللناس قلوب يفعلون بها سوانح الفكر . فى سبحات الذكر . وشطط النظر . ونوال الوطر . ولهم آذان يسمعون بها منادى الحق . فى نادى الخلق . بنشر الرق . الذى هو لوح الإعتبار . ونظرة النظار . وصفوة الأخبار . ومرتغب السباق . ومصطبر الأشواق . وبرنامج الماجريات . وممثل الاحقاب للاعقاب وحافظ ما مضى لما هو آت

« بنى وطنى من الاسف والاستغراب ان الاجانب أصبحت وأمست تدعى أنها متأسية بهيع السلف من مراعاة الشريعة فى جميع

الاطوار وأن بيننا وبين التأسي بها بوناً بعيداً وأمداً مديداً . نعم هذا الادعاء وإن كان ليس بواقعي إلا أنه أجدى ثمرة وأمراً يجب علينا ان نتنحى عنه وإن كان ليس مقصوداً للأجنبي وحقاً له أن يدعى لاننا معاشر الوطنيين لو لم نتصف بهذا الوصف حقيقة لما تفرقت كلمتنا وضعفت قوانا وساءت حالنا وأصبحنا في حالة يرثيها الراثون فلا حول ولا قوة الا بالله . اين المتمسكون بالشريعة أين الغائرون أين الوطنيون المحبون لبلادهم الذين تربوا من خيرها وجعلوها مرتعاً ومحطاً لرجال الاجنبيين . أى فرق بيننا والحالة هذه وبين العجم اذا لم نتأثر من هذه الاحوال والدواعي التي تصادمنا كل حين وأي داع يدعونا للانتقاد على الاجنبيين في أعمالهم التي يحدثونها لغرض سياسي من الاغراض

« كلاّ . ثم كلا إننا مذ تناءينا عن الجرى على النمط الشرعي ألمت بنا الشوائب اللأواء من كل صوب وفج وصرنا كمن بسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه أو كرجل أعمى أُلقي به في الفلوات فأمّتهُ الأسود . فهذه حالتنا المأثورة التي بها تقاعدنا وتقدم الاجانب

إنني بهذا الصدد أقول إن الاتحاد هو حفظ الامة من أيدي الغير عند ما يريد المساس بها والدخول في أحوالها الشخصية التي لا تعلق

له بها بأى حال من الاحوال واليكم البيان المسألتان اللتان مَضَتَا ورُفِتَ بسببهما أستاذنا المفضال حين ما قام يساعد صاحب السماحة لخدمة الوطن الحقة فاتحدا ولولا ذلك لحل ماحل بأهل الاندلس وزاد الطنبور نغمة فسبحان مدبر الاحوال » انتهى والله أعلم

(الشيخ الاول) ـ ماشاء الله لاقوة الا بالله لقدأحسن وأجاد. وأدمى عيون الحساد

(الشيخ الثانى) ـ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من البيان لسحرا »

(الشيخ الثالث) ـ نعم ان هذا لهو السحر الحلال . والعذب الزلال

(الشيخ السابع) ـ تبارك الله ما أبلغَ وأفصح . وأبينَ وأوضح

(الشيخ الخامس) ـ بارك الله فيه . فلقد نثر الدرَّ مِنْ فيه

(الشيخ الرابع) ـ ألم أقل لكم إننا لو أردنا لكتبنا ولو عمدنا الى الكشف عما تكنه الصدور من أنوار العلوم لأخرسنا كل ناطق وأزرينا بكل كاتب وناثر ولكن ليس من الحكمة أن نبذل الجوهر لمن لا يعرف قيمته ولا الوعظ لمن لا يراعى حرمته

قال عيسى بن هشام ـ وما وصلنا من المجلس لى هذا الحد . حتى قام الباشا يُزمجر كالأسد الوَرْد . وجذبنى بيده للقيام . من غير

إذن أو سلام . فخرجت معه وهو يرنو الى الحسرات . وتتابع الزفرات وينشد معي في أهل هذا المجلس الأول . قولَ الأول:

ما فيهمُ برٌّ ولا ناسكٌ الاّ الى نفعٍ له يَجذِب
أَفضلُ من أَفضلِهم صخرةٌ لا تَظلِمُ الناسَ ولا تكذِبُ

* * *

قال عيسى بن هشام ـ واستنهضتُ الباشا أزور به مجلساً من تلك المجالس المعدودة . والأندية المعقودة . مجلس الوجهاء والتجار . بعد مجلس العلماء والأحبار . فشهدتُ منهُ ازوراراً وانقباضا . ووجدت فيه انحرافاً وإعراضا . ثم التفتَ اليّ يعاتبني عتاباً شديدا . ويوسعني عذلاً وتفنيدا . ويقول لي ما عهدت منك منذ صاحبتك الا الخيرَ لي تريده . والنفعَ تبدؤه وتعيده . وما زلت اشكر لك تلك اليدَ البيضاء : في العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء دفعاً لما كنتَ تحذر وتخشى . من شر الخاتمة وسوء العقبى . بتزاحم الاحزان . وتراكم الاشجان . وما تُعقبه من السقم والاعتلال . وسوء النكسة بعد النقهِ والإبلال . فما بالك تستنهضني الى مثل هذه المجامع والمجالس . بعد الذي رأيناه في مجلس اصحاب القلانس والطيالس . ذوي العلم والتقى . وأهل الرشد والنُّهَى . مما تذوب

له العيون الجوامد . وتتفجر عنده صُمُّ الجلامد . ويغضب له اهلُ الاسلام من المشرق الى المغرب . ولا يرضى به صاحبُ العرش فى السماء ولا صاحب المقام بيثرب . وقد شاهدتَنى يكاد يصيبنى الباس . من شدة الحزن والاسف . فقلت أشهد اللهَ ما أبغى لك الا الخير والتوفيق . فى كل مذهب وطريق . وقد رأيت التجارب أو سعتك كرماً وحلما . وصروفَ الدهر اكسبتك معرفةً وعلما . بعد قلة الاختبار وكثرة الاغترار . وسوء الابتدار . فى الإيراد والإصدار . وما كان فيك من خشونة الملمس وشموخ الأنف وضيق العطَن وصَلَف الرأى . وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس الا مشهداً يسلى عن الكرب . وملعباً يفرّج عن القلب . فلا يكن نظرك الى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم . وفى أفراحهم وأتراحهم . ونعيمهم وبؤسهم . ورجائهم ويأسهم . مثل نظر الحكيم «هيراقليط» . بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» . كان الاول يشاهد أمور الناس فيبكى ويتحسر . وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر . فاذا أنشد أحدُهما فى نصرة مذهبه :

النـاسُ من دنياهمُ فى مأتمٍ فالسُّحْبُ تبكى والرواعدُ تندبُ

أنشد الثانى فى تأييد مشربه :

هذى الحياةُ روايةٌ لمشخّصٍ   فالليلُ سِترٌ والنهارُ الملعب

ومن صواب الرأى ان لا تذهب نفسُك عليهم حسرات ولا تذرف عينك من أجلهم العَبَرات . وهلمّ معى أمتعك بزيارة مجالس يؤنس من وحشتك . ويكشف من غُمّتك . فأسلسَ مطاوعاً فى القياد . ووافقنى على ما تبيّن له من الرشد والسداد . فيمّمتُ به داراً عاليـة الجُدران . واسـعةَ الأركان . شـائقة البنيان . لأحد التجار الاعيان . فراحمَنَا عندالباب سائس يسحب فرساً مُصحباً مطيعا . ويحمل على كتفه طفلاً رضيعا يقول وقـد أظهر الغيظُ بواطنَهُ الـكامنة : لست أدرى واللهِ أسائس أنا أم حاضنه . ومِنْ ورائه آخر يحمل صفحةً متدفقة بالمخالّ . يقول وقد تلوّث بمائها وتَبلل: على مَ أتعب فى هذه الدار وأشقى . والى مَ يدوم هذا الشقاء ويبقى . ولست أدرى واللهِ أسائق أنا أم سقّا . ولما وَلجنا الباب . اذا بالبواب . يقول وفى يدهِ صُرّةُ ثياب: لامردّ للمقدور والقضيّ . ولا رجاء فى العيش الرخيّ . وواللهِ ماأدرى أبوّاب أنا أم خصيّ . ولما جاوَزْنَا دهليز المكان . الى باب الإيوان . وجدنا عندهُ غلاماً فتيّ السنّ . يتنهد ويَئنّ . وبين يديه دخان وورق . وبجانبه كتاب مطبـق . وهو يقول : عجباً واللهِ للوالد يشـغل ابنَهُ بسجاراتٍ

يحشوها . فيلهيه بها عن دروس له يتلوها . لا غرو إن فاضت العيون بسوا كبها . واحترقت القلوبُ بلواهبها . فما أدرى والله أفرّاشُ الدار أنا أم ابنُ صاحبها . فما أحسّ بنا حتى انتفض قائما . وتقدم مسلّما . ثم ذهب أمامنا . ليذكر قدومنا . واذا بالوالد مقبلاً علينا متكفأً فى مشيته . ويتعثر فى جبّته . فسهّل بنا ورحّب . وبالغ فى التحية وأسهب . ودخل بنا على اهل مجلس مختلفى الازياءِ والهيئات . متباينى الأشكال والسّمات . فمِنْ صاحب عمامة يتعهد بيده رصفها . وآخر يجدّد لفّها . ويحبك بالابرِ طرفها . ومِنْ صاحب طربوش قد أماله على جبينه . فاذا تحرك أسنده بيمينه . فترى يدَه أبداً لا تسكن ولا تستقر . كأنما هو فى تأدية سلام مستمر . ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو واللغط . وسمعناهم يتحاورون على هذا النحو والنمط :

(أحدهم) ـ نعم لا بدّ من ذلك اذا يسّر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان فان إقامه عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح لا يمكن أن تأتى بها الاشغال التجارية وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً فقد اصبحت الآن ولا نفع يُرجى منها وتوكلْ على الله في الاشتغال معنا بالابنية فهى أنجح وأربح

(الثانى) ـ ومِنْ أين لى زادك الله من النعمة والبركة مايساعدنى

على هذا التوسع والحالُ على ماتعلم ضعيفة والحمد لله على نعمة الستر فهى الغنى الكامل

(الاول) ـ لا تقل هذا أيها السيد «وأمّا بنعمة ربك فحدث».
ودعواك ضعف الحال إن هىَ الاّ تواضع منك والله يزيدك فضلاً على فضل

(الثانى) ـ أستغفر الله ياسعادة البك هذا حسن ظن منك والاّ فالحقيقه غير ماظننت وقد قلت لك إن الستر هو الغنى الكامل وعلى كل حال فالبركة فى التجارة فمنها كان رزق الا باء والاجداد. وربحٌ مستور أبرك من ربح مشهور

(ثالث) ـ تالله إنكم لفى ضلالكم القديم وهل بقى فى التجارة التى زاحمكم عليها الاجانب ربح يذكر أو رزق يُطلب فاتركوا هذه السفاسف وعليكم بأشغال الاقطان فى البورصة فهى الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلا كدّ ولا تعب وكم رأينا من فقير ولَج البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودى وفيكم من أدرك والدتهُ تبيع الخبز بالحارة قد مارس تلك الاشغال فاصبح اكثر الناس مالا وارفعهم حالا ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والاعمام رحمة الله عليهم

(رابع) ـ ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطّة مالا يخفى عليكم . وهل تريدون ان ينزل احدٌ منا بنفسهِ الى هذه الاشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر

(الثالث) ـ حاشا لله أيها السيد وليس هذا من قصدى وانما أردت أن ابيّن لكم أن هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يمتلك مالاً فأصبح من كبار الاغنياء فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة . لا شك أنهُ يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه

(خامس) ـ ما وراء الربح الكثير الا الخسرانُ الكبير وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجتْهُ اشغال البورصه من تخريب البيوت العامرة وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العماد الرفيع وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فاللهُ خيرٌ حافظاً »

(سادس) ـ اما أنا فلا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين وكفانى تأديباً ماتكبدتهُ من الخسائر فى تلك المضاربات على الاقطان ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لمَا نجوتُ من الخراب

(الثالث) ـ لاحول ولا قوة الا بالله إنك لاتهدى من أحببت كيف تخشون الخسارة فى أشغال الأقطان وتتوقعونها والربح فيها

مضمون مع بعض الانتباه لمجرى الاخبار وحسن التخمين في الاحصاة وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ومع القليل من الممارسة والجرآء في العمل

(سابع) - كيف تدّعى ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معدّاته فما زال يهوى في بحر البورصة حتى وصل في الخسارة الى القرار وإن كان لا يزال ظاهراً في أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجمّ

(ثامن) - سبحان الله ألا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة ثم لا يلبث أن ينكشف الحال عن القلة والضعف فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدّر بألوف الالوف ثم يظهر الخفيّ ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) - نعم صدقتَ ألم تروا الى المرحوم فلان كيف كان يفاخر لى في كل مجلس عند ما أخذت الرتبة بأنه اكثر مني مالاً وأعظم ثروة وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية فلما توفاه الله انكشفت الحال ولم يرثْ عنه اولادُهُ ما يكفي لبقاء بيته مفتوحاً وبقاء اسمه مذكوراً وقسْ على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنيّ الدائم

(الرابع) - دَعُونا بالله من ذكر الاولاد والمواريث فانني كلما

تذكرت اخلاق أبنائنا فى هـذا الزمن ورأينا ماوصلت اليه ثروة فلان وما انتهى اليه حال أولاده من الفقر والضنك بعد أن بددوا تلك الاموال الطائلة واصبح ذكر أبيهم بينهم نسيًا منسيًا فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة - هان علىّ أن أنفق مافى حوزتى فى حياتى وان أتمتع بأموالى فى مدة عمرى

(الخامس) - معاذ الله ان نفعل ذلك بأبنائنا وما فائدتنا فى هذه الدنيا اذالم نجمع الاموال وندّخر الثروة لاعقابنا ونترك لهم مايغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا . ولا نجعل الذنب كله على الاولاد فى تبديد المواريث بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون اموالهم هملاً بعد موتهم ويغفلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الاولاد بالريع وتبقى العـين قائمة والبيتُ مفتوحًا والاسم مذكوراً ولا يحتاج أحد من الذرّية وذرية الذرية مع وجودها الى ....

(السادس) - لامؤاخذة ياسعادة البـك فى مقاطعة الحديث ألم تسمع بما حصل فى وقف فلان وفلان وغيرهما وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعا بين القضايا والدعاوى والديون حتى آل النظر والاستحقاق فيهـا لليهود واندثرت البيوت وعفت الآثار وذهبت أسماء اصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) ـ نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط ان يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان فانهُ خصص جانباً من الريع لذريته واشترط أن يُحفظ الباقي ويدخر وكلما تكوّن منه مبلغ عظيم يُشترَى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الاصلى ليكون في نموّ متواصل على توالى الايام وصروف الحدثان وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته فأنعمْ بها من طريقة وأحسِنْ بها من وسيلة

(الثالث) ـ ليس ذلك من الحزم في شيء ولكنه التغالى في البخل والشح ومحبة الادّخار بعد مفارقة الحياة ولقد حرَم المرحومُ نفسَهُ من التمتع بمالهِ في حياته وحرم أولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة في شروط الوقف

(الاول) ـ أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة فَمَنْ يقول ان المرحوم كان شحيحاً مقتراً قد واللهِ عاشرتهُ الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها . وما كانت مائدته لتخلو من الضأن او الحمام أو الدجاج وحقِّ جدك وانما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله الاّ في الوجوه النافعة

(الثاني) ـ لا اعتماد عندى في هذا الباب على الوقف أو الملك

وخير ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس وان لا يعوّدهم فى حياته الانفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار

(الاول) ـ وهل جاءتنا المصائب فى أولادنا الا من هذه المدارس وتعليمها وهل زادهم ذلك التهذيبُ الا ماشئتَ من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ولقد أدهشني فلان بالامس واضحكني في شكواه مُرّ الشكوى من حال ابنه المهذب المتعلم فى المدارس والمجالس إذ قال لى فى حديثه : ما زال هذا الولد يزيد فى تعذيبي وتكديرى منذ خروجه من المدرسه فأصبح لا يكلم اهلَهُ الا بالرطانة ولا يعرب عن غرضه الا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شىء فى البيت . فاذا جاؤا له بالماءِ قال فيه المكروب واذا أتوه بالخبز والجبن قال عليّ بالمكرسكوب ثم ترى الشقى يقسّم الأَطعمة أقساماً فيقول البيض واللبن غذاء كامل والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمري وان الأُرز وما شابهه من « المواد النشائية » لا فائدة منها سوى انها تحترق كالوقيد فى الجسم وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الاعضاء وأن الفواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها اذا تشققت وخصوصاً البطيخ لأَنه أسرعها قبولاً لتولد الحيوانات السامة

وهلم جرًّا حتى حيّر الخبيثُ أهلَ البيت فى طعامه وشرابه فوق ما حيّرنى فى اختلاف ملابسه وتعدّد أزيائه وكلما عارضتُهُ فى شئ شمخ بأنفه استكباراً ولَوَى عنقَهُ استحقاراً وسخر بى لجهلى وفخر علىّ بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس يتعالون على آبائهم ويعيّرونهم بجهلهم بعدأن كان الولد كالبنت البكر فى الزمن الماضى لا يرفع طرفه فى وجه والده حياء ووجلاً وكان لا يجرأ على مكالمته الا مجيباً عن سؤال من صغره الى كبره

(الثانى) — ولكن فاتك ان تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يُغتفر لها كل ذنب وهى دخولهم في سلك الموظفين فى الحكومة وارتقاؤهم المراتب والمناصب ويا ليت آباءنا كانوا التفتوا فى أيامهم الى تعليمنا فى المدارس فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم فى آخر كل شهر نقداً عيناً وذهباً خالصاً دفعة واحدة سالمةً لأيديهم بلا مطل ولا تسويف فى مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الاعظم منها فى المسامرات والمفاكهات ثم ناهيك عما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما فى قدرتهم من مساعدة

لاصحاب ونكاية الاعداء . ورأس المال في ذلك كله الاحاطة
ضعة كتب في المدرسة . فاخبرني حينئذٍ أيّ ربح في التجارة وأيّ
أن لها يوازي هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة وسبحان
ن قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

(الرابع) — كل هذا معلوم ومسلَّم به ولكن من أين لك ان ينال
بنك الشهادة وانت تعلم حال القابضين على زمام المعارف فقد خرج
كثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الاموال في
نفقاتها ومَنْ صادفتهُ العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني فانه لم يزل
مردد على أبواب الحكومة في تطلب الوظيفة والوظائف مشحونة
نظار الحكومة على ما نعهدهم من ضعف الهمة

(السادس) — عسى الله ان تتبدل الاحوال وتسقط هذه الوزارة
ويمنّ علينا برجوع اؤلئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد
وأبناء الوطن فترى حينئذٍ كيف يكون تقدم أبنائنا في المناصب

(الخامس) — حقا اذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك الى
لوزارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الاوقات
وأنا أرجو أن لا تنسى ابني عند السعي لانجالك فقد كان معهم في
مدرسة واحدة وهو دائما يطالع الجرائد ويترقب الحوادث التي

يكون من ورائها سقوط هذه الوزارة

(الثامن) ـ أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هـدًى . والأصوب عندى أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً لا لأجل التوظف في الحكومة والخروج عن طبقاتهم . واما من جهة حفظ المواريث في ايديهم بعد مماتنا فأحسنُ الطرق أن لا نقتر عليهم في النفقة اثناء حياتنا وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدتهم تحت أعيننا ليتمرنوا على العمل ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم فتربى لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم والتفنن في أبواب المرابحة . وقد جربتُ ذلك في أولادى وأنا ارجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) ـ هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) منادياً لابنه ـ إئتنا بالجريدة واقرأها علينا

(يحضر الغلام وفي يده الجريدة ناشراً لها)

(الاول) ـ اقرأ لنا من الاول

(الغلام) قارئاً ـ « الحرب »

(السادس) ـ هل وقعت الحرب

(الغلام) ـ ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) ـ اقرأها من آخرها

(الخامس) ـ اتركها من أولها الى آخرها واقرأ فى « المحليات »
فلا فائدة لنا فى وقوع الحرب أو اجتنابها

(الغلام) قارئاً ـ « تأليف الشركات »

(الرابع) للسادس ـ لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التى كنا تكلمنا فى تأليفها منا لمشترى الاطيان المعلومة من الحكومه

(الخامس) ـ ان شاء الله يكون لنا نصيب معكم فى هذه الشركة

(الثالث) ـ مَن أعضاؤها ومَن الرئيس

(السادس) ـ أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) ـ معاذ الله ان أقبل الدخول مع فلان فى شركة وهل نسينا ما وقع منه

(الثانى) ـ وأنا لا أقبل الدخول فى شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى مالم اكن أنا الواسطة فى مقابلة الحكام والمداولة معهم

(السابع) ـ وأنا لا أقبل الدخول فيها الاّ اذا كانت أسهمى فى التأسيس أكثر من فلان

(الاول) ـ وأنا لا أقبل ان يكون فلان رئيساً عليّ في شركة ابداً

قال عيسى بن هشام ـ واشتدَّ بينهم الجدال والخصام فحملقت العيونُ وعبست الوجوهُ وتحركت الضغائن وثارت الاحقاد. ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشر والأذى. مالا يضمره القرن لقِرنه في ساحة الوغى. فانصرفنا عنهم وتركناهم يموج بعضُهم في بعض. كأنهم في موقف الحشر ويوم العرض

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وسرنا الى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية. وذوى السياسة والدراية. ممن بيدِهم حلُّ الامور وعقدُها. وبملكِهم شقاء الامةِ وسعدُها. الناشئين في مهد المعارف والعلوم. والنابغين في أشتات المنطوق والمفهوم. والموصوفين بدقة النظر وبُعد الهمم. والواقفين على اخلاق الخلق وعادات الامم. الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية. وتنقاد للطف سياستهم أزمّه القلوب الآبية. فوصلنا الى دارٍ يزهر بياضُها. ويبهر إيماضُها. قد ضربتْ عليها المحاسنُ أطنابَها. وخلعت عليها الزخارفُ جلبابَها. فسار بنا الخدم الى حجرة في جانب الساحة. أعدّت للانتظار والاستراحة. واذا برجلٍ جالسٍ فيها يتمايل بين يقظان ووسنان. فرأسُهُ كرة

والكَرَى صولجان . فلما أحسّ بقدومنا ودخولنا عليه . انتبه يزيح النعاس باصبعه عن عينيه . فسلّمنا فسلّم . وهو يتثاءب ويتلعثم . فتخيلناه من ظاهر جملته . وبساطة هيئته . أنه صانع من الصناع . أو تبع من الأتباع . ولكن مالبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام . أنه ذو رحم في البيت وذو مقام . ثم التفت الينا يخاطبنا ويقول . بعد أن ذهب الخادم مستأذناً في الدخول : « قبَّح الله الخدم . فهم نقمة من النقم . شرُّهم حاضر . وخيرهم نادر . والعناء بهم ليس له آخر . فكم أغضبوا حليما . وآذوا كريما . وكم كسروا الصحيح . وخلطوا الصريح . وكم ارتكبوا جرما وإثما . وجاؤا إفكا وظلما . وكم فتحوا الأغلاق . واختلسوا الأعلاق . وكم أحدثوا الشقاق . وأذهبوا الوفاق . وكم فرّقوا بين المرء وأهله . وحالوا بين الفرع وأصله . ولعنة الله عليهم في الدارين . فقد ذقتُ منهم الأَمَرَّين . وكادت تصل بنا افعالهم الشنيعة . الى مالا يُحمد من الجفاء والقطيعة . وابني حرسه الله ينظر ويغضى . ويتحمل منهم مالا يُرضى . وهم يتجنّون علينا وينتصرون . واذا أمرتهم بأمر لا يأتمرون . ويشهد الله انني كلما رأيت مال ابني في أيديهم يتبعثر ويتبدد . وثقتَهُ بهم تتضاعف وتتجدد . ذاب الفؤاد فسال من العيون . مشوبًا بماء الشؤون . وأما وكيل البيت وما أدراك

ما الوكيل . فحسبنا الله ونعم الوكيل . فتىً لا تخطئ في النفاق مَخيلته . ولا تطيش في البيت حيلته . دأبهُ المكر والخداع . وديدنُهُ الشقاق والنزاع . يُرضي طفلا . ليسخط كهلا . ويتملق للجارية في الحرم . وللوصيف من بين الخدم . . . . »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر . ويتأفف ويتحسر . فلم ينقذنا من هذه الشكوى التي تُصم الآذان . الاّ رجوع الغلام بجواب الاستئذان . فانتهينا من شقشقة لسانه . وحمدنا الله على كرمه واحسانه . ثم اقتفينا أثر الغلام الى حجرة بادية الرُّواء . مضيئةٍ بالكهرباء . مفروشةٍ بأثمن فراش . وأبدع رياش . على اختلاف في الاجناس والانواع . وتباينٍ في الاشكال والاوضاع . فالتحفة الشرقية تقابلها الطرفة الغربية . وآنية الذهب . يضارعها آنية الخشب . فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء . من الرؤساء والوكلاء . فأخذنا مجلسنا نستمع مايدور من السمر . ونجنى من أدبهم مايحلو من الثمر . ودونك بعض ما اقتطفنا وجنينا . وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) - نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الاحزاب في فرنسا فان في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا

(ثانيهم) - ما أبعدَ ماترمى وما أسرعَ ماتحكم فهلاّ نبأتنا لله أبوك

كيف ترتيبك لهذه القضية واستقراؤك لهذه النتيجة وما نحن وخذلان الاحزاب الفرنسوية ونصرة حزب الجيش عليها

(الاول) — أراك است بعويص الرأى فى السياسة ولا ببعيد الغور فى استخراج النتائج ألاَ تعلم لازلتَ مسدّداً ان فى انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعاً بفرنسا الى الملكية او الامبراطورية او القنصلية فنأتينا بمثل اؤلئك الملوك والقوّاد الذين دوّخوا الشرق والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول واصبحت لهم الكلمة العليا على اهل البسيطة فلا يمانعهم فى اغراضهم ممانع ولا يعارضهم فى مطالبهم معارض . وإني لأَعلم علم اليقين ممن عاشرتُ من كبار الفرنسويين وصاحبتُ أنه لولا هذه الجمهورية لَمَا وصلنا نحن الى هذه الحال وما نحتمله فيها من الهوان والصغار واستئثار اؤلئك القابضين على زمام حكومتنا بالامر والنهى دوننا مع المرتبات الجسيمة والسلطة الواسعة ولَمَا أُغلقت أَمامنا أبواب الترقى وانقطعت بنا اسباب التقدم فلو عادت فرنسا الى مجدها السابق وعزها القديم لزحزحتهم بأشارة وأزاحتهم عنا بكلمة ولاصبحنا نتصرف فى حكومتنا بأيدينا

(ثالثهم) — دعنا بالله من هذه الخيالات واتركنا من هذا اللغو

ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال فانك متين العلاقة بالمستشار وما بينك وبين الوصول الى المنصب الذى تتطلع اليه الاّ قيدشبرٍ وأنت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بمالك من الغنى واليسر ولكن ماذا تقول فى مَنْ هو فى حاجة دائمة الى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة مع سخط الناظر وغضب المستشار واستشعار المرؤوسين بذلك فلا توقير عندهم ولا احترام ولا أدب فيهم ولا حياء ولولا الاحتياج الى المرتب والاضطرار الى الرزق لما أقمتُ فى الخدمة يوماً واحداً

(رابعهم) — وأنا والله لا انتظر الآن يتم لى نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة وانجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهى أهنأ عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان

(خامسهم) — ما أسخف الرأى وأضعف الفكر . ومَن ينكر ان خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأناً من بقية الحرف والصناعات . وكل اسباب المعايش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والاكدار ولكن خدمة الحكومة أهونها حالاً وأقلّها عناءً ولا يفضّل عليها الاشتغال بالتجارة الاّ من كان قليل التبصر فى

الامور ويكفيك برهانا على ما اقول انك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك في يدك ولكن التاجر في حاجة ابداً الى اصغر موظف في الحكومة وإن كان من اغنى الاغنياء ولو تراهم اذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضى ومخاطبة المدير لعلمتَ ان خدمة الحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغا عظيما من الشرف والرفعة بحيث لو خيّرتَ احدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته واطيانه وبين الدخول في صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده ولحكم بأن السعادة كل السعادة في ما تعدّه انت شقاء وبلاء وتعتبره ذلاًّ وهوانًا

(سادسهم) — على رِسْلك ايها القاضى لاتعكس القضية ولا تقلب الحقيقة ولا تحمل ما تراه في اخلاق اهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفهم والاستعظام لأهل الحكومة على ان حرفهم خسيسة في ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم والا فلو تخلّى احدهم عن طبقته ودخل في طبقتنا يوما لأدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل والحرية في الرأى ولَعلم ان الموظف قد باع للحكومة حريته

ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه مقابل مقدار من المال يَعدّ لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فى يوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله وياليت آباءنا كانوا انتبهوا الى تعليمنا الصنعة وتمرينا على التجارة ولكن بئس ما صنعوا وبئس ماخلفونا له ولو أنهم كانوا ادركوا ما انتهت اليه حال الخدمة فى الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام فى الازمان السالفة من الصوْل والطوْل والقوة والحول واكتساب المال من الجاه ـ وعلموا انه سيأتى زمان على هذه الحكومة التى كانوا فى ايديها كالايتام فى يد الوصيّ يكون ارباب المناصب فيه كالاطفال فى حجر المرضع ـ لعضّوا الأنامل ندما ولأرسلوا بدل الدمع دما على مافرطوا فى أمرنا وأهملوا فى شأننا

(الخامس) ـ انك لتتكلم بكلام العجائز اللائى يقنعن من دهرهنّ بالخسيس من الملبس والمطعم . وأين انت هداك الله من طلب المعالى وابتناء المفاخر وتشييد المجد وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضر . وأين انت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أنّ ما أسعَى لأدنَى معيشةٍ ... كفانى ولم اطلبْ قليلٌ من المالِ
ولكنّما أسعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يُدرك المجدَ المؤثّلَ أمثالى

والى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم وماتت العزائم ورضى الناس فيه بالخمول والسكون وبالعيش الدون

(السادس) ـ انى لأعجب منك ايها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب الى هذا الحد فترى ان فى خدمة الحكومة سؤدداً وعلاءً ومجداً وسناءً وما هى الا الذل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء . وانا أفصّل لك الحال تفصيلاً لتعلم ان بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على التنحى عنها عجزٌ وضعف وجهل براحة الحياة وأىّ جهل فأقول :

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة الى اربعة اقسام . القسم الاول الرغبةُ فيها للمال أعنى لسدّ العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهرُ باحتمال الهوان لضرورة الرزق فهو فى رق العبد وذل الأجير لا مناص له من الصبر على المضض حتى يجد له مخلصاً منه ومنصرفاً عنه وهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة الى صف اهل الصناعات الحرة

والقسم الثانى الرغبةُ فيها للجاه أعنى عزة المنصب ونفوذ الكلمة ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الاطراف ليس

لشوطه نهاية ولا لحدوده غاية ولا بدّ فيه للجواد من كَبْوَة وللسيف من نَبْوَة وطالما كان اعتلاء المناصب وارتقاء المراتب داعية للرزايا والمصائب ومَجلبة للبلايا والنوائب :

والشرّ يَجلبُهُ العَلاء وكم شكا نَبأً عليّ ماشكاهُ قنبرُ

ولو سلّمنا ان صاحب المنصب سَلِمَ من المعاطب ونجا من الخطوب فهو لا يزال طول حياته في همّ ونَصَب كلما ارتقى في المنصب درجة وجد فوقها درجة أُخرى يحسد مَن يليها ويحقد على من يعتليها ولا يفتأ مستعظماً لِمَا فوقه طامعاً فيه مستصغراً لِمَا في يده راغباً عنه فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها غير راضٍ عن نفسه ولا عن الناس ولا الناسُ عنه راضون . وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء وملتقى الكمد والكدر :

ذلك الخائبُ الشقيُّ وإن كا ن يُرى أنهُ من السُّعَداء

يحسبُ الحظُّ كلهُ في يديهِ وهو منهُ على مَدَى الجَوزاء

وأَخلِقْ بمن كان همُّهُ ابداً التطلع الى غير ما في يده ان يكون أنحسَ البرية حالاً وأَمَضَّهم عيشاً ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها وحذّروا العقلاء من السعي وراءها وشغلِ النفس بها . هذا كلهُ اذا كان

لمنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول اليه من طريق لفضيلة والشرف والحصولُ عليه من باب الجدارة والاستحقاق. فأما والطريقُ الى المناصب كما نراه اليوم قاصرٌ على التوسل والتوسط وإهراق ماء الحياء والمنصبُ على ماتعلم وضيع الكلمة ساقط القدر خسيس المنزلة لا أمر فيه ولا نهى ولا حلّ ولا عقد فالفرارُ منه أجدرُ بطالب الجاه وأحرى والتباعدُ عنه أشرف بذى الفضل وأسنى والنزولُ عنه نِعم المنصب العالى لطُلاب المعالى

والقسم الثالث الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواه دفعا للسأم والملل وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بحاجات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس . ولا يدخل فى هذا القسم الاَّ مَنْ كان فارغ الفؤاد خاوىَ الصدر خالياً من كل أدب وفضل مشغولَ الضمير بالوساوس والهواجس فأكرهُ شيءٍ لديه نفسهُ وأثقلُ حمل عليه حياتهُ ولا بدّ له من مشاغل متجددة ومسائل متعددة تشغلهُ عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده اذا هو خلاَ بها لحظة كأنها خليّة من خلايا الزنابير أو وكرٌ من وكور الأفاعى وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يوما لأن مَنْ ضاقتْ عليه نفسهُ كان العالم عليه أضيق ومن ثقُلت عليه أخلاقه فالخليقة عليه أثقل

والقسم الرابع الرغبة في خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع الأمة . وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضا لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء في المنصب وبين الاستقلال في الرأي الذي تقتضيه مصلحة الوطن لما بينهما اليوم من التخالف والتناقض . ومن أراد أن يخدم وطنه فليتخلص من قيود الحكومة ويخدمهُ وهو مطلق اليدين واسع التصرف

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل خصوصا في بلد ينسبون فيه الى صاحب المنصب كل فضيلة وينزعونها عنه اذا سقط منه فالرجالُ عندنا بالمناصب لا المناصبُ بالرجال على عكس ما قد قيل :

إنَّ الأميرَ هو الذي ... يُضحي أميراً يومَ عزلِهْ
إنْ زال سلطانُ الولا ... يةِ لم يَزُلْ سلطانُ فضلِهْ

فمن ذا الذي يقبل الدخول في خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصاً إلاَّ منْ أضلَّهُ اللهُ على علم . ولذلك فاني عهدت على نفسي أن أتخير لأولادي في تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً وتكون معهم أينما حلُّوا وساروا لا يسلبها منهم تقلبُ السياسة وتغيّر الحوادث ولا يؤثر عليهم فيها غضبُ زيدٍ أو رضى عمرو

(سابعهم) — لله أنت ما أحلَى بيانك وأجلَى برهانك وأنا معك في هذا الحكم وعلى هذا العزم

(الثاني) — اتركونا من هذه الخطب المكدّرة والافكار المحزنة وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرّج عنا ويروّح ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهمّ الليل . وهل لك يافلان أن تقوم معي للمسابقة والرياضة بالبسكليت

(الاول) — الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع اليه

(ثامنهم) — أو قوموا بنا الى عرس فلان فقد بلغني ان فيه « بوفيه » لم يُسمع بمثله حسنا ووضعا

(الاول) — أنا معك

(الثامن) — لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمع الغناء

(الاول) — لست معك في هذا بل نخرج من البوفيه الى الازبكية لسماع الموسيقى الانجليزية أو الاوبرا التليانية

(الرابع) — أنا لا أتوجه معكما لأني ذاهب الى « الكلوب »

(السابع) — انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء

(الخامس) — عليّ بالجرائد الفرنسوية منها فهي أصحُّ من العربية أخباراً وأغزر مادة

(الثالث) ـ اقرؤوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو مع بعضها

(الثانى) قارئاً ـ «آسيا في أوربا وأمريكا في أفريقا»

(الرابع) ـ ماذا جرى لصوابك ياعزيزى اقلب الصحيفة الأولى فمالنا ولهذه المقالات الافتتاحية ومالنا ولهذه الافكار الصبيانية

(الثانى) قارئاً فى الصحيفة الثانية ـ «الاسكندرية لمكاتبنا» :

«الأمة برجالها والمناصب بأربابها والمعارف هى التى تخرج لنا رجال المستقبل ومن أين لنا بالرجال اذا كانت المعارف تبخل بالمال فالمستقبل حينئذ مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة ان لم تنهض العواطف لانشاء مدرسة كلية أو معارف أهليه وبخلاف ذلك فان . . .

(الرابع) ـ حسبك أيها القارئ حسبك أما قلنا لك لا تقرأ هذه المقالات الملومة

(السابع) ـ اترك «الاسكندرية» الى غيرها

(القارئ) ـ «الزقازيق لمكاتبنا» : يثنى العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكنس والرش . . .

(الثامن) ـ أنعِمْ به وأكرِمْ وأكثر الله من أمثاله فى خدمة الوطن . عليك ياصاحبى بالحوادث الداخلية

(القارئ) — « يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديد الى الاسكندرية فى هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة الى العاصمة على اكسبريس الصباح . . . .

(الثامن) ـ اترك قراءة هذا المانيفستو أيضاً

(القارئ) ـ «سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث فى الجبانات والآن نذكر نص القرار . . .

(الثامن) ـ جعل الله الجنة قراره ومثواه . فدعهُ واقرأ ماسواه

(القارئ) ـ « وصل سعادة السردار الى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة ان أهم مايشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان

(الثامن) ـ سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان وحوادث اليونان

(القارئ) ـ « يسم البوليس الكلاب الضالة . . .

(الثامن) ـ نسأل الله السلامة للخلق والهداية للجميع

(القارئ) ـ « كتب الينا أحد أفاضل الاطباء بأنه اكتشف علاجا يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ويقول حفظه الله فى آخر رسالته انه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لايفارقها حتى ولا فى منامه على فراشه . . .

(الثامن) ـ لا نزاع فى هذه الكفاءة وسبحان الموفق

(القارئ) ـ « رزء عظيم : قد فجع الاسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الاشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها فى عمل البر والاحسان فكان لنبأ موته أسف وحزن فى قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموما »

(الثامن) ـ لا حول ولا قوة الا بالله لا بد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطا فاحشا فى القطر المصرى خصوصا وفى الولايات المتحدة عموما

(القارئ) ـ « نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جاريا فى قضية التزييف ولم يتم فيها شئ للآن ومتى تم نبادر الى نشره افادة لحضراتهم كما هى عادتنا فى نشر الاخبار بأوقاتها »

(الثامن) ـ أفادكم الله ونفعنا بهذه الاخبار

(القارئ) ـ « فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان فى مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها وردة جعلان فى الاسبوع الماضى . وكذلك فاتنا أن نهنئ حضرة مكاتبنا الفاضل بمزلة واكد حيث رزقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة »

(الثامن) ـ جلّ مَن لا يغفل ولا ينسى . ولكن فاته أن يذكر إن كان ذكراً أو أنثى

(القارئ) ـ « لدغت عقرب ابنة فى قسم الوايلى »

(الثامن) ـ نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة فى الاحتياطات الصحية ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية

(القارئ) للثامن ـ يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية والاستهزاء واسمعْ لهذا النبأ العظيم

(الثامن) ـ سمعاً وطاعة

(القارئ) ـ « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن فى مشروع فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الامة المصرية الاسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيمة الذى يكون من ورائه رسوخ قدم الاجنبى فى البلاد وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع فى مقالة افتتاحية

(الاول) ـ ان هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى فكيف وصل الى الجرائد

(الثامن) ـ إنى لأَخشى إن دام إفشاء الأَسرار على هذا الحال أن يستبدِ لنا أربابُ الحل والعقد باستخدام الخرس فى مجالس

الحكومة رجوعا الى العادة القديمة فى مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية

(الرابع) للثانى ـ اقرأ بقية الأخبار المحلية

(الثانى) ـ لم يبق فى الجرائد الثلاث الا التلغرافات والاعلانات

(الرابع) ـ أراك لم تقرأ الا جريدة واحدة فما قولك الجرائد الثلاث

(الثانى) ـ هى كما تعلم نسخة واحدة فى الاخبار وان كانت مختلفة فى الأسماء

(الرابع) ـ اقرأ لنا التلغرافات

(الثانى) قارئاً ـ « ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ — كان الاحتفال بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة »

(الرابع) ـ ما هذه البسفاسف

(الثانى) ـ هى التلغرافات الخصوصية

(الرابع) ـ علينا بالعمومية

قال عيسى بن هشام ـ وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهلُ المجلس حلقةً يكثرون اللغط فى شرحها ويرجمون الظنون فى تأويلها وما فيهم الاّ مَنْ هو على خلاف لرأى صاحبه وإذا هُم

قد عادوا الى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما وجدنا الجدال يحتدم بينهم اشتعالا . خرجنا من بينهم انسلالا . وتركناهم فى سياستهم يتيهون . وفى ضلالهم يعمهون

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وأحببتُ أن أختم هدى المجالس والمجامع . بزيارة المجلس الرابع . مجلس الطبقة العلياء . من الأمراء وأبناء الامراء . أهلِ السدّة السنية . والعتبة الملوكية . وأُولى الفخر والسناء . وبنى المجد والعلاء . وأصحاب العز والشرف . وأرباب الرّفهِ والترَف . وذوى الفروسية والكرم . ومصدرِ الفواضل والنعم . سادةِ المحافل . وقادةِ الجحافل . ومطمحِ الحاشية . ومَطمعِ الغاشية . ومَهيَعِ القُصّاد . ومُنْتَجَعِ الرُوّاد . ومرجع السفراء . ومطلبِ الشعراء . ومحطّ ِ الرحال . لذوى الآمال . مَنْ يتألق بهم بيت المُلك والسلطان . وتفخر بوجودهم البلدان والاوطان . وتخفق على رؤوسهم اللواء والعَلَم . وينتضى فى خدمتهم السيفُ والقلم . وتَعنُو لقدرتهم النفوس . وتنكّس لعزتهم الرؤوس . وتُغَضُّ من مهابتهم الأبصار . وتتلاشى

دون رتبتهم الرتب والأقدار . ويرتفعون عن الناس ارتفاع
الكواكب في الأبراج . ويمتازون عن سائر الخلق بسمة العرش
والتاج . معدن المكارم والمآثر . وبدور القصور والمنابر . فأممنا
قصورهم قصراً قصرا . وأحطنا بها عدًّا وحصراً . فلم نجد فيها من
سكانها . غير خصيانها وغلمانها . ووجدنا أصحابها لا يرضونها مسكناً
ومُقاما . ولا يأتونها الا لماما . وعلمنا أن « الكلوب » يعني النادي .
هو مأوى الرائح منهم والغادي . فهناك موضع جلوسهم واجتماعهم .
ومحل أنسهم واستمتاعهم . فقصدناه مع أحد أصحابنا من أعضائه
وجملته . ليتسنّى لنا الدخول في صحبته . فانتهينا من السلّم الى قاعة فسيحة
الجوانب . مزيّنة بمصابيح كالكواكب . تدخل منها الى عدة
غُرَف . مزخرفة بأبهى التحف والطُّرَف . فرأيناها مزدحمة بأجناس
من الناس . يروقون النظر بحسن الزيّ واللباس . ويبهرون العيون
بحُلى الياقوت والألماس . وهم كلهم في لغط وضوضاء . كأنهم في
سوق بيع وشراء . فأخذ صاحبنا يرشدنا عن أجزاء المكان .
ويعرّفنا بفلان وفلان . ويخبرنا عن الغرفة الأولى أنها للمنادمة
والمعاقرة . والثانية للمراهنة والمقامرة . والثالثة للمحاضرة والمسامرة
فبدأنا بالدخول في الغرفة الاخيرة . فوجدنا في وسطها منضدة كبيرة عليها

كتبٌ منشّرة . وجرائد مصوّرة . تعبث بها أيدي جماعة من الامراء . دون انتباهٍ أو اعتناء . وأعينهم شاخصة نحو المِرآة . للتمتع بالمنظر والمرآة وألسنتهم منطلقة بالأعجمية . دون اللغة العربية . فأخذنا مجالسنا منهم ناحية . وأعرناهم أُذناً واعية . واذا أحدهم يقول لكبيرٍ من كبراء اسرته والغضب بادٍ في تقطيب أسرّته :

(أحدهم) - أنا لا أبالي بهذا اللوم والتفنيد ولا أقبل منك مشورة ولا نصيحه والله يعلم بما وراء هذه النصيحة مما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر فان كنت تريد بي خيراً كما تزعم وتدّعي فاتركني وشأني فأنا أدرى بوجوه المصلحة لنفسي ولا عليك من ذلك الدين الذي تُعيّرني به فعندي من المتاع والعقار ما يسدده ويوفيه . وكما أنني لا أتداخل في شؤونك فليس لك أن تشاركني في أمري وتكدّر عليّ عيشي والأولى لك أن تصرف جملة عنايتك الى تدبير ثروتك فانك أحوج الى ذلك مني حتى لا يأتي عليها أُمناؤك ووكلاؤك نهباً وسلباً وأنت مقيم في غفلة عنهم . وأُقسم لك بقبر والدي أنني لأُفضّل حالتي عن حالتك فان تبديد ثروتي وتبذيرها في سبيل ما تشتهيه نفسي وتلذّه عيني خير من أن أعيش محروماً وغيري يختلس ثروتي ويتمتع بأموالي

(ثانيهم) ـ وأنا لا ألتفت الى هذا الكلام الفارغ بل أنذرك منذ اليوم أنك اذا لم ترجع عن سوء سيرتك وتبديد أموالك وتسلم اليَّ ادارة ثروتك لتسديد ديونك وترتيب امورك طلبتُ في الحال توقيع الحجر عليك

(الاول) ـ مثلي لا يؤثر عليه هذا الوعيد ولا يعمل فيه التهديد ولا يمكن لك أن تجد في أعمالي ما يوجب توقيع الحجر غير الدينِ وَالدَّينُ أمرٌ مستفيض بين الناس لا يكاد يخلو منه ذو ثروة والحكومة نفسها من أكثر الناس دينا ولا يوجد فيها مَن يعتبر الدين حجةً مقبولة لتوقيع الحجر ومع ذلك فأنا أُقسم لك بكل شيء أحبه وأعزه انكم ان لم تنتهوا عن السعي وراء الحجر عليَّ تنازلت في الحال عن جميع أموالي الى أحد الاجانب ليستثمرها لي في حياتي ولا ينالكم منها شيء بعد مماتي

(الثاني) ـ سترى مَن يكون الغالب منا والفائز فينا

(ثالثهم) ـ والله يا اخواني لقد كرهت الثروة وأبغضت الغنى من طمع الاهل وفضول الاقارب وقد آليت على نفسي أن لا أُبقي منها درهما واحداً لأحد من بعدي

(رابعهم) ـ الحمد لله على ضياع الثروة وانقضاء مشاغلها وأنا اليوم

أبيع ما بقي من الاطيان لأتمتع بها في معرض باريس قبل أن يتمتع بها سواى

(خامسهم) ـ وانا أسأل الله أن يعجّل بربح القضية التي رفعتها على والدتي قبل حلول أيام المعرض لأكون معك

(الرابع) ـ وما يدريك انها تبقي معلقة في المحاكم زمنا طويلا ينتهي فيه معرض بعد معرض

(الخامس) ـ أنا لا بد لي من زيارة المعرض على كل حال فان لم تنته القضية ففي يدي رسائل وأوراق صادرة عن أختي وعثرت عليها بكيفية غريبة وقد قدّرتُ لها قيمة تكفي لسفري وأخبرتها أنها إذا لم تسرع بالنقد والدفع طبعتُ تلك الرسائل ونشرتُها على الناس . ولا شك أنّ تعلقها بزوجها لطمعها في أمواله يدفعها لتدارك الفضيحة بشراء تلك الاوراق في الحال

(سادسهم) ـ اني لأغبطك على هذه اللُقطة النفيسة وأسأل الله أن يوفقني الى مثلها مع عمتي

(سابعهم) ـ دَعُونا من هذه الوسائل الضعيفة وتعالوا نجتهد في السعي لزيادة المرتبات التي نستحقها في قائمة العائلة الخديوية

(السادس) ـ ماذا يجدى السعي في زيادة هذه المرتبات وهي لا

تزيد لواحدٍ إلا بموت آخر والاموات منا قليل ولئن سهّل الله فغاية مايزيد المرتب خمسمائة أو ألف جنيه فى السنة تكون من نصيب خياط أو تاجر مركبات . ولكن علينا بالسعى ان أمكن السعى فى اكتساب ثروةٍ تقوم لكل واحدٍ منا بما يليق برفعة مقامه وعلو درجته بين الناس

(الثانى) ـ لا تشغلوا أفكاركم بهذه الاوهام والاحلام فقد نضبت الموارد وجفّت الضروع ومضت تلك الاوقات التى كانت تتجمع فيها الاموال العظيمة وتتكوّن الثروة الجسيمة وفاز بها الآباء والاجداد ثم خلفوها لنا فلم نعرف قدرها ولم نحسن تدبيرها

(الاول) ـ لاتذكّرنا ناشدتك الرحم بسيرة الآباء والاجداد ولا تقل انهم فازوا بجمع الأموال وحيازة الغنى فلقد قنعوا بالقليل ورضوا بالتافهِ وظنوا انهم جمعوا الكثير ونالوا العظيم فما أصغرَ همتهم وأكبر غفلتهم ولو كنا مكانهم فى تلك الازمان لأريناهم كيف تُجمع الاموال وتُكتنز الكنوز . وماذا تقول فى عقول قوم كانت رقاب المصريين وأموالهم بين أيديهم طوع اشارة من اشاراتهم ولفتة من لفتاتهم ثم يكتفون منها بالخسيس الضعيف ويتركون لهم هذه الملايين من الافدنة يتمتعون بها اليوم دوننا .

ومن كان يتصور من آبائنا وأجدادنا أن عمد الفلاحين الذين كانوا في أيامهم كالانعام لا يعرفون ماهى الحياة وماهى الدنيا قد أصبحوا يتمتعون دوننا بالاموال ويزاحموننا فى المجالس . أليس ذلك من تفريط السلف وبؤس الخلف

(ثامنهم) ـ إيَّاكَ أن يجرى لسانك بسوء فى ذكر المصريين والفلاحين واحذرْ أن تعوّده نفسك فانه غير لائقٍ بنا على مايظهر لى الآن

(الاول) ـ ولِمَ ذلك حرسك اللهُ ومتى سمعنا بهذا . وماذا لقينا من الجميل عند المصريين حتى نذكره لهم بغير القدح والذم وماذا رأينا من حسناتهم حتى يقتضى علينا الاغضاء عن سيئاتهم ولكن لعلك تريد لأختك أنت أيضاً مصرياً أو فلاحا للتشرف بمصاهرته

(الثامن) ـ لا وانما سمعت غير مرة من أحد المشتغلين منا بالسياسة ان مصلحتنا تقضي علينا الآن بالالتجاء الى التودد والانعطاف نحو المصريين ليتعلقوا بأذيالنا وتنطلق ألسنتهم بشكرنا وحمدِنا فاذا تسامع الاجانب بذلك اضطروا الى احترام مقامنا وإجلال قدرنا ليقودوا المصريين بقيادنا وأنتم تعلمون ماوراء انتفاع الاجانب بنا

من انتفاعنا بجاههم فى هذه الايام التى لا تنبع موارد الحكومة إلاَّ من بين أصابعهم

(الرابع) ـ أنا لا يتسع عقلى لمثل هذه السياسة العقيمة ولا ينشرح صدرى لأظهار التودد والتعطف لهؤلاء المصريين ولو كان للاحتيال والخداع وما أخالف طبعى ولا أكاف نفسى فى هذا الباب غير ماألفت والأصوب أن نقصر التودد والتعطف على الاجانب أنفسهم فهم أحق بالمحبة والولاء وأَولى بالمدح والثناء · ولالزوم لان نتوسط لهم بالمصريين فنذل للأذلاء ونخضع لأهل الخضوع . ولولا المنافسة بين آبائنا واجتهادهم فى سلب بعضهم لَمَا كنا وصلنا الى هذه الحال ولا احتجنا الى طلب المال

(الخامس) ـ أنا لا أحب ان يتشعب بنا الكلام الى ذكر ما كان بين الآباء من المنافسات خشية تحريك مافى القلوب من الضغائن والاحقاد وليس منا مَنْ يكاد يملك نفسه عند ذكر أفعالهم خصوصا مافعله والدك بوالدى وما انتزعه من أموالنا بالظلم والعدوان ولا يغيب عنكم ماعسى أن يجرّه اتساع الحديث فى هذا الباب من المكروه

(أحد الاجانب) داخلا يقول للاول ـ لقد جئت لمولاى الامير

بأنفَس اختراع فى نهاية القرن ودونك الرسم فانظرْهُ وتأملهُ بإمعان فإنك لا تجد مثله فى الابداع والاتقان وهذا رسمها على الورق فما بالك بهيئتها وهى تجرى فى الطرق وقد شهد كل من رآها بأنه لم يشاهد مركبة كهربائية على مثل هذا الطرز الى اليوم وحسبُك أن المعمل لم يصنع من جنسها الا اثنتين أخذ البرنس «هوهلوهنستين» من أمراء ألمانيا واحدةً وهذه هى الثانية جئت لك برسمها يامولاى لتأمر بأمرك . وقد سعى دولة أخيك ورأى سعياً طويلاً ليلاحظ هذا الرسم بعينيه ويعلم باسم المعمل فلم أمكّنه من ذلك وضننت عليه به لعلمى أنه يريد أن يسبقك الى اقتنائها ويفخر عليك بها وأنا أفضلك عليه تفضيلاً عظيماً

(الاول) ـ انى أعلم حسن عنايتك بى وأشكرك عليها انما أرجوك التعجيل باحضار هذه المركبة فقد أعجبنى رسمها جدًّا واخبرنى فى أَى ميعاد يكون حضورها

(الاجنبي) ـ مسافة الطريق يادولة الامير

(الاول) ـ الاحسنُ أن تقصر المسافة بارسال تلغراف مكان الخطاب فى طلبها من المعمل

(الاجنبى) ـ سمعاً وطاعة . وهذا بيان الثمن ألتمس منك

تكليف الخاطر والتوقيع عليه

(الاول) ـ ها هو التوقيع وقل لى عن مقدار الثمن بالتحقيق

(الاجنبي) ـ مقدار الثمن شيء ضعيف بالنسبة الى هذه المركبة الثمينة وهو على التحقيق تسعة آلاف وخمسمائة وستة وثلاثون فرنكا

(الاول) ـ لا بأس وانما لى عندك رجاء وهو أن تزيد فى مقدار الثمن اذا سألك أخى عنه وقل له انى اشتريتها بخمسة عشر ألف فرنك

(الاجنبي) ـ على العين والرأس ولقد كنت منصرفا على هذه النية من غير أن تكاشفنى بذلك ولكننى سأقول له انك اشتريتها بأربعة عشر الف وسبعمائة واثنين وأربعين فرنكا على التحقيق

(الاول) ملتفتاً لقرنائه ـ أنا على يقين من أن أخى يُجنّ جنونه حين يبلغهُ هذا الخبر فلا يهدأ له بال حتى يقترض مبلغاً جديداً من المال ليشترى منه مثل هذه المركبة . وذلك دَيدنُه كما تعلمون من قديم كلما رآنى استحدثت شيئاً من مقتنيات الزينة جرَى على أثرى فيه وتشبّه بى وكلّف نفسَهُ ماليس فى قدرته ليلحق بى فى ميدان المنافسة والمباهاة حتى وصلت به الحال الى الخروج عن الثروة والدخول فى الدعاوى وما أظن ان يبقى عنده أثر من جميع ملكه وعقاره بعد شهر أو شهرين

(الثالث) ـ وماذا يصنع المسكين بعد ذلك

(الرابع) ـ مابقى له الا ان يعيش من مال المرتب وحده

(الثالث) ـ ألم أقل لكم أن ليس لنا فى آخر أمرنا الا هذا المرتب فهو وحده المال المصون لنا وهو الكفيل بسد حاجتنا وقوام معيشتنا ولا رأى عندى أصوب من السعى لطلب الزيادة فيه فهلموا نعقد بيننا اتفاقاً على المطالبة بحقوقنا فى هذا الباب

(الخامس) ـ أما سمعتَ ان الاعتماد على المرتب وحده من ضعف الحيلة ووهن الرأى

(الثالث) ـ ومالك لا ترشدنا الى طريق آخر بقوة حيلتك وحسن رأيك يقوم بأود معيشتنا فى الحال ولا نعدم نفعه فى الاستقبال

(الاول) ـ أنا أراه فى المضاربات

(الرابع) ـ وأنا أراه فى تأجير أسمائنا للشركات

(الخامس) ـ وأنا أراه فى خدمة السفارات

(السابع) ـ وأنا أراه فى التزوج باليهوديات

(السادس) ـ أو المصريات

(الثامن) ـ لا بل أراه فى ان نقوم الساعة الى غرفة المقامرة

(الجميع) ـ أحسنتَ أحسنت بعد أن نتزود من غرفة المعاقرة ٠

قال عيسى بن هشام — فقاموا وقمنا على آثارهم نشاهد ما يجرى من بقية أفعالهم فدخلوا الى غرفة المدام فتعاطوا من أقداح الراح ما شاؤوا ولم يتعدّ حديث المنادمة بينهم حد المناضلة والمفاخرة او المراهنة والمسابقة هذا يراهن صاحبه أن يشرب من الخمر زجاجة بأكملها . وذاك يفاخر بقوة أعضائه فيدّعى انه يرفع المائدة بيد واحدة . والآخر يزعم أنه يضغط على قطعة الريال فتلين بين أصابعه والثالث يقسم انه ركب الناقة يوماً فوثب من فوق ظهرها فنزل عنها الى الارض واقفاً على رجل واحدة . والرابع يحلف أنه يكلم حصانَهُ فيفهم عنهُ كلامَهُ والخامس يكرر القول بأن خليلتهُ أعلنت له بأنها لم ترَ فى باريس راقصاً يحسن الرقص مثله . الى غير ذلك من هذا القبيل

ولما انتهى أربهم من غرفة الشراب انصرفوا منها الى غرفة القمار فاستداروا بمائدة اللعب وأغرقوا فيه ثم لم تمض ساعةٌ من الزمن الاّ وقد جرى لهم فى هذا المجلس ما يجرى من فراغ الجيوب واقتراض القروض ورهن الحلىّ وطلب الاسعاف من اللاعبين أولاً ومن الخدم ثانياً ثم لم يلبثوا أن تولد بينهم من الشقاق والنزاع ما خشينا معه سوء العاقبة وقبح الخاتمة . فأسرعتُ بالخروج أطلب النجاء . والباشا فى أثرى يضحك القهقهاء . فقلت له وأين تسكابُ الدمع

وتنفّسُ الصُعَداء . قال جَلَّ الخطب عن الحزن والبكاء . ووجب الأخذ بطريقة « ديموقريط » من بين الحكماء . ورؤيةُ الدنيا بعين ذلك القائل من الشعراء :

هذى الحياةُ رواية لمشخّص فالليلُ سِترٌ والنهارُ الملعبُ

***

قال عيسى بن هشام ـ ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة. والمجالس المعدودة . قلت للباشا قد آن ان نعود الى ما كنافيه من الانفراد والاعتزال . ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال . فأجابني وهو يظهر التوقف . ويبدى التأفف : ما بالك تقطع علىّ الطريق . فى البحث والتحقيق . ومالك تحرمنى من السعى والاجتماع . للاطلاع على العادات والطباع . ولِمَ تختار أن نقتصر على مافى الكتب والاوراق . لمعرفة الآداب والاخلاق . فنترك النظر . للخبر . واللمس . للبس . والممارسة . للمقايسة . وأىُّ الطبيبين أدقُّ صنعا . واكثر نفعا . الطبيبُ الذى يقتصر على الكتب فى درس الاعضاء والاحشاء . أم الطبيبُ الذى يدرسها فى تشريح الجثث وهى تسيل بالدماء . لاسيما وقد زال عنى فى هذه المدّة . ما كان يعترضنى من الغضب والحدّة . وانقلب العسر من امرى يسرا . وغدا التقطيب بحمد

الله بشرا . وصرت لا اقابل عيوب الخلق . بغير الحلم والرفق .
وتعلمتُ ان اتحلّم . ولا اتألّم . واتبصّر . ولا اتحسّر . واتدبّر . ولا
اتضجّر . فأنا اليوم اتفكّهُ بمخالطتهم . واتروّح بمباسطتهم . فلم يبق لك
من عذر وجيه . ترتضيه بعد ذلك وترتجيه » . ومازال الباشا يجرى
على هذا النمط فى الشرح والبيان . ويأخذنى بالبرهان فى اثر البرهان .
حتى ملكنى بسلطان حجته . وأنزلنى على حكم رغبته . وكنت دُعيتُ
فيمن دُعى من الناس . الى وليمة عُرسٍ من اكبر الاعراس .
فقلت لهُ عندى اليوم حدّ الكفاية . فى بلوغ الغاية . فهلمّ الى المحفل
الذى تحتشد فيه المحافل . والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل . وسرتُ
به منذ أرخى الظلامُ من سجوفه وأستاره . وبدأ فى الدور الاول
من أدواره . فما قرُبنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هنالك نهاراً
يتألق . وفحمةَ الدجى جمرةً تتحرّق . فدخلنا الى ساحة كأنها
مدينة . تبرجت فى يوم الزينة . فوقفنا هُنيهةً فى وسط المُزدَحم .
لانجد موضعا للقَدم . حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب . من
ذوى العلامات فى الثياب . فدَسَّنا بين جماعة لم نعرف منهم أحدا .
ولم يحسنوا لتحيتنا ردا . فجزيناهم على ذلك بغضّ الطرف . وأقمنا بينهم
لا ننطق بحرف . ثم أخذنا نتلمّس بأعيننا صاحب الدار . فلا نهتدى

له على قرار . كأنما صنعت الوليمة فى غيبته . وأقيم الاحتفال انتظاراً لا وتيه . أو أننا أخطأنا العرس الى سواه . واشتبه علينا مقرّه ومثواه . فهممنا بالقيام والمسير . لولا ان اشار لنا بالسلام مشير . فتبيناه صديقاً لنا من الخُلَصاء . فى جمعٍ من الفضلاء والادباء . فقصدناهم فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحبا . وجلسنا معهم نجتنى ثمر الحديث يانعاً ورطبا . وعلمنا منهم ان رب البيت فى ذهول لا يدرك ما يذَرُهُ وما يأتيه . وصاحب الدار لا يدرى الليلةَ بالذى فيه . وأنه لا تثريب عليه ولا لوم . فهو مشغول بتحية كبار القوم . ممن لم يخالطهم قبل اليوم

(الباشا) - وهل يدعو الناسُ الى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل

(احد الاصدقاء) - نعم يدعوا الناسُ الى أعراسهم كلَّ من علالَهُ صيتٌ واشتهر له اسم من الامراء والكبراء والعلماء فمنهم من يجيب الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته بصاحب العرس . وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعى رجاءً ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عَمَد الزينة وأساطين الاعراس

(الباشا) - وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله

(الصديق) - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء

الكبراء والعلماء لبيته. وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الاعراس وينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لاغرض لهم منها سوى ذلك وحده وفيهم مَن وصل به حب الشهرة والفخفخة ان أنفق في إقامة العرس جميع مالهِ ثم بقي عليه من الدين ما أخلّ بنظام معاشه. وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس مالهِ في إقامة عرس كبير ثم قسم دفاتر تجارته الى شطرين شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من اصناف التجارة وأجناسها وشطر يتضمن أسماء مَن حضر العرس من الامراء والكبراء وقلّ ان تشتري منه صنفاً الا ويذكر لك منهم اسماً يُقسم بحياته ورأسه ان الصنف جيّد والثمن في جنبه هيّن

(الباشا) ـ ما كنتُ أعهد ان الاعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت اعهدها انها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه واصدقائه ومشاركتهم له في صفوه وهنائه ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء

(الصديق) ـ ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الاعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم

(الباشا) ـ اني اعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة اشخاص اجتمعت بهم في مجلس للعلماء

(الصديق) ـ نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحَمَلة الشريعة وأئمة الدين

(الباشا) ـ ومالي أَراهم يسرعون ويهرولون في خروجهم وما الذي وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل وليت شعري مالذي أزعجهم وأخرجهم . أنَزَلَ بالدين مكروهٌ أحلَّ بالاسلام خطبٌ أحَدَثَ بين الناس حادثٌ بدعةٍ يستدعى قيامهم للامر بالمعروف والنهى عن المنكر

(الصديق) ـ لم يحدث من كل ذلك شيء ولم يعرض لهم عارض وإنما هي عادة لهم ألفوها في الولائم والمآدب اذا انتهوا من غسل ايديهم بعد تناول الطعام بادروا الى الخروج من العرس فتراهم عند قول احد الظرفاء « يد في الكباب . ورجل في الركاب » والذين يعتذرون لهم يقولون انهم علماء عاملون بقوله تعالى : «فاذا طَعِمتُم فانتَشِروا » وانهم يرون سماع الغناء مكروها في الدين فلا يجلسون في العرس بعد الطعام خشية ان يبتدىء الغناء فيحلّ بهم المكروه

(الباشا) ـ ومَنْ هذا الشيخ المتخلِّفُ عنهم القادمُ علينا

(الصديق) ـ هذا الشيخ المتخلف عالمٌ من افاضل العلماء ونبهائهم وهو قادم علينا للجلوس معنا فان فينا مَن يأتنس به ويصبو الى مجالسته

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه ـ أرجوك ان تسامحنى فى فضول القول فلا صبر لى عن الاستعلام والاستفهام خصوصاً إن كان فى الأمر مايخص الدين فقد قيل لى ان السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجلس الغناء فهل لك ان ترشدنى الى القول الأصح فى هذا الباب وما الذى يجب ان يؤخذ به وكيف انفردتَ أنت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الغناء ان كان مكروهاً

(الشيخ المتخلف) ـ الكلام فى هذا الباب طويل . وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج الاّ طلب الجسم للراحة بعد الإمتلاء

(الباشا) ـ انى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك . والوقت وقت مسامرة فان أردتَ ان نقضى جانباً منه فى ماينفع ويفيد فقد أدّيتَ عليك واجباً فى الدين وجعلتنا لك من الشاكرين

(الشيخ المتخلف) ـ اعلم ان طرب الغناء أمر طبيعى راسخ فى طبيعة الحيوان . ومن الحيوانات العُجم وضوارى الوحوش ماتسمع الغناء فتحنّ اليه وتسكن به فيَضعف من قسوتها ويكسر من حدّتها وربما ذلت به رقابُها وأمكن قيادها . وهذه الفِيَلةُ وهى من أكبر

الحيوان أجساماً وأشدّها بطشاً اذا سمعت صوتاً مرنّماً أو كلاما منغّماً لم يلبث هذا الجسم العظيم ان يتمايل ترنّحاً ويهتز طرباً — ولو كان فى مواقف النيران — اهتزاز الحمامة المطوّقة على فنن من الأفنان . وهذه الإبلُ المعروفة بأنها أغلظ الحيوانات اكباداً تراها اذا بَرَاهَا السُّرَى ونهكَهَا التعبُ وأهلكها الظمأ فتغنّى لها الحادى ذهلتْ فى الحال عما أصابها وتعللتْ بالغناء عن مناهل الماء وهى على الخِمس فى ظِمئها أو العِشر ونشطتْ به تستعيد القُوَى لاستئناف السُّرَى . وطالما شاهد المشاهدون هَوامّ الارض ودوابّها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب فى مسيرها وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتّباع أنّ صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأجحارها للمسير خلف الجيش . ومن الروايات العتيقة أن احد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ بحر يبغى الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله اليه فجلس يلهّى نفسَهُ بالغِناء واذا بدَرْفِيلٍ قد شقّ امواج البحر يتدنّى من صاحب الصوت فلم يزل فى تدنّيهِ والفيلسوف فى تغنّيهِ حتى حاذَى الشاطئ وسكن يستمع فأيقن الفيلسوف انه استهواه

بتأثير الغناء وذللهُ بقوة الطرب فاٴمتطاهُ يسخّره كيف شاء . فوق عباب الماء . كأنه مطية وَجناء . تسير فى عرض البيداء . على توقيع الحداء . وحكاية ابراهيم بن المهدى فى اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة

هـذا بعض مايقال عن تأثير الغناء فى الحيوانات العَجْماء مع ضعف إدراكها وكثافة احساسها ونقص خلْقها فما بالك بتأثيره فى الانسان وهو أسمَى الحيوان رتبةً واكمَلُهُ خلقةً وأعظمُهُ إدراكا وأصفاهُ جوهراً وألطفُهُ روحًا

والغناء فى تعريف قوم من الفلاسفة فنٌّ يُقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفهِ على طريقة ترتاح لها الأُذن فتهتزّ له نفوس ارباب المدارك العالية والامزجة الصافيه وهو القوّة المساعدة لقوّة النطق فى التأثير على السامع . وكان القدماء يعتبرونه لغةً عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم . وكان لابد لطالب الفلسفة عندهم من الاحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات . وقد عبّر عنه الحكيمان الكبيران فيثاغورس وهرمز أنه علمُ التنسيق لكل شئ ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أرْمُونيا » ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل وكلهم مجمعون على ان لا شئ فى

العالم يعادل تأثير الغناء فى تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات . وعندهم أن الذى لا يتأثر منه لا بدّ أن يكون به نقصٌ فى الخلقة . والغناء مغروسٌ فى طبنة الانسان منذ نشأ فى حجر الطبيعة ومنذ استهلّ فى المهد باكياً فلا يسكن الاّ به ولا يُراح عنه الا بتطريبه . وفضل تأثير الغناء فى النفوس على تأثير الكلام كفضل الشعر البليغ فى لغته على ترجمته كلاماً غير موزون الى لغة أخرى

والوقائع كثيرة جمة فى التاريخ تشهد بقوة تأثير الغناء . منها ان أهل مدينة اسبرطة كانوا فى فتنة اشتد لهيبها وعظم شرها فعمد جماعة من الموسيقيين الى مكان الزعماء القائمين بأمرها فما زالوا يغنُّونهم حتى طربوا فصفت أرواحُهم ورقتْ نفوسهم ولانتْ عريكتهم فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت . وقام صياح الطرب مقام صياح الشغب . ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد فى الجند فاذا انعقد جَمعُهم أغرى العدوّ بهم منْ يغنى فيهم بلَحنٍ لهم معروف يتغنى به الرعاة فى قُلل الجبال فيشتعل فى نفوسهم لهبُ الوجد وتهيج فيهم ثائرة الحنين وينزع بهم الشوق الى منازلهم فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ويذهب بهم على وجوههم

وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤساؤهم الحكم بالاعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء . ومنها حكاية الحكيم أبى نصر الفارابى مع سيف الدولة بن حمدان حيث أضحك اهلَ مجلسه وأبكاهم ثم أنامهم وتركهم . وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون الى تنسيق اصواتهم فى الخطابة وتتبع النغم لتأثير القول فى النفوس وربما استصحب بعضهم معه احد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب فيجعله بجانب المنبر حتى اذا وجده خرج عن النغم أو شذّ نبهه بصوت الآلة فيرجع الى الأصل . ولسنا نجد بين الأمم امة فى بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها الا وعندها الغناء فى الجيش آلة من من آلات الحرب تعين على ممارسة الاهوال وتثير الى منازلة الحتوف . وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون ان الغناء يَشفى من الامراض والاسقام وكان « ايسمين » فى مدينة تيب يزعم أنه يشفى من عِرق النَّسا بصوت الناى وكان «هوميروس» و «جالينوس» و « بلوتارك » من بعدهما يؤكدون ان الغناء يشفى من الطاعون ومن داء المفاصل ومن نهش الافاعى . وقام اليوم جماعة من كبراء الاطباء فى اوربا يقررون بعد كثرة التجارب ان الغناء دواء نافع لكثير من الامراض وأطلقوا عليه لفظة « مِلُوترابيا » يعنى العلاج

بالطرب كما قرروا من قبل «الهيدر وترابيا» وهى المعالجة بالماء و«الإليكترو ترابيا» وهى المعالجة بالكهرباء وقد جرّب أطباء فرنسا تأثير الغناء على وظائف الاعضاء بآلةٍ حاسبةٍ فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم وفى حركة التنفس سرعة مقبولة. وذهب بعضهم أن للاخشاب التى تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل اتخاذ الناى من خشب الكينا فان سماعه يشفى من الحمى. وبلغت العناية بهذا الفن فى المانيا انهم جعلوه درساً من الدروس الاساسية يبتدئ به التلامذة ابتداءهم بدروس الهجاء وينتهون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة

وجماع القول فى هذا الباب من جهة البحث والنظر ان الخالق جلت عظمته قد جعل من فضلهِ ونعمتهِ على الانسان لكل حاسة لذةً. فلذّةُ النظر فى تناسق المرئيات وترتيب أجزائها وذلك هو الجمال. ولذةُ الذوق فى ائتلاف الطعوم وذلك هو العذوبة. ولذةُ الشم فى لطف الرائحة وذلك هو الطِيب. ولذةُ اللمس فى تناسب أجزاء الملموس وذلك هو النعومة. ولذةُ السمع فى اتساق الصوت وحركة توقيعه وذلك هو الغناء

واما القول فيه من جهة الدين فقلّ ان تجد ديناً من الاديان فى

انحاء العالم الا ويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتنغيم لما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الارواح للتجرد والاتصال بالعالم الروحانى . وما كان الدين الاسلامى وهو دين الأذان لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته وشأنه فى فطرة الانسان على مابينته لك . وناهيك بما ورد فى الخبر الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع نسوة يتغنين فى وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهن . وقد استقبله عليه السلام نسوة من الانصار عند مقدمه من احدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهن يتغنين على الإيقاع بقولهن:

طلع البدرُ علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكرُ علينا ... ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضا . وهذا عمر بن الخطاب على المعروف من غلظته وشدته فى الدين قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل استعاد ومزح: رُوى عن أسلمَ مولاه قال مرّ بى عمر رضى الله عنهُ وأنا وعاصم نغنى فوقف وقال أعيدا علىّ فأعدنا عليه وقلنا أيّنا أحسن صنعة يا أمير المؤمنين فقال مثلكما كحمارَى العبادىّ قيل له أىُّ حماريك شرّ قال هذا ثم هذا فقلت له أنا الأول من الحمارين قال أنت الثانى منهما . وكان عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول

الله وصحبته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به

وروى ان معاوية قال لعمرو بن العاصي امضِ بنا الى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فدخلا اليه وعنده من المغنين سائبُ خاثرٍ وهو يلقى الغناء على جوارٍ لعبد الله فأمر عبدُ الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائبٌ مكانه وتنحّى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاويةُ عمراً فأجلسهُ الى جانبه ثم قال لعبد الله أعدْ ما كنت فيه فأمر بالكراسىّ فألقيتْ واخرج الجوارى فتغنّى سائبٌ بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التى كادت ونحن على مِنًى	تحُلّ بنا لولا نَجاءُ الركائبِ
ومثلكِ قد أصبَبْتُ ليستْ بكَنَّةٍ	ولا جارةٍ ولا حليلة صاحبِ

وردّده الجوارى عليه فحرّك معاوية يديه وتحرّك فى مجلسه ثم مدّ رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو اتّئذ يا أمير المؤمنين فان الذى جئتَ لتلحاهُ أحسنُ منك حالاً وأقلُّ حركةً فقال معاوية اسكتْ لا أبا لك فان كل كريم طروبٌ

ودخل المغنّون منزل سُكَينَةَ بنت الحسين سبط رسول الله فأذنتْ للناسِ إذناً عاماً فغصّت الدار بهم وصعدوا فوق السطح

وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم انهم سألوا حُنَيْنًا ان يغنّيهم صوتَهُ الذى أوله : هلاَّ بكيتَ على الشباب الذاهبِ . فقال لهم ابدؤا أنتم فقالوا ما كنا لِنَتقدمك ولا نغنّى قبلك حتى نسمع هذا الصوت فغنَّاهم إيَّاه وكان من أحسنِ الناس صوتًا فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه فسقط الرواق على مَنْ تحتـه فسلمُوا جميعًا وأُخرجوا أصحّاء ومات حنينٌ تحت الهدم فقالت سكينة عليها السلام لقد كدّر علينا حنين سرورَنا

وذكر الدلاَلُ المغنى عند عبد الله بن أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم فقال انه كان يُحسن :

لِمَنْ رَبْعٌ بذات الجيـ ش أَمسَى دارسًا خَلَقَا

ثم استقبل ابنُ أبى عتيق القبلة يصلى فلما كبّر سلّم ثم التفتَ الى أصحابه فقال اللهم انه كان يُحسن خفيفَهُ فأما ثقيلُهُ فلا ـ اللهُ أكبر

ولقىَ ابنُ أَبجَرَ عطاءَ بن أبى رَباحٍ وهو يطوف بالبيت الحرام فقال اسمعْ صوتاً للغريض فقال له عطاء يا خبيث أفى هذا الموضع فقال ابنُ أبجرَ وربِّ هذه البَنِيةِ لَتَسمعنَّهُ خِفْيةً أولأَشيدَنَّ به فوقف له فتغنى :

عُوجى علينا ربَّةَ الهودجِ إنكِ إنْ لا تفعلى تحرَجى

أنّى أتيحت لي يمانية احدى بني الحرث من مذحج
نلبث حولاً كاملاً كلَّهُ لا نلتقي الا على منهجِ
في الحج إن حجت وماذا مِنًى وأهلُهُ إنْ هي لم تحجُجِ

فقال له عطاء الكثيرُ الطيبُ ياخبيثُ

وولىَ قضاءَ مكة الاوقصُ المخزومي فمارأى الناسُ مثله في عفافهِ ونُبلهِ فانهُ لنائمٌ ليله في جناحٍ لهُ إذ مرَّ بهِ سكران يتغنى بصوت للغريض فأشرف عليهِ فقال ياهـذا شربتَ حراما وأيقظتَ نياما وغنيت خطأً خُذْهُ عني فأصلحهُ لهُ وانصرف

وكان لأبي حنيفة رحمهُ الله جارٌ بالكوفة يغني فكان اذا انصرف وقد سكر يغني في غرفتهِ فيسمع أبوحنيفة غناءهُ فيعجبه وكان كثيراً مايغني :

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسِدَاد ثغرِ

فلقيَهُ العَسَسُ ليلةً فأخذوه وحُبس ففقدأبوحنيفة صوتَهُ تلك الليلة فسأل عنه من غدٍ فأخبر فدعا بسوادِهِ وطويلتهِ فلبسهما وركب الى عيسى بن موسى فقال له ان لي جاراً أخـذهُ عسسُك البارحة فحُبسَ وماعلمتُ منهُ الاخيراً . فقال عيسى سلّمُوا الى أبي حنيفة كل من أخـذه العسسُ البارحـة فأُطلقوا جميعاً فلما خـرج الفتى دعا به

أبو حنيفة وقال له سرًّا ألستَ كنت تغنى كل ليلة :

أضاعوني وأى فتي أضاعوا . فهل أضعناك . قال لا والله ولكن أحسنتَ وتكرمتَ أحسن الله جزاءك قال فَعُد الى ما كنت تغنيه فانى كنت آنسُ به ولم أرَ به بأساً قال أفعلُ ان شاء الله

هذا جملة ما يُذكر في طرب الغناء طوّاتُ فيه واسهبت ليتبين لك منهُ القول الراجح والوجه الصالح

(الباشا) —

تعالَى اللهُ ماشاءَ وزادَ اللهُ إيمانى

ماهذا الذى أراهُ من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق وما هذا الإبداع والتفنن فى أطراف المعقول والمنقول وما هذا التضلع فى علوم الاولين والآخرين . ومَا عهدتُ قبل اليوم فى العلماء من اجتمع لهُ مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة الاطلاع فى تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها يتنقل فى تقرير البرهان وشواهد البيان تنقّل النحل على جَنى الازهار فيخرج بنا من التاريخ اليونانيّ الى الرومانيّ الى الاوربيّ الى الاسلاميّ . فعجباً له أأعجميٌّ وعربيّ . وشرقيّ وغربي . وكيف انفردتَ أيها الشيخ عن بقية اخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم في طريقهم فتقف عند حد العلوم

الشرعية والأقوال الفقهية ثم خالفتهم الى التوسع فى العلوم الدنيوية والمباحث العقلية

(الشيخ المتخلف) — لم أخالفهم الا لأن العلم حقٌّ شائع فى بنى الانسان ونور ساطع يستضيء بهِ جميع الأنام فلا يختص بهِ أهل إقليم دون إقليم ولا أهل ملة دون ملة ولا يقف الانسان منه عند حد. ومَنْ طلبَ العلم وارتاحت له نفسهُ لم يمنعهُ تخالف اللغات وتفرّق الاجناس عن اجتناء ثمرهِ من أيّ لسان كان وفى أيّ أمة كانت وفى أيّ عصر من العصور وما فى الأديان دينٌ يبعث أهلَه ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأى وجه من الوجوه مثل الدين الاسلاميّ ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل فاقتصروا فى طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم فى ذاته واعتقدوا أنهم على الهدى ومَنْ سواهم فى ضلال

(الباشا) — قُلْ ماشئت فى تكاسل علماء الدين الاسلاميّ وسوء تراخيهم واشتغالِهم عن العلم لا بالعلم . ولقد بلوتُ مجلساً لهم من مجالسهم ضاق منهُ صدرى وعِيلَ صبرى ولا ازال كلما تذكرتهُ جاشَ بى الهمُّ والغم وتملكنى الاسفُ والحزن. وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنتَ كل الاحسان بتوسّعك فى الاطلاع وتبحّرك فى طلب العلم وتعلقك بأسباب العلوم الاوربية . ولكننى مع ذلك

لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع وتستدرجهم الى الخلط والخبط وقلَّ فى الناس من يحكم نفسَهُ للتوسط فى الامور والاعتدال فى المطالب والوقوف عند الحد ولست أدرى الى اليوم يعلم الله أىّ العالمينِ أضلُّ سبيلاً وأسوأ مصيراً العالمُ الذى يتخبط فى ظلمات الخرافات ويضرب فى تيه الترّهات ويغوص فى لجج الاباطيل بلباس الدين أم العالم الذى يُوغل فى علوم الاوربيين ويأتمّ بسنة المخالفين للدين ويغترّ بتمويه المموّهين فيضلّهُ الله على علم

(الصديق) — ليس هذا وقت الجدال فى تلك المباحث الدقيقة والتفتُوا بنا الى سماع الغناء قليلاً فقد احتشد له المغنّون

(الباشا) ملتفتاً — نعم أصبتَ . وهل لك ان توفق لى بين حالة المغنّين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء وبين ماسمعتهُ آنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال فانظرْ اليهم تجد أحدهم يمزح ويقهقه والآخر يتثاءب ويتمطّى وهذا يبصق يمِيناً ويمخط شمالاً وذاك يصيح بأعلى صوته القهوةَ القهوةَ وتأملْ فى هذا الواقف منهم فوق المنصة على رجل واحدة وبيدهِ الرجل الأخرى يخلع منها نعلهُ فى وجوه الحاضرين . وأين ماينبغى أَن يكون عليه المغنى من سكون

النفس واجتماع الخاطر وانشراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء واستهواء النفوس اليهِ

(الصديق) - لا تؤاخذهم بما هم فيهِ فانهم نشأوا فى أمة يرى السوادُ الأعظم فيها ان صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن فى ممارستها حطة ونقصاً فصغرتْ لذلك نفوس المغنّين وهانت عليهم صناعتهم ولم يروا فيها سوى انها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات فهم والحدّادون أوهم والبنّاؤون سواء بسواء وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه وصاروا يؤدّونه كما يتفق لا كما ينبغى وكما يجىء لا كما يُرضى. ولا يغيب عن فطنتك انه لا بدَّ للمغنى من أن يثق فى نفسه بتأثير غنائه فى نفوس السامعين حتى تثور فيهِ نشوة الطرب ويتبادل معهم لطف الانفعال فتتصل القلوب وتتجاذب الارواح وتصعد بهِ نفسهُ فى مراقى الفن وتسمو بهِ فى صناعته الى مدارج الكمال والا كان المغنى اذا غنّى فى غفلة السامع واشتغالهِ عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً أو يسرج للأعمى سراجاً فيحلّ به من التوانى والفتور ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة ويمحو بهجة الفن. وانك لتحقق صدق ما اقول اذا نظرتَ مرة نظرةً الى هيئة السامعين فى هذا

المكان . فعن يمينك جماعة من الاعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون بإشارة تحية او ايماءة تعطف فهم لاينفكون طول ليلهم فى قيام وسلام للتزلف الى الكبراء والحكام وحديثهم لاينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم . وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون ابداً من المناقشة فى صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون برهة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الاحكام ولا يترك المحامون القضاة الا بعد أن يحتالوا على استنفاد ماعندهم من الافكار والآراء فى الوقائع المختلفة والنقط المشتبهة لينتفعوا بها ويستندوا عليها فى مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح مالديهم من المشاكل والدعاوى . ومن قدامك طائفة من الامراء والحكام لاهمَّ لهم الآن يجتلبوا توقير الحاضرين واحترامهم بالتأنق فى الجلوس والتكلف فى الشمائل والانتفاخ فى الثياب والفتل فى الشوارب أجسامهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة التماثيل والاصنام ــ فاسألوهم ان كانوا ينطقون ــ ولئن نطقوا بكلام فانما يدور على ان اليوم كان شديد الحر وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل . ومن خلفك ثلة من الاحداث . لم تهذبهم الاحداث . وشبان لم يربهم الزمان . مرمى الغاية عندهم ان

تكون ملابسهم على الزىّ الجديد . وأن تُفرَغ اجسادهم منها فى قالب من حديد . فهم لا يتحركون حركة الا بألف حساب . خشية ان ينفرط نظام الثياب . فان قعدوا فكالقاعدين للمصوِّر فى حفظ الاشكال والاوضاع . وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الاجذاع . ولئن تجاوز حديثُهم حديثَ الملابس والازياء . اشتغلتْ ألسنتهم بذكر الغلمان والنساء . ورووا عن ابن فلان أو بنت فلان . ماتنقبض منه النفوس وتقشعر الابدان . ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين مَن يلتفت الى سماع الغناء ويتفرغ له الا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم . فكيف يتيسر للمغنين فى هذا المقام أن يتقنوا فى عملهم أو يتفننوا فى صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن

قال عيسى بن هشام ــ وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مرّ السحاب . فانقضّ على الواقفين عند الباب . كأنه بارقة شهاب . أو نازلة عذاب . يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين . فى صدور القاعدين والقائمين . لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حُلَّ عنه الوَثاق . أو عبدٌ من العبيد يطلب الإباق . فالتفتَ الباشا يسأل الصديق : أجدارٌ هوَى فى البيت أم حريق

(الصديق) ــ لا هذا ولا ذاك وانما جاء الخبر لصاحب البيت

بقدوم جماعة من رجال الافرنج ونسائهم

(الباشا) ـ أتراهم يريدون إقامة ألعاب افرنجية مع الاغانى العربية

(الصديق) ـ ولا هذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الاوربيين فى البلاد الشرقية يتشوفون فى مطالعتهم الآثار المصرية الى رؤية المحافل والاسواق فاذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا اليها بنسائهم واولادهم لتسلية الخاطر بدرس العادات والاخلاق

(الباشا) ـ قد تبين لى آنفاً ان صاحب العرس من أهل الصعيد فأىّ صلة بينه وبين سيّاح الافرنج تدعوه الى دعوتهم فى عرسه أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين

(الصديق) ـ هم من المدعوين لا من المتطفلين . ولا يلزم لدعوتهم ان يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم ويفقه لسانهم ولكن حضورهم فى حفلة العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ينشرح به صدره ويزهو به عنده قدره ويراه فخراً له يعلو به ذكره ومجداً للبيت يرتفع به عماده . وهو فى دعوتهم بالخيار إما ان يرسل الى بعض تراجمة الفنادق فيعطيهم عدداً من تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعوها على من يكونون فى

خدمتهم من السيّاح فيبيعها التراجمة اليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهي العامة ويعتقد الاجانب ان تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناسُ إلى أعراسهم بأثمان معينة وإما أن يترفى صاحب العرس فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية ويرغب أن يحضرها كذا عدداً من السياح فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة الى العرس فاذا شرّفوا صاحبَ العرس بحضورهم هرع الى حسن استقبالهم وبالغ في التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق منازل الامراء والكبراء ونسي كلّ من في العرس سواهم وتفرغ طول ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظرْ اليه كيف يتيه عجباً ويشمخ كبراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهم الى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهم على رؤوس العظماء والامراء في صدر المكان

(الباشا) ــ وماهذا الذي أراه في أيدى النساء يحملنهُ معهن كأنه الاسفاط فيها الحليّ لهدية العروس فهل بلغ بهنّ الكرم الى تكليف أنفسهنّ تقديم الهدايا لعروس لايعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل

(الصديق) ــ هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذنَ بها

مناظر الحرم وصور النساء في زينتهنّ وتبرّجهنّ وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادَيْنَ بها اذا رجعنَ الى ديارهنّ. وربما نُسخت منها ألوف النسخ لتباع في الاسواق الاوربية وتنتشر هناك للاستهزاء والسخرية

قال عيسى بن هشام - ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات الى الحرم. كالصاعدات الى الهرم. تقدّمَ الى صدر المكان. ونظر في الوجوه بإمعان. ثمّ دنا من طائفة الكبراء والأمراء. وقصد الأميرَ المقدَّم فيهم بلا مِراء. فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام. ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام. فقام الأمير يمشي أمام الصفوف في خيلائه. مشية القائد يوم بلائه. وفُتحَ له الباب فَفتحَ المائدة ولا فَتْحَ سعدٍ للقادسية. والمعتصم لعمورية. ومحمد للقسطنطينية. نعم ولا فتْح جدّهِ الأعلى للأقطار الحجازية. ودخلتْ في أثره صفوف الجموع. وهم في سكون وخشوع. دخولَ التقاة. للصلاة. والعُفاة. للصِّلات. ثمَّ ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل. على الحصون والمعاقل. لا بل هجوم الأَسود الضارية. على الاشلاء الدامية. والذئاب الخاوية. على الشياه الراعية. والنسور. على القبور. والذباب. على الشراب.

واشتدّ الزحام . وزلّت الاقدام . وضلّت المذاهب . واصطكت المناكب . وشخصت الاحداق . وامتدّت الاعناق . وتهدّلت الشفاه . وتحلبت الافواه . وتحركت الأشداق . وتقارعت الأطباق . وتصاولت الأيدى بالمدَى . كالظُبَى . في الوغى . والتفّت الساق بالساق . واشتدّ الهولُ وضاق الخناق ثمّ انجلت المعمعة عن شهداء النخَم . وأسراءِ البشَم . وقتلى الطعام . وصرعى المدام:

بأجسام يَحرُّ القتلُ فيها وما أقرانُهَا الاّ الطعامُ

ولعبت الكؤوس . بالرؤوس . والشّمول . بالعقول . والراح . بالارواح . وذهبت العقار . بالوقار . والبِطنه . بالفطنة . فاختلط الحابل بالنابل . والعالى بالسافل . والرفيع . بالوضيع . والامير . بالحقير . هـذا يمزح ويقهقه . وذاك يتممم ويُتهته . والآخر يقئ طعاما . وسواه يقئ كلاما . ولم نسمع بينهم من قولٍ يُفهَم ويُعقل . أو حديثٍ يؤَثر ويُنقل . الاّ ماسمعناه يدور بين الشاب متكلف متصنع . وكهلٍ مجرِّب متضلّع:

(الكهل) ـ أليس من أسوأ الأسواء وشر البلاء مانراه من حال هذا الصعيدىّ صاحبِ العرس كيف اعتزل سنة آبائه واجداده وانسلخ عن مألوف العادة فى قومه ودياره وطفر طفرة واحدة الى

العمل بعادات الغربيين والتقليد لبدع الافرنج فى الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملاءمتها لطبعه وكيف لا يُرثَى لحال هذا المسكين وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لاقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه فهو فى حيرة وذهول لا يدرى مايصنع ولا يعلم مايفعل فى وسط هذا السوق القائم والزحام الهائل وانظر الى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصبوب عليه من أغلب الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم مايفوق الطاقة وارتكب مايخالف العادة ثم اشهد معى بأنه أساء الى نفسه وجنى على أهله

(الشاب) - ما أراه الا انه أحسن صنعاً وأجاد عملاً وأخذ بالسنن الأرشد فى التحلى بشعار المدنية والتعلق بأسباب الترقى فى الحضارة وقد آن أن يستوى أهل الارياف بأهل المدن فى السير على النهج الغربى لهوا كان ذلك أوجداً وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة الافكار القديمة فترتفع الامة وتنتفع البلاد

(الكهل) - أىّ نفع يرتجى لاهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدُّور . ولئن امتد الزمن قليلاً على عمد الارياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم الى البلاد الاوربية ثم يهجرون مساكنهم ومساكن

آبائهم ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق - لم تلبث الاموال أن تذهب ضياعاً والدُّورُ أن تمسي خراباً وأن تصبح المزارع بأيدي الاجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الاطيان وزراعة الاراضي كما يقلدونهم هم في باطل المدنية وزخرف معيشتها

(الشاب) - أظنك كنتَ تريد ان يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدن بين الاحواض والمستنقعات في قرية أبيه . وبين الاوباش والهمج من فلاّحيه ومزارعيه . فيستبدل المقاصير بالخيام . والكهرباء بالمشاعل . و « البوفيه » بالسماط . والصحاف بالقصاع . والأَباريق بالجرار . و « الديند » بالدفين . و « المايونيز » بالعصيد . والهليون بالفول وعشّ الغراب بالحلبة . و « الموستاردا » بالمشّ . و « المربّى » بالرطب . و « المانجو » بالدّوم . و « الكريز » بالجميز . و « الشمبانيا » بالمزهّر . و « الكاب » بالحليب . و « الكنياك » بعرق البلح . والموسيقى بالمزمار . والاوتار بالاذكار . « والبيانو » بالأَرغول . و « الأُوركستر » بالرباب . و « البالو » بالسحجة . و « مس أُوستن » بنت أمّ شنب . وموكب الزفاف بلعب

الهوّارة . ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام . ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة . وكتبة المراكز والصيارف . بدل أمراء البورصة والمصارف . ويضع على رؤوسهم سعف النخيل والعراجين . بدل أكاليل الازهار والرياحين . . . .

(الكهل) — يكفيك فقد أسهبتَ فى الشرح والوصف . وأنا أقول لك: نعم يعجبنى ان يكون الامر على مثل ما تسخر منه ما دام من عاقبته عمرانُ البيوت وحفظُ الاموال وبقاء الأحساب وإطعامُ المساكين وبرُّ الاقارب وإسداء الخير للاصحاب والجيران وإدخالُ السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها . بهذا ينتفع أهل البلاد ويرضى الناسُ بعضهم عن بعض . ولا ارضى ابداً ان ينقلب الحال كما أراه مادام من ورائه عواقب الخراب وسخط الناس وعقوق الاهل ولصوق العار ووقوع الفضيحة وسوء المصير . ومَن الذى يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى هذا الرجل العريق النسب فى أهل الصعيد أهلِ الشهامة والحمّية وذوى الغيرة والأنفة ومِنْ حولِه الخصيان على ما نشاهدهُ الآن يطالبونه أن يأمر الخدمَ بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فى الحرم . وهو يعرف حكاية الأعرابى الذى سقوهُ الخمر فى احد الاعراس ولم يكن ذاقها

من قبل فلما ثارت سَوْرَتُها قال لمن حوله من أهل البيت « ان كان نساؤكم يشربنها فقد زَنين وربِّ الكعبة » . ولست أدرى على كل حال ماهو الغرض الدافع لصاحب هذا العرس الى احتمال كل هذه الفضائح والمعايب . فان كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بتبذير تلك الاموال الطائلة فى إقامة الاحتفال فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على ماتسمعه ونراه وليس فيهم الاّ كل منتقد لعمله معترض على فعله يرميه بعضهم بالتقصير ويرميه بعضهم بالتبذير . وان كان الغرض من هذا التوسع فى الإنفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوهٌ أخرى تفيده وتفيد الناس ولابتناء المحامد سبلٌ شتى تُرضى النفوس وتسر القلوب . ولو كان اقتصر فى إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها وبذل النصف الآخر فى باب من أبواب البر والاحسان مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى الصناعات لخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح ولاقاموا لمجده صُروحاً من طيب الأُحدوثة وجميل الثناء

قال عيسى بن هشام ـ وما نشعر الاّ وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج

من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ويَعدُونهم بالعودة اليها بعد غسل الآنية وتجديد الالوان . فلم يَسمع لهم أحد ولم يُلتفت الى صياحهم فأخذوا بالتصفيق بالأكف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج فلم ينتقلوا ولم يتحركوا فعمد الخدم الى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا الاضواء وتركوهم يتخبطون فى الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون الابواب فسبقناهم الى الخروج والتقينا فى خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان فى هذه الحال ويتخاصمان فى شدة السكر فلطم احدُهما صاحبَهُ فسقط على الارض يتخبط فى قيئه . وينشد هذه الابيات فى هذره وهزئه :

شربتُ الخمرَ حتى قال صحبي ... ألستَ عن السِّفاهِ بمُستَفيقِ
وحتى ما أُوَسَّد فى مَبيتٍ ... أنامُ به سوي التُّرْبِ السَّحيقِ
وحتى أُغلقَ « البوفيه » دونى ... وآنستُ الهوانَ من الصديقِ

وسمعنا الآخر ينشد وهو ينفخ تيهاً وعجباً ويصعّر خدّه صلفاً وكبراً :

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أنى ... أبو قابوسَ أو عبدُ المَدانِ

وسمعنا فى الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم فسكت المغنون وضج المكان واضطرب الحاضرون ووقف الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسىّ يتطاولون لمشاهدة

العروس وهو فى زمرة من اخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى اذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً قام احد الحاضرين فصعد على منصّة المغنّين صعود الخطيب على المنبر فشخصت نحوه الابصار ومالت اليهِ الاسماع واذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها: « أيها الحاضرون والغائبون. هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور . على منابر الحبور . وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور . من سماء القلوب وأرض الصدور : وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون. فانجلت عن بصائرنا غمائم الأحزان ووبل الشجون . ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان . الراكبين فيه لحيازة قصب الرهان . ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف . بحروف الرماح ورماح الحروف . ولا من الممتطين فى شروح البلاغة متون الضوامر . ولا من السابحين فى بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر . ولا من الساحبين حلة سحبان . ولا من المتدرعين فى حصون المعانى والبيان . وقد حيل بين العير والنزوان . إلاّ أن ما أعرفهُ فى هذا العروس من العلم والإقدام. وما له فى مستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الاقدام . وما أعتقده فيه من محبة الأوطان. ومصادقة الاخوان. كما ان ما أعلمه وأتحققه فى العروس التى تزف اليهِ هـذه الليلة .

من علمها بتدبير المنزل وفروض العَيلة . وما هو مشهور عنها لدى كل قاص ودان . مما يوجب حسن القبول والامتنان . وما شهد لها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس . بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس . وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح . وأتوسمه في جباههم من الفرح والانشراح . كل ذلك هو الذى جرأني على الوقوف في هذا الموقف الحرج . وسط بحر هذا العرس المتموج . واني أتوجه اليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيرى صفحا . وأتقدم لكم بنفسي لتطووا عن هفواتها كشحا . وأطلب منكم أن تشربوا معى نُخَب الكؤوس . في نَخب العروس . وتقولوا معى فليحيَ هذا الشاب في هناء وسرور . ورخاء وحبور . ممتعاً بنشأة الوفاء والبنين . وناشئة الاولاد الناجحين . ما ناح القمرىّ في رياض البساتين . وصاح الاخدرىّ بين الاعشاب آمين آمين »

ثم نزل الخطيب . فقابلتهُ الاكفُّ بالتصفيق والافواهُ بالتهليل والصدورُ بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثا بالسلام . ثم اعقبهُ على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام . فأنشد هذه القصيدة النادرة . والمدحة الباهرة :

بأوقات الهناءِ الصافيات ... تجلّى الانس من كل الجهات

لقد قام البشير بها ينادى	على أهل العروسين الهداة
وفى تلك الصدور الفرح يجرى	كما تجرى خيول الصافنات
فبشرى أيها الشهم المفدى	بخير الغانيات الآنسات
ظفرت بدرة في عقد ماس	من المتأدبات الراقيات
وقد زفوا بهذا الأفق بدرا	الى شمس الهدى والمكرمات
تغذت بالمعارف والمعالى	فحازت زينة المتعلمات
يرجى أن يكون كذا بنوها	لدى أيامنا المستقبلات
بهم تزهو الشبيبة فى المرامى	وتغدو للحمى أقوى الحماة
بهم ترقى المواطن مرتقاها	وتصبح قدوة المتربيات
لجيش فى البلاد عرمرمى	وجند في الحروب مبرزات
وتمشى النيه فى أوج المراقى	وترفل منه فى حلل الثبات
فتصبح أنت خير أب كريم	وتصبح تلك خير الامهات
ودمتم بعد ذاك بألف خير	ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت	لجئت بألف بيت شاهقات

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب . وعاد المغنون الى اللحن والتطريب . فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف من ركن الى ركن ومن صف الى صف . فلم أجد فى الحاضرين بلا استثناء . من

هو ملتفت الى سماع الغناء . بل رأيتهم يوجهون النظر الى السماء . ويكثرون من الاشارة والإيماء . كمن يتضرع بالدعاء . لكشف المحنة والبلاء . فرفعت مثلهم نحو السماء بصري . ودهيتُ من حيث أدري ولا أدري . إذ رأيت نوافذ الدار . مهتوكة الاستار . وفي كل نافذة هيفاء . سفرة النقاب . كالدُّمية في المحراب . أو كالصورة تتألق في إطارها كالشهاب . او كالبدر بدا مسفراً من خلل السحاب . تُنفذ منها مثلَ خيوط الغزلة للمغازلة وتجرّد من اللحظات مثل سيوف الكُماة للمنازلة فتصيد طيور القلوب الحوائم وتفتك بمهج النفوس الروائم . ثم تراها تُومئ بكأس الصهباء . الى شفتها الحمراء . وتلمس واسطةَ العقد . بزهرة من الورد . فيشتبه على الرائي وجه الأمر . باختلاط اليواقيت كالجمر . بياقوتةِ الخمر . بياقوتة الثغر . وياقوتةِ الزهر . بياقوتة النحر . ثم لا تفتأ ترسل الاشارةَ تِلوَ الاشارة . تارة بالمروحة وأخرى با « لسجارة » . مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور . وتفصح إفصاح المعاني في السطور . والرجالُ من تحتهنّ يجاوبونهن على أعين النظار . طوراً باشارات الأَيدي وطوراً بلغة الازهار . وكل مُغازلٍ فيهم يعتقد أنه امتاز على سواه . وتغلّب على أهل النوافذ بهواه . وأضرم فيهنّ نار العشق وجواه .

وخلع قلوبهنّ بدعواه . وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم . أو أخواتهم وبنات أخواتهم . والمغنّي يستقبل وجوههن في هذه الاثناء . بوجه ليس فيه أدنى حياء . فيغنّيهن من الأصوات والألحان . مايثير من الغرام ويهيج من الأشجان . والخصيان يصعدون الى الحرم بأوراق وينزلون اليه بأوراق . يتخيّرنَ فيها الادوار السائرة على ألسنة العشاق . في وصف حرارة الاشواق . ومرارة البعد والفراق . وما زالت الحال تتزايد قِحَةً ووقاحه . وتتضاعف هتكاً وفضاحه . حتى قام في وسط المكان جماعةٌ من الاصحاب . يتقاذفون بألفاظ القدف والسباب . ثم انهم انتقلوا من التلاعُن والتشاتُم . الى التضارب والتلاكُم . فقام الحاضرون على الاقدام لمشاهدة ميدان النزال والخصام . ثم تداخل رجال الشرطة بينهم لفضّ المخاصمه . وسوْقِهم الى المحاكمة . بعد أن تمزقت الثياب تمزّق الأَوراق . وتخضبت الوجوه بالدم المُهراق . فصارت الافراح أتراحا . وانقلب الغناء نواحا . وقلتُ لصاحبي هلمّ بنا الى الفرار . من مواقف التهمة والعار . وخرجت به أسوقهُ أمامي . واقول له في بعض كلامي : لقد حق لك بعد الذي رأينا ونظرنا . وبَلَونا وخبرنا . ان تلتهب بالغضب والحَنَقِ التهاباً . او يذهلك الدهشُ والعجب فلا تعي

جوابا . وهل بقي بعد ذلك فرقٌ بين سرور الدنيا وحزنها . أو فضلٌ لظهر الأرض على بطنها . فأجابني بلسان الحكيم المدرّب . والحليم المهذّب . وهو يتبسم استهزاءً . ويهزّ كتفيه ازدراءً : لم يبق فيّ بفضل الحكمة فضلٌ للسخط والغضب . وعجبي اليوم مما أرى يكون من العجب

*
* *

قال عيسى بن هشام — وتمكّنَ من الباشا حبُّ الاستكشاف والاستطلاع . لدرس الاخلاق وسبْرِ الطباع . وتبدلتْ الوحشةُ عنده بالائتناس . في مخالطة الناس . فصار يُلحّ عليّ ويَلجّ في الطلب . أن أذهب به في هذا السبيل كلّ مذهب . وأنا أداورهُ وأحاولهُ . وأماطلهُ وأطاولهُ . وهو لا ينفكّ يستنجزني ويستقضيني . واذا استعفيتُهُ لا يعفيني . فقلت له لم يبق أمامنا من المجالس والمنتديات . الاّ ما اشتملتْ عليهِ الازبكيةُ من المخجلات المُندِيَات . وما تضمنتهُ من صنوف الرجس والنكر . وفنون الفسق والسكر : وانا أُجلّك أن أسلك بك مسالك الظنّة والتهمة . وأن أُحلّك محالّ الريبة والشبهة . وأربأ بسنّك وقدرك أن تختلط بتلك الزمَر . وتدخل معهم في تلك الغُمَر . وتقسر نفسَكَ الشريفة على مالم تألفه من مثل مايعملون . وشَروَى

ما يفعلون فلا نأمن حينئذٍ نقد الناقدين . وطعن الطاعنين . وقاسمتُهُ انى لك لَمِنَ الناصحين . فقال أَلِي تقول ذلك وقد آتيتني من دروس الحكمة العالية . وضروب الفلسفة السامية . ما أزدرى معه عذلَ العاذلين . وأحتقر به لومَ الجاهلين . ولن يَضير النفسَ الشريفةَ الطاهرة . أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة . وقلّ أن يُعدى المريضُ الطبيب . وتذهبَ رائحةُ الدَّفر برائحة الطِّيب . والامعانُ في رؤية النقيصة والرذيلة . يزيد النفسَ الفاضله تمسكاً بالفضيله . ولا يَعرف قدر الرشد والهداية . الاّ مَن نظر في أعقاب الضلالة والغواية . وبالظُّلمةِ يُعرف فضل الضياء . وبضدّها تتبين الأشياء . ـ ذلك من فضل ما علّمتني مما عُلمتَ رُشدا ـ . ولقد كان من أدب الحكام في أيام دولتنا . وزمن صولتنا أن يغيروا من هيئاتهم . ويستروا من سماتهم ويبدّلوا من أزيائهم المعروفة . بأزياء غير مألوفة . ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم . ويقفوا على حلية أمرهم وحقيقة احوالهم . فلم يكن ذلك مما يضرّ بسمعتهم . أو يحطّ من رتبتهم . عند ظهور أمرهم . ووضوح سرهم . فلا عليك اذاً أن تسلك بي ما شئتَ من المسالك . ولا تخشَ عليّ شيئاً من تلك المعاطب والمهالك .

قال عيسى بن هشام ـ ولما لم يبق لي بد من امتثال حكمه . وتنفيذ

عزمه. قصدت به من الازبكية روضتها الغنّاء . وحديقتها الفيحاء. فلما وصلنا الى بابها. ووقفنا عند دُولابها. وضعت فيه أجرة العبور. كما توضع النذور فى صندوق النذور. ودرتُ فيه دورنى ودار الباشا دورته . فقال لى وهو يدافع الغضب وسَورته . هل كُتب على الداخلين فى هذه الجنة الزاهية . ان يدور الانسان دورة الثور فى الساقية . فقلت له نعم شاع التخوين بين الناس فى جميع الاشياء . فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء . لتكون عليهم رقيباً عتيدا . لا يستطيعون معها اختلاساً ولا تبديدا . فهى ترقم من الداخل عند كل دورة . — ماينقده الداخل فيها من الاجره. فلا يضيع منهُ مثقال ذرّة . ولما جاوزنا الباب اعجب الباشا حسن المنظر وازدهاه. وراقهُ بهاء المكان واستهواه . وتملكه الابتهاجُ وتولاّهُ. فقال ماشاء اللهُ لاقوة الا بالله لمن هذه الجنة من كبراء البلد . قلتُ هى ملك كل واحد وليست بملك أحد. انشأتها الحكومة من « المنافع العامة » . لنزهة الخاصة والعامه . ثم سرنا نطوف فى انحاء الحديقة. بين اشجارها الوريقة. واغصانها الرشيقة. وازهارها الأنيقة. والباشا يهتز طربا. ويميل عجبا . لحسن هذا المنظر العجيب . والمنبت الخصيب . ثم وقف بنا وقفةً بين برَد الظلال وخرير الماء . ورَفَعَ ببصره يقدّس

باسطَ الأرض ورافعَ السماء . ثم رأيته ينحنى للركوع انحناء القوس . بعد أن أنشد قولَ حبيب بن أوس :

أرضٌ اذا جرّدتَ فى حسنها فكرَكَ دلّتكَ على الصانعِ

وسمعته يتلو فى الركوع والسجود . قولَ صانع الوجود : « لله يَسجد مَنْ فى السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالُهم بالغُدُوّ والآصال » وقولَه أيضاً عزّ مِنْ قائل : « يُسبّح له السمواتُ السبعُ والارضُ ومَنْ فيهنّ وإن مِن شىءٍ إلاّ يُسبح بحمده ولكنْ لا تفقهون تسبيحَهُم »

ثم انثنيتُ به فى طلب الراحه . فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة . ودارت بيننا هذه المخاطبه . بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) — كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصاً وبالمتنزهين مزدحماً يشاهدون جماله ويتفيأون ظلاله ما دامت الحكومة قد أباحته لكل رائحٍ وغادٍ كما تزعمه ومالى لا أرى فيه غير هؤلاء الاجانب فى أزيائهم بأبنائهم ونسائهم فهل وقفته الحكومة على الغربيين وحرّمته على المصريين فانى لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا الى هذه الساعة

(عيسى بن هشام) — لم تُؤثِر به الحكومةُ قوماً دون قوم ولكنّ المصريين كأنهم أَلِفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها وأخصها

معرفة ما حسن فى الاشياء وتمييز الجمال والكمال ومواضع الاحسان والاتقان فى صنعة الوجود ورياضة الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التي تسبح بحمد خالقها أي تدل عليه بصنعته فيها: وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره فى الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والإمعان فى خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس والاقمار والنجوم والكواكب ولا فى خلق الارض وما ينبت فيها من النباتات ويدب من الحيوان ويجري من البحار ويرسو من الجبال وهى بجمال صنعها وكمال وضعها:

تَصيحُ بمَنْ يمرُّ ألاَ ترانى   فتفهمَ حكمةَ الخلقِ العجيبِ

(الباشا) - جلّ الخالق الصانع. ولكن لأىّ سببٍ الفَ المصريون غفلتَهم عن التمتع بهذه النعمة نعمةِ المشاهدة ولذة المطالعة وصار الاجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عليهم

(عيسى بن هشام) - لا سبب فيما اعلم الا التمادى فى التهاون والتراخى عن إيقاظ هذا الشعور الغريزىّ الكامن فى النفس وتنميته بالرياضة والتفكير ومعاودةِ الامعان والتدقيق. وقد اعتنى الاجانب به عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته حتى صار لديهم ملكة

من الملكات وفناً جميلاً من أرقى الفنون فدربوا عليه ومرنوا فيه وسَرَى فى دمائهم يتوارثه الابناء عن الآباء فترى الطفل فيهم اذا شبّ ودرج واراد أن يتحف اهله يوما بادر الى الروض فاقتطف منهُ اول زهرة من الربيع وتسابق بها اليهم كأَنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم . ولقد برعوا فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموّه ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المرئيات الطبيعيه بل تجاوزه الى المرئيات الصناعية ففيهم من يبذل الالوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ورسم من الرسوم يُحسن تمثيل زهرةٍ من الزهور أو دائرةٍ من الشفق أو راعٍ من الرعاة أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته فى الاصل الطبيعى وبين قيمته فى الشكل الصناعى وقلّ أن تدخل دارَ ميسورٍ منهم الاّ وتجدأ نحاء الجدران مزدانة بألواح التصاوير والتهاويل مما يحاكى المناظر الطبيعية فلا يفوت صاحبَ الدار أن يتمتع بحسن المنظر فى داخلها إن حجبتهُ عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها . ولقد جرّهم ذلك الى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس فى اقتنائها والتغالى فى التحفظ عليها والضنّ بها فكم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره تزدريها الأعين بينا ولا يعبأ بها المصرى فيطرحها فى كناسة منزله

فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الاجنبيُّ فى بحثه وتنقيبه فتصير عنده فى قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد . وكم رأينا من السيَّاح مَن يتكبدون مشاق الاسفار ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الالوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدّمن وما عفا من الرسوم فى هذه الديار وربما رأينا المصرىَّ ساكنَ القاهرة يشبّ ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعمر ويهرم ولم يرَ من الاهرام القائمةِ فى جواره غيرَ صورتها المرسومة على ورق البريد وربما لم يلتفت الى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت

(الباشا) ـ تاللهِ إن ذا لمن العجب . ولو كان الامر يجري على القياس لكان المصريون فى مقدمة الامم التى ينمو فيها الشعور بلذة التأمل فى بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لرقة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والانفعال فى نفوسهم ولِمَا ميزهم الله به من حسن الاقليم واعتدال الجوّ وفيض الماء وخِصب الارض ولانحصار موارد أرزاقهم ومعايشهم على استنبات الارض وطول ممارستهم للفلح والحرث والزرع والحصد وكلٌّ من رأى الاقليم المصريّ كالزبرجدة الخضراء فى وسط رمال الصحراء لابد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة ويغبطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا

المنظر الذى يجلو البصر ويثلج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر فتصفو الروح فتخفّ من قيود العالم السفلىّ الى الاتصال بمعارج العالم العاوىّ فترتاح هناك هنيهة مما تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الاكدار والآلام وتفر من وجهها برهة الى وجه ربك ذى الجلال والاكرام . واعلمْ - وهذه لفظة طالما أفادنى تكريرها على لسانك فاسمحْ لى بها مرة من لسانى وما أُعلمك الاّ عن خبرة وتجريب - أن الفرق بين الانسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ففى الخلقة ما يشبهه . ولا فى النطق ففى الحيوان ما ينطق . ولا فى الذكاء ففى هوامّ الارض ما يفوقه ذكاءً وانما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يَفضُلُها بها هى إدراك حقيقة الوجود بالإمعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والارض للاهتداء الى معرفة خالقها وعبادة صانعها قال جلّ وعزّ فى محكم بيانه : « أَفَلاَ يَنْظُرونَ الى الإِبلِ كيف خُلِقَتْ والى السماء كيف رُفعتْ والى الجبالِ كيف نُصبتْ والى الارضِ كيف سُطحتْ فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ » . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الانسان دون سائر المخلوقات وهى أشرف اللذات وأصفاها وأفضلها وأبقاها . وما يتقرب العبد الى

الله زلفى فى عبادته بأجلّ من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلقه قال وهو أحكم القائلين : « إنَّ فى خَلْقِ السموات والارضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولِى الالبابِ الذين يَذْكُرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكَّرون فى خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ربَّنَا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقِنَا عذابَ النار » . ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف الاّ من تجرّد مثلى يوماً من عالم الاجسام والفناء الى عالم الارواح والبقاء ولا ينبّئك مثل خبير

ولو كانت الامور تجرى على القياس أيضا لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة وسعوا فى نموّها فيهم إن لم يكن من جهة لطف الاحساس والشعور فمن جهة انصرافهم الى تقليد الغربيين والعمل على نمطهم فى مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً فى جميع حركاتهم وسكناتهم . ولكن لعل هناك من خفىّ الاسباب ما حرمهم من اطّراد التقليد فى هذا الباب

(عيسى بن هشام) ـ لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم الى الفتور والانكماش سواء كان فى الماديات أو الادبيات . وهم على شدة ولعهم بتقليد الاجانب لا يقلدونهم الا فى ما خفّ وهان من الزخرف

المموّه والبهرج الكاذب واللاذ الشهوانية مما لا ينتج عنه الاّ سقم الاجسام ونفاد الاموال وماعدا ذلك من أمور المدنية النافعة فمجهولٌ عندهم بل مرذول لديهم . وإجمال القول فى هذا الباب ان مثل المصرى فى أخذهِ بالمدنية الغربية كمثل المنخل يحفظ الغث التافه ويفرط فى الثمين النافع

(الباشا) - يا أسفا عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدنيتهم القديمة ولم يتحلّوا بفضائل المدنية الحديثة فأصبحوا كالتى نقضتْ غزلها من بعد قوةٍ أنكاثا

قال عيسى بن هشام - وما زال الحديث يجرى بنا على هذا النحو حتى وصلنا الى المغارة المصنوعة فى بعض أنحاء الحديقة فرأينا صنعاً جميلاً وشكلاً بديعاً وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الاحجار فجلسنا على سُرُرٍ هناك أُعِدَّت للزائرين . واذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين شَغَلَهم اتصالُ الحديث بينهم عن الالتفات الينا فأقمنا نسترق السمع ونلتقط اللفظ فتبين لنا من سياق كلامهم ان أحدهم عمدة من عمد الارياف وثانيهم تاجر من تجار الثغور وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع فى

(العمدة) — وأين الآن مادخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا الجلوس ولم نرَ شيئاً . وهل كان جلّ القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الاشجار ورطوبه الهواء وعفونة الماء . وتالله ماأجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلّفتهُ خلف بلدتنا ولعمري إن الأوزّ الذي يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمناً من الأوزّ الذي يَسبَح أمامنا . وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الاشجار العقيمة التي لا تثمر ولا تغني من جوع . وأين نحن من ذلك الثمر الشهيّ والصيد الطريّ الذي وعدتنا بهِ وأطمعتنا فيه

(الخليع) — مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء وان كنا أخطأنا الغرض هنا لانى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها وما كنت أتخيل ان الامر وصل بها الى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان الآ منذ أخبرنى أحد الاصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلوّ يدها من الاشغال فباشرت الاصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها والتجول فى انحائها . ولا أقول فى هذه النازلة الا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة :

« حسبنا الله ونعم الوكيل »

(التاجر) — وعلى هذا فقد ذهبتْ تلك الليالى والايام التى كانت

فيها الحديقة مرتعاً للحسان وملعباً للقيان ولطالما دخلتُ هنا وحيداً فريداً فما اكاد أنصب الحبالة وأضع الحب حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع

(العمدة) ـ يعلم الله ان العاصمة اصبحت على حال لا تصح معها الاقامة الا مسافة قضاء الحاجه والرجوع الى البلد فوراً والاّ فقد عرّض الواحد منا دراهمهُ للضياع وصدرَه للانقباض . والى الآن تراني في غاية الاسف والحزن على ماجرى لي أمس في سهرتي مع فلان الموظف اذجرّني للنزهة معه فطاوعتهُ على هواه أملاً في إنجاز حاجتي عنده فسحبني من مكان الى مكان ومن حانٍ الى حان يشرب هو وأصحابه على حسابي وكأنما أجوافهم دنانٌ متخرقه فلا تمتلئ ابداً من الخمر وكأنما كيسي كنز لا يفنى بالانفاق . وما كدنا ننتهي من حانات الخمر حتى اندفعوا بي الى بيوت القمار فأصبحتُ مصدّع الرأس من الخمر فارغ الكيس من القمَرْ

(التاجر) ـ ولِمَ تطاوعه على أغراضه وتنقاد اليه مع أصحابه وتنفق مثل هذا الانفاق من غير حظ ولا لذة . وان كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفي في ذلك أن تضع المبلغ المناسب في يده وتتخلص منه ومن أصحابه فلا تسايرهم ولا تعرّض نفسك

للتورط معهم كما فعلت

(العمدة) — يحق لك ان تعترض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام فان أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الارياف فنحن في اضطرار دائم الى استرضائهم «والمبلغ المناسب» الذى تقول عنه لا يكفى وحده في قضاء الحاجة بل يلزم من الانفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلك المبالغ وان لم يكن لك عندهم حاجة في الحال. وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير وما يدريك أن الذى تغضى عنه الليلة ولا تلتفت بنظرك اليه في حانات الازبكية يصبح غداً قاضياً في المحكمة أو حاكماً في المديريه

(الخليع) مقاطعاً — اذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك فلنا عنها عوض من ليلتنا هذه ان شاء الله

(العمدة) — أنصدقك في وجود العوض وقد أخلفتَ وعدك معنا في هذه الحديقة وآذنَ الليل بالدخول وليس في اليد شيء من الصيد

(الخليع) — صدقني بالله فاني ما كنت أعلم بما اصاب الحديقة من أمر الحكومة لانى كنت مقيماً بحلوان مدة طويلة وجئت وأنا أحسبها على حالها الاول. ولكنني قد رتبت لك الآن سهرة في

فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت فانى أعرف صاحباً لى أخبرنى عن بيضة خدر من بيت فلان باشا فقوموا بنا وانا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل وسأكتم عنها أمركما الى ان تصير معى فى الموضع الذى أختاره ثم أُرسل اليكما من هناك من يأتينى بكما فيكون دخولكما على حين غفلة فلا تستطيع الاختفاء ثم نضطر الى البقاء فى مكانها وحينئذٍ يدور بنا المجلس معها دورة الانس والسرور . ولكن لا أخفى عنكما ان مقدار مامعى من الدراهم الآن لا يكفى لاعداد معدّات هذا المجلس وأخشى إن أنا ذهبت الى البيت لأخذ دراهم أخرى أن يمنعنى أهلى من الخروج ثانية كما هى العادة عند النساء فى التضييق على الرجال

(العمدة) ـ لاعليك فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة

قال عيسى بن هشام ـ وقاموا فى الحال للسعى وراء الفسق والمجون . وقام الباشا يسحبنى وراءهم للعلم بما سيكون

***

قال عيسى بن هشام ـ وخرجنا فى أثر الخليع والعمدة والتاجر . وقد ألقت ذُكاء يمينها فى كافر . ثم أضيئت بعد ذلك شموع الكهرباء . فعادت الشمس متوزّعة فى مصابيح الضياء . كالنجوم تتلألأ فى

أفق السماء : وتقشع دياجى الظلماء. ولما توسطنا ساحة « الأوپرا»
و « الأوپرابار » . وقف الباشاوقفة الإعظام والإكبار . يكفكف
غرب الدمع والاستعبار . ويقول سلامٌ على إبراهيمَ أإبراهيمُ فى
النار . كيف لايضطرم القلبُ استعارا . ويجرى الدمع مِدرارا .
فلا أستطيع أوارِى . ولا أستطيع أوارِى . وقد تمثل أمامى فى
هذه البقعة . وهى موسومة بسوء السمعه . بطلُ مصر . ورافع
بنودِ النصر . وقائدُ جيوش الحرب وهاديها . فى مفاوز الأرض
وبوَاديها . ومُوقدُ نيرَانِ الوقائع وصاليها . وخائض غمرات
المعامع وجاليها :

في كل منبِت شعرةٍ من جسمهِ   أسدٌ يَمُدُّ الى الفريسةِ مِخلبَا

وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد . فى مواضع
الهزل والدّد . ويقيموا لإبراهيم صنماً على صورته . فى وسط سوق
الفسوق وسرّته . مشيراً بيُمْناهُ الى مواطن اللهو والفجور . وأماكن
الفُحش والعُهور . ودينُه ينهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها . ويأمرهم
بكسرها وإبادتها . ويابؤس قومٍ جعلوا اليد التى كانت تشير للكُماة
والفرسان . فى ميدان الضرب والطعان . بمصافحة المنايا . ومقارعةِ
الاقران . تشير اليوم وسط هذا الميدان . بمغازلة البغايا . ومعاقرةِ

الدنان . فسبحان محوّل الأحوال ومبدّل الأزمان . فقلت له ما هذه الأفكار المحزنة . أحنيناً الى تلك الازمنة . وقد انقضت بخيرها وشرّها . وذهبت بحلوها ومرّها . وأين انت من طريقك فى الحكمة والسداد . ومن سبيلك فى الهداية والرشاد . نخفّض عليك من حزنك وهمك . واترك تلك الهواجس فأنت ابن يومك . ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطانا مطاعا . فيذهب مااستفدناه من العلم ربحاً مضاعا . أما إقامة التماثيل فى الميادين . ومخالفتها للشرع والدين . فقد أقامها حكامُنا تقليداً للغربيين . ولم ينكرها أحدٌ من طلبة العلم وعلماء المسلمين فاستنامت اليها الافكار . ولم يوقظها التحريمُ والإنكار . وأمّا وضع التمثال فى هذا المكان دون سواه . وإشارتُهُ فوق الحصان بيمناه . فلعل الآمر بوضعه أراد أن يذكّر هؤلاء الغافلين الذاهلين . بما كان لآبائهم الأولين . من الشأن الرفيع . والركن المنيع . أيام إمارته . وينبههم الى ما انتشر ذكره فى الآفاق . وخلّدته لهم بطونُ الأوراق . من اقتحام المهالك . وافتتاح الممالك . تحت قيادته . وهو يشير اليوم بتلك اليد . ليستفزهم الى مواقف العز والمجد . ويستنفرهم عن مواطن الخلاعة والبطالة . الى مواطن الشجاعة والبسالة . فتبسم الباشا من قولى

ضاحكا . وقال ماعهدتُك فى الجواب محاولاً مما حكا . فقلت له دَعْ هذا وانظرْ الى هذه البنيه الإيوانية . ذات الأرائك الخسروانية . فقال أَعظِمْ به مِن بناء . بين بيوت الكبراء . قلت هو بيتُ لهوٍ رفعَ اسماعيلُ قواعدَه . وبوّأَ الناسَ مَقاعدَه . يشاهدون فيهِ صنوف الألاعيب . وضروب الأعاجيب . مما يؤخذ عن أساطير الاولين . وأقاصيص الرّاوين . وما تَفتَنُّ فيهِ كلُّ غادة حسناء . من جمال الزينة وحسن الرُّواء . وتَفتنُ به كلُّ قَينة هيفاء . من فنون الرقص والغناء . اقتداءً بالغربيين فى ديارهم . واحتذاءً لآثارهم . وقد بقى من بعدهِ تُنفق عليه الحكومة من عيش الصانع والفلاح . لتفكهة النزلاء والسيّاح . ثم انظر أمامك الى هذا المجتمع الملتحم . والموقف المزدحم . فالتفتَ فقال ما هذه الضوضاء العظيمة . أماتمٌ ماأرَى أم وليمة . قلت له لا بل هو مجتمعٌ عام . تتزاحم فيه المناكب والأقدام . لمسامرة الاصحاب . ومعاقرة الشراب . وبينا نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير . عندباب هذا الحان الشهير . فسرنا فى عقبهم . ولحقنا بهم . فسمعنا الخليع يقول لصاحبيهِ : كونا هنا فى الانتظار . حتى أعوداليكما بالاخبار . إنجازاً لوعدى . وإيفاءً بعهدى . فأجاباه بالقبول . وتقدّما للدخول :

فقال العمدة للتاجر ماأحوجنى الى تضييع الزمن . وترييض البدن . بشرب كأس من العُقار . ولعب دور من « البليار » . وقال التاجر وما أحوج يدى الى ملامسة ورق القمار . وأذنى الى رنين الدرهم والدينار . ثم صعدنا وراءهما الى قاعة بأعلى المكان . أُعدّت للعب والرهان . فتقدم العمدة وهو يهز أعطافه وأردانه . فاستلم كُرَة « البليار » وصولجانه . وقعد التاجر وهو يرتعد من الفَرَق . فى مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر والسمع . فى غُمار ذلك الجمع . فسمعتُ عن يمينى أحد السماسرة المعروفين بالدهاء . يقول فى مناقشته لاحد أرباب الثروة والغناء :

(السمسار) - لا نزاع ولا جدال فى أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الايام الماضية التى كان يغتنى الرجل فيها بكلمة ويُثرى باشارة فيصبح بها أغنى الاغنياء بعد ان كان معدوداً من الفقراء ولقد وصل المصريون الآن الى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من حكامهم من يقطع الاقطاع ويهب الضياع . وبقى الغنىّ الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يستربح ثروته وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم فأصبح مضطراً الى الانفاق من تليده فسرى النقصان الى رأس المال حتى

ذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته الا ما يقوم بالكفاف وحده لعد توزعه بينهم . وكن على يقين أنه لا يمضى جيل واحد على هذه الحال الا وينذثر بين المصريين ما بقى من بيوت المجد والغنى . واعلم أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع فى الثروة والمال وكنز الكنوز فى الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء ويدفعون عنهم الضراء بالسراء وما يخفى عليك انه بيت البورصة

(الغني) ـ اسكت ولا تذكر لى اسم البورصة فقد سمعنا فى هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر

(السمسار) ـ ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان فان الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلهما . أما أحدهما فانه كان يعتمد فى المضاربة بآرائه على التفاؤل والتطير وكان لا يأخذ الا بكلام إحدى العرافتين العرافة السودانية أو العرافة الافرنجية تلك بودعها وهذه بورقها . ومن نوادره فى الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلاً مجذوباً يصيح فى الطريق بقوله : اذهب يا زيد . وكان لا يزال متردداً بين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها وسار من توه الى سمساره فأمره أن

يشترى له عشرين ألف قنطار فنصحه وحاول ان يحوله عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحوّل وهبطت الاسعار فى اليوم الثانى وتوالى هبوطها فكان ما كان من خسارته . وأما الثانى فكان جلّ اعتمادِه على الاخذ بأفكار أرباب الجرائد والثقة بالاخبار الكاذبة من الموظفين ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة وأعلمهم بطرق الصواب فيها

(الغنى) — لَنْ تزيدنى واللّهِ براعتُك فى البيان والبرهان الاّ ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ولا أعتبرها فى نظرى الا اكبر بابٍ من أبواب المقامرة والمقامرةُ هى عين المخاطرة

(السمسار) — أما المخاطرة فهى لاصقة بالانسان فى كل حركة وسكون وملازمة لعمله فى كل زمان ومكان ومن أراد أن يتوقى الاخطار ويسلمَ من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال والأَوْلى له ان يترك هذا العالم الى سواه . واسمحْ لى بآخر قولٍ أقوله لك فى هذا الباب وهو أنك أخبرتنى بمقدار محصولك فى هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك الى اليوم لم تبعْها تربّصاً لصعود الاسعار ولم تبالِ بما يلحق القطن فى طول خزنه من نقص الوزن وما يتهدده من بقية الاخطار كالسرقة والحريق فاذا كنت فضّلتَ الانتظار

لصعود الاسعار على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين الفاً من « الكونترااتات » دون كلفة ولا مشقة كالتى احتملتها فى استخراج المحصول فانك لا تدفع هنا ثمن أرض ولا تنفق على حرث ولا تؤدى ضريبة ولا تبذل ماء وجهك لرىّ الاطيان ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكام ومادخلتَ فى قضية ولا وقعتَ فى منازعة ولا تخوفتَ شيئًا من الآفات سماوية كانت أو أرضية بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها بيمينك فى التوقيع

(الغنى) - يجوز أن يكون فى قولك هذا بعض مايقنع ولكنى لا أجد نفسى تطمئن يوماً الى ولوج هذا الباب

(السمسار) - أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ولا أدعوك الى أدنى خسارة وما عليك الا ان تجرب صدق نصيحتى فتشترى الفين من « الكونترااتات » فتنتظر بها صعود الاسعار مع أقطانك المخزونة وأنا أضمن لك الربح مادمتَ آخذاً برأيى . ولا تستمر فى هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين وخذ فى النشاط والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين . واعلمْ أن الفرق فى سرعة الربح بين مايشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين

أشغال البورصة و « الكونتراتات » كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم بهِ من السير. وأنت المخير مع ذلك في ما ترضاه لنفسك

(الغنى) ـ وكيف حال الاسعار اليوم

(السمسار) ـ كما كانت بالأمس وهي فرصة ثمينة للشراء

(الغنى) ـ خذلي اليوم خمسمائة قنطار ولا تتعداها

قال عيسى بن هشام ـ وتركنا هذا العصفور قد وقع في يد الصائد المحتال . والتفتنا الى ذات الشمال . لسماع ما يدور من الجدال . بين رجل فرغ كيسهُ من المال. وامتلأت رأسه من الآمال . وبين تبيع محام من الاجانب . يتلقط القضايا من كل جانب :

(التبيع) ـ لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الاهلية وهي معروفة بجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقلّما تبادر الى التنفيذ أما المحاكم المختلطة فانها لا تحسب لغير الحق حساباً وسواء لديها الحكومة والاهالي والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس كما ان المحاكم الاهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدّر

لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها الى الآن فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطه . ولكن أخبرنى قبل كل شئ عن تلك الشجرة هل لها ذكرٌ فى الحجة باسمها التاريخىّ المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً الى الواقف

(صاحب القضية) ـ أما الشجرة فمذكورة فى حجة الوقفيه أنها « شجرة العذراء » وهى قائمة على أرض سواد وأما نسبى فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطان الغورى ولكن مَن لى بدخول القضية فى المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لى بمحام أجنبى وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى « مقدم الاتعاب »

(التبيع) ـ هوّن عليك من الامر . أما رفع القضية الى المحاكم المختلطة فانه سهلٌ هيّن يكون بالتنازل عن القضية لأحد الاجانب وأما المحامى الاجنبى فأنا أتكفل لك باقناع المحامى الذى أشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت الى « مقدم الاتعاب » وانما يتفق معك على مناصفتك فى ما تأتى به القضية من الاموال . وأما الأجنبى الذى تتنازل له عن القضية فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا لتسخيره فى مثل هذه القضايا . وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية

(صاحب القضية) - لا بأس بما تقول ولكن ليس عندى ما أستغنى عنه اليوم لتلك النفقات. ولو كنتُ واثقاً بعض الوثوق بكسب القضية لبادرتُ الى بيع الحصة التى بقيت لى من العقار ولكننى أخشى ان تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مال ولا أمل

(التبيع) - لو كنت تعلم بمهارة معلمى وماله من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرتَ الله فى بيع الحصة ورفع القضية

(صاحب القضية) - استخرتُ الله واعتمدتُ على هذا الرأى

(التبيع) - فقد أذنتنى حينئذ بالكلام مع المعلم. ولك ان تحضر غداً لعقد الشروط

(صاحب القضية) - امهلنى أياماً حتى اجد من يشترى الحصة بالثمن المناسب

(التبيع) - أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة انما يجب أن تبادر باحضار الاوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها

(صاحب القضية) - بينى وبينك مساء الغد فى هذا المكان

قال عيسى بن هشام - وتركنا أيضاً هذه السمكة. تتخبط فى

الشبكة . ثم حوّلنا النظر الى العمدة فى لعبه البليار فما راعنا منه الاّ أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أُفقية فأطارها الى وجه أحد الجالسين من الاجانب فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على العمدة يريد به شرًّا وهو يُدمدِم ويطمطم والعمدة يجمجم ويغمغم وكاد يقع ما تسوء عقباه لولا أن أسرع التاجر فحال بينهما وأخذ بيد الاجنبي يستعطفه ويبالغ فى الاعتذار اليهِ حتى لانت شكيمتُه بافتتاح زجاجتين من « الشمپانيا » لعقد الصلح على حساب العمدة . ثم عمد العمدة الى الجلوس فلم يمهلهُ الذى كان يلاعبه وطلب منه استكمال اللعب فقام اليهِ مكرهاً وقلبهُ يرتجف ويدُهُ ترتعش فما هى الاّ الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاءَ البليار فخرّقهُ وشقّهُ فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب « البار » ومن ورائهِ بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عالٍ : كيف تسلّمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرفهُ ويتلفهُ . ثم وقف للعمدة يطالبه بثمن ما أتلف وتعويض ما عطّل وقدّره له بخمسة عشر جنيهاً لا يتجاوز عن درهم واحد منها . فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيهِ عدًّا فاذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً فلم يقبل منه فتوسط اليهِ بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً وجلس العمدة متكدرا . ولقد كان اللعب

بالا فعوان . أقرب الى السلامة من هذا الصولجان . ثم استمرّ جالساً ينتظر انتهاءَ الناجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاثة جنيهات وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم فقال له العمدة دعك من الاسف والكدر فالضائع ضائع ومصيبتك على كل حال أخفّ وقعاً من مصيبتي . وبيناهما على هذه الحال اذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشاً وفرحاً مرحاً :

(الخليع) ــ أشرقَ أُنسُنا وسعدتْ ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد تم مرادنا وهلمّ بنا

(العمدة) ــ ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويدني منا نهارنا . فاقعد معنا نقصص عليك ما دهانا في غيابك

(الخليع) بعد سماع القصة ــ وَيْلي ثم وَيْلي فأنا الملوم اذ تركتكما نوقع لكما ما وقع ولكن قدّر الله لكما ولطف بكما . أما مصيبتي لآن فهي أعظم من مصيبتكما وأبلغ فماذا أقول وماذا أفعل وكيف دفع وبأيّ عذر أعتذر وقد أخرجتُ البيضة من خدرها والظبيَ ن كناسه واستعدّ المجلس لحضورنا وأنسنا

(التاجر) ــ الامر أيسر مما تخشاه فما يفوتنا الليلة ندركه غداً

(الخليع) ـ ذاك شيء لا يُدرَك في كل وقت وحين . وهذه المرة هي بيضة الديك ابيضة الخدر وكيف يمكن فضّ هذا المجلس وتأجيله وقد مضى قِطع من الليل وتعذرت سبل الرجوع :

كيف الرجوعُ بها وحَوْلَ قبابِها سُمْرُ الرماح يَمِلْنَ للإِصغاءِ

فخلّصاني ناشدتكما الله مما وقعتُ فيه وانقذاني من هذا البلاء العظيم

(التاجر) ـ وما وجه الخلاص وقد علمتَ بتفصيل الحال

(العمدة) ـ تالله ان الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظمُ مصاباً من كل ما نابَنا ولو كان الوقت نهاراً لأسرعتُ الى «البنك» فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم

(التاجر) ـ اذا كانت الرغبة انتهت بك الى هذا الحدّ فالأمر يسير ومعي الآن ما يكفي وأنا أقوم لك مقام «البنك» . فكم تطلب ولأيّ ميعاد تكتب

(الخليع) ـ هكذا يكون الصديق . في وقت العسر والضيق فحيّاك الله وأبقاك

(العمدة) للتاجر ـ أعطني عشرين جنيهاً تكون معي على سبيل الاحتياط

(التاجر) ـ ولك الفضل هاك سبعة عشر جنيهاً تبلغ العشرين

المطلوبة بالثلاثة التى خسرتها هنا أمامك. وألتمس منك كتابة ورقة على سبيل التذكير لا على سبيل التقييد

قال عيسى بن هشام ـ فما كان أسرع من الخليع فى استحضار الدواة والقرطاس. لإجابة هذا الالتماس. فطلب العمدةُ منه أن يكتب الصكّ عنه. ثم خرجوا والعمدةُ يجرر أذياله. ويحكّ قذاله. وخرجنا خلفهم فى الحال. نتبعهم متابعة الظلال

***

قال عيسى بن هشام ـ ولما صرنا فى الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته. ويبطئ فى مشيته. ويقول ماهذا الذى أرى. من فساد هذا الورى. كأنّ ناقعاً نقعهم فى خابية. جمعتْ أخلاط الكبائر. أو غامساً غمسهم فى جابيه. وعتْ أمشاجَ الجرائر. أوَ كلما خطَونا خطوة. رأينا من الغش والمكر صنوفاً وأضرابا. أو حضرنا ندوة. شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبوابا فما أتعسَ مَن يعاشرهم. وما أنحسَ مَن يحيى فيهم. وما أشقى مَن يجاورهم. وما أسعدَ مَن يجافيهم. واغوثاهُ من الانسان. فى هذا الزمان. فقلت له قَذلكَ بل فى كل زمان:

لَنْ تستقيمَ أُمورُ الناسِ فى عُصُرٍ   ولا استقامتْ فَذَا أَمْناً وذا رُعُبَا

ولا يقومُ على حقّ بنو زمنٍ   مِن عهدِ آدمَ كانوا فى الهوى شُعُبا

هكذا كان بنو آدم . تأخّر عهدُهم أو تقادم . فهم على ما هم فيه أبدا . أمسِ واليومَ وغدا . ـ وما عساك تقول فى ذرية الشيخ آدم وزوجِهِ حوّاء . وقد قالت من قبلُ فيهم ملائكة السماء . « أتجعلُ فيها مَن يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماء » . ـ وما عساك تقول فى قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير والمولى قبل الامير . يهون عليه أن يقتدى ما أسفّ من الدنايا وسفلَ من المطالب . بمنطقة البروج ومجرّة الكواكب . ـ وما عساك نصف خَلقاً أفضلُ ما فى أعضائه . أكبرُ سببٍ لشقاء الخلق وشقائه :

أفضلُ ما فى النفسِ يَغْتالُها   فنَستعيذُ اللهَ مِنْ جُندِهِ

هذه المُضغة التى بفيه . ويقال إنها أفضل مافيه . لو نُسِجتْ مضغة على قدرها حُمَةُ العقارب ـ حماكَ اللهُ ـ لُحمتُها . ولُعابُ الافاعى أعاذكَ اللهُ ـ صِبْغتُها . لكانت فى جانب هذا اللسان أخفّ ضرّاً وأهونَ شرّاً . ـ وما عساك تنعت نوعاً نعتَ اللهُ واحداً منهم فى آية من الآيات . بتسع صفات : « حلّافٍ مَهينٍ همّازٍ مشّاءٍ بنميم منّاعٍ للخير معتدٍ أثيم عتُلٍّ بعد ذلك زنيم »

فأُفٍّ لعصرَيهم نهارٍ وحِندِسٍ   وجنسَيْ رجالٍ منهمُ ونساءِ

وليتَ وليداً مات ساعةَ وضعِهِ ولم يَرْتضعْ من أُمِّهِ النُّفَسَاءِ

وما يدريك أن ما رأيتَهُ من أخلاق هذا النفر . أفضل من أخلاق مَن عَلاهُمْ من سادة البشر . ولعل ما أدركتَهُ من طمع الغنيّ ومكر السمسار وخداع التبيع . وما تبينتَهُ من غش التاجر وغفلةِ العمدة واحتيال الخليع . هو دون ما تكنه صدور الكبراء وتجنه الأمراء . تحت حجاب التكلف والتطبع . ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع . وكلما اعتلى الانسان درجة في المقام . وخطا فيها خطوه الى الأمام . تقنّع لها بقناع وتلثّم بلثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسةً تحت صفائح الدّهاء . مضروحة بين جنادل الرياء . بل ربما كان أخلاهم أخلاقاً حسانا . أبلغهم في التظاهر بها زوراً وبهتانا . كان لي صاحب تراه من لسانه غضنفراً رِئبالا . يحمي عريناً ويحرس أشبالا . تتقيه القياصرة . وتخشاه الأكاسرة . فاذا كشفتَ عن قلبه . وحسرتَ عن لبه . وجدتَهُ شاةً تعطف على سخلها . وظئراً تحنو على طفلها . وأعرفُ آخر قد ضجّتْ أحرف الفضيلة من وَخزِها بقلمه . ولوكها في فمه . وهو مع ذلك يخمش وجهَهُ ويُدمي جفونه . إن سمع أنّ مُختلِساً اختلس دانقاً دونه . وفيهم مَن يملك مِن وجهه التغيّر بالانفعالات المتناقضة . والتلوّنَ بالالوان المتعارضة . فتكون دموعه

طوع إرادته . وابتساماتُهُ عند حاجته . قال حكيم لآخر ما أكثرَ ماتحوّل رُقعة الشّطرَنج وتتقلب . قال له تقلُّبُ وجهِ الانسان أعجبُ وأعجب . وقد تبقى الاخلاق الذميمة . والصفات اللئيمة . مطويّة عن النظر . محجوبة عن البصر . حتى يُتاح لها كاشف من الحوادث فينزع عنها الفِدام . ويحسر اللثام . فيظهر الطبع السقيم . ويبدو الخُلق الذميم . ومِن عوامل التبيين والبيان . فى أخلاق الانسان . الغضبُ والجُبن . أو السكر والحزن . ونحن الآن فى ساحة السكر فهلمّ بنا نلحق بأصحابنا . فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون . وسمعناهم وهم يتحاورون :

(العمدة) ـ دعونى من هذا كلهِ فقد صاحتْ عصافيرُ بطنى ولم يدخل جوفى اليوم شئ من الطعام سوى لقمة الصباح التى أكلتُها مستعجلاً فهيّا بنا الى السكة الجديدة نعطف على « العطفى » فانّ طعامه دسم وسمنهُ زبدة ولحمه سمين

(التاجر) ـ ماهذا « العطفى » الذى تذكره وأين أنت من كباب « الحاتى » وحمام « لوكه » أو طواجن « الفار » وأرز « العجمى »

(الخليع) ـ ماهذا الخلط ونحن فى وسط الازبكية بين « النّيوبار » و « سان جمس بار » و « اسبلندِدْبار » وفيها ماتشتهى الأَنفس وتلذ

الاعين وناهيك بهذه الاماكن ونظافتها وحسن خدمتها وعلوّ قدر الواردين عليها

(العمدة) ـ دعنا من هذه الاماكن فان طعامها لا يسمن ولا يغنى من جوع خصوصاً وأنا على هذا الخلوّ من بطنى

(الخليع) ـ وأنا لا يمكننى على كل حال أن أترك هذه الاماكن وأذهب معكما الى الحوانيت التى تشيران بها وأخشى أن يرانى بها أحدٌ ممن يعرفنى فأصغر فى عينهِ

(التاجر) ـ إذا كان الامر كذلك فأنا على رأيك

(الخليع) للعمدة ـ لامناص لك حينئذٍ فضعيفان يغلبان قويّا . فادخلْ بنا «النيوبار»

قال عيسى بن هشام ـ فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم وما خلع الخليعُ طربوشه حتى نزع العمدة عمامته وما ضرب الخليع بيده على المائدة حتى صفّق العمدة بيديه فحضر الخادم ومعه قائمة الالوان فتناولها العمدة ونظر فيها ـ نظرَ المريض الى وجوهِ العُوَّدِ ـ ثم ناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل فيها وشرع يسرد الألوانَ حتى انتهى منها والعمدة لاهٍ عنه والتاجر منصتٌ اليه

(الخليع) للعمدة ـ ماذا تحب وتختار

(العمدة) ـ أختار المرق ومن بعده لحم الفرن

(التاجر) ـ وأنا أطلب كباباً وقرعاً وأرزاً

(الخليع) ـ وأنا أختار فاتحة الطعام أولاً ثم خلاصة اللحم بالبيض وأرزاً بفاكهة البحر ودجاجة بعش الغراب وسماناً بالكمأة وهليوناً بالزبدة

(العمدة) ـ ماهذه الاسماء الغريبة

(الخليع) ـ هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها

(التاجر) ـ «كُلْ ما يعجبك والبسْ مايعجب الناس»

قال عيسى بن هشام ـ فيذهب الخادم ويجيء للخليع بفاتحة الطعام من زيتونٍ وفجل وسمك ملحٍ وزبدةٍ . فيتأمل العمدة فيها ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول . أزبدة وسمك . فيطلب الخليع سواها ثم يأتي الخادم بصحفة المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز وعطف على خبز الخليع يأكل منه فيأتيه الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفتّه في صحفة المرق حتى تمتلئ وتفيض على المائدة . ثم إنه انحنى فأنحى عليها وصفّق يطلب صحفة أخرى وخبزاً آخر وهو يميل في هذه الأثناء على طعام الخليع فيأخذ قطعةً من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين

فتفلت منه الى الارض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ثم يأخذ جزءاً من عش الغراب فيقضم منه فلا يألفه فيمجّه ويتفله ثم يرده الى صحفة الخليع ثانية ويقول : ماهذه القشور التي يطبخونها هنا وهي عندنا شائعة على الجسور يفحص عنها الخنازير في الارض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها انسان ولا حيوان . ثم يأتي الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء الوعاء فيعاود الطلب فيملّ الخادم ويقول له: انما أنت هنا تاسدى في مطعم لا في مخبز

(الخليع) للخادم ـ ماهذا الكلام البارد يا «جورج» أليس لكل شيء ثمن هنا ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد

(الخادم) للخليع ـ لا مؤاخذة فان كلامي ليس موجهاً اليك

(الخليع) ـ إن لم يكن الكلام لي فهو لصاحبي وصاحبي هذا أعزّ عليّ من نفسي

(العمدة) ـ دعهُ يأتِ لنا بخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول مع أنه يقال ان هذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً

(التاجر) للخادم ـ أعطني أيضاً لوناً من الخضر

(العمدة) للخليع ـ قلْ للخادم يحضر لي مع لحم الفرن خل بصل

(الخليع) ـ كل شئ يجوز الا أكل البصل فى هذه الليلة

(العمدة) ـ لا مؤاخذة فان النفس الملعونة ذهبتْ اليه من غير تروٍّ

(التاجر) للخادم ـ إئتِ لى بشئ من الحلوى أو الفاكهة

(العمدة) ـ اذا كان فى الفاكهة برتقان أو بلح فأعطنى منه

(الخليع) ـ ولا تنس يا « جورج » ان يكون فى نصيبي من الفاكهة « مانجو » و « قشطة خضرا » وموز و « أناناس »

(العمدة) للخليع ممازحاً ـ ومَن قال انك لست من الناس

(الخليع) للخادم ـ هات زجاجة نبيذ أخرى بغبارها

قال عيسى بن هشام ـ ولمَّا حضر الخادم بالفاكهة وانصرف أسرع العمدة بيده اليها فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسّها فى جيبهِ وهو يقول : هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد . ثم حضر الخادم بآنية من البلّور الملوّن فيها ماءٌ وقشرُ ليمونٍ فوضع أمام كل واحدٍ منهم إناءً فهمَّ العمدةُ بشرب إنائهِ فى الحال فبادر الخليع ونزعه بيده عن فمه

(العمدة) ـ لماذا تمنعنى عن شرب هذا « الخشاف » وقد أنعشتْنى منه رائحةُ الزهر

(الخليع) ـ هذا ياسيدى ماءٌ لغسل أطراف الاصابع بعد الأكل

(التاجر) ـ مَنْ عاش رأى

(العمدة) للخادم ـ الحساب يا « خواجا »

(التاجر) ـ القهوة

(الخليع) ـ الخلاَل مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة.

ويأتى الخادم بجميع هذا فيتناول العمدةُ ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها الى مكانها ويأخذ أخرى فينكش بها أُذُنه ثم يمسح ما علق بها فى غطاء المائدة ثم يلتفت الى الخليع ويطلب منهُ أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميّته

(الخليع) ـ أربعون فرنكاً

(العمدة) ـ اقرأ جيداً فان هذا غلط فاحش

(الخليع) ـ قد قرأت وحسبت وأعرفُ أنهم لا يغالطون هنا

(العمدة) ـ ماهذا النهب والسلب وماهذا الاسراف والتبذير لو كنا ذهبنا الى مكان من الاماكن التى عدّدناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل. ولو كنا توجهنا الى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من الاكل ما يكفينا بغير ثمن لأن فى غرفتى برمة أرز بحمام مما أحضرته معى من البلد. ولا أشك فى أن الخادم يريد أن يستغفلنا فزاد فى

الحساب ما أراد وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسي ولا أدفع هذا الحساب. وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة فانه يهون عليّ ان أبدّد عشرة جنيهات في الهباء ولا يهون عليّ ان أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس

ثم إنه رَفع قدحَ النبيذ وهو في حدّته فصكّ به قدحاً آخر ممتلئاً لاستدعاء الخادم فانقلب الكأس وأُهرِق النبيذ على غطاء المائدة فحضر الخادم فعزّ عليهِ ما رأى

(الخادم) ـ ما هذه الليلة السوداء

(العمدة) ـ هذا ما أقوله أنا أيضاً فقلْ لي ما هذا الغلط في الحساب وهل تريدون ان لا يدخل محلّكم بعد اليوم أحد

(الخليع) ـ هل في الحساب غلط يا « جورج »

(الخادم) ـ وأيّ غلط يكون في الحساب بعد الذي حصل وهذا هو بيان الثمن أمام كل صنف

(العمدة) ـ أيّ حساب وأيّ بيان ولكنك أنت الكاتب له

(الخادم) ـ نعم أنا الكاتب له ولكنك أنت الآكل له

(العمدة) ـ وهل أكلنا أربعين صحناً حتى ندفع أربعين فرنكاً

(الخادم) للخليع ـ أرجوك ان تقنعه

(العمدة) ـ وهل أنا جاهل حتى يقنعنى

(الخليع) وهو قائم ـ حاشا لله ياسيدى

(التاجر) للخليع ـ الى أين

(الخليع) ـ أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً جديداً أريد أن أقرأه

(الخادم) للعمدة ـ أعطنى الحساب ولا تعطلنى عن الشغل

(العمدة) ـ هاك عشرين فرنكاً لاأدفع سواها

(الخادم) ـ ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله

(التاجر) ـ زِدْهُ فرنكين

(الخادم) ـ لقد كان الأَوْلَى بكم ان تأكلوا فى غير هذا المكان مادمتم بهذه الصفة

(التاجر) ـ لا تغلط يا « خواجا » فان حضرته يأكل فى مثل هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يحب الأمانة ويكره الاستغفال

(الخادم) ـ وهل أنا خائن . وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك

(التاجر) للعمدة ـ حقيقة إنه لقليلُ الحياء

(العمدة) ـ وحياتك لاأخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ

(صاحب المحل) وقد حضر مع الخليع ـ ماذا جرى

(العمدة) ـ خادمك يسرقنا ويشتمنا

(صاحب المحل) ـ هذا كلام لا يقال عن محلنا

(الناجر) ـ وذاك كلام لا يقال لنا

(صاحب المحل) للخليع ـ عهدى بك لا تصاحب الا الكبراء والظرفاء فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة وقد شاهدتُهُ من مكانى يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين . فانه كان يبلع الزبدة . ويطوى الخبز . ويمدّ يدهُ الى صحن سواه . ويعيد اليه فضلة ما يأكله . ويتناول قطعة الدجاجة من الارض فيلتهمها . ويلوّث المائدة بالمرق والنبيذ . ويمسح يدَهُ فى الغطاء . ويكسر الكاس . ويختلس الفاكهة فيضعها فى جيبه . ويهمّ بشرب ماء الغسل . وينكش أذنه بريشة الخلال . ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويغامزهنّ فقمنَ مستقبحات مستنكرات وقام كثير من المترددين على المحل اشمئزازاً من هذه الافاعيل . ولا أشك فى أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل المحل

(الخليع) ـ لا تلقّبْهُ بلقب شيخ فان سعادته من الحائزين للرتبة

الثانية وله سعى فى رتبة التمايز ولا تستصغرْ قدرهُ فهو من كبار الاغنياء فى الارياف

(صاحب المحل) للعمدة ـ لا تؤاخذ الخادم ياسعادة البك فهو على كل حال خادمك والمحل محلك

(العمدة) للخادم ـ يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل . ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لَمَازدتُ عن العشرين فرنكاً ولكنى أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لخاطرهِ عن طيب خاطر وحسن رضا

(صاحب المحل) للخادم ـ اسألْ حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيد المعرفة والمسامحة فيما حصل

قال عيسى بن هشام ـ ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دورين من الشرب لاكرام صاحب المحل فى مقابلة اكرامه لهم . فطلب العمدة ثم طلب . وشرب ثم شرب . وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنّى . ويتثاءب ويتمطّى . ويشكو للخليع فعل الكاس . وهجوم النعاس . فيقول له هذه عادة تكون عند الامتلاء . ولا يصرفها الا كؤوس الصهباء . فهيّا بنا الآن . نذهب الى الحان . فخرجوا وخرجنا من ورائهم . نستقصى بقية أنبائهم

قال عيسى بن هشام ـ وأخذوا طريقهم الى الخان المقصود . والحوض المورود . وفيما نحن نسير . بين تقدير وتفكير . اذ التفت الباشا الى ذلك الفندق الكبير . بل الخورنق والسدير . فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة . وينابيع الضياء متدفقة . يلوح فيها زنجيُّ الليل بقميص أبيض . ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضّض . وعمد المصابيح كأنها أغصان الاشجار . أزهرت بالأنوار . مكان الأنوار . فصار كل عمود منها عمود فجر . يفجر ثغرة الدجنّة أيّ فجر . وكأن منثور الشموع فى ظلمة الحلك . منثور النجوم فى قبّة الفلك . ورأى تحتها صفوفاً من الرجال . بين صفوف من ذوات الحجال . على سرر متقابلين . وأرائك متكئين . يسعدهم الجدّ المقيم . ويرفرف عليهم الرّفه والنعيم . فطفق يسألنى : أتراه محفلاً ليوم أنس . أم زفافاً فى بيت عرس . أم تراها ليلة مهرجان . لقبيل من الجان . تسوّا تفاوت الجنس . فأنسوا الى الإنس . وهجروا جوف الأرض لظهرها . ودرجوا من بطنها الى حجرها . ـ فقلت له نعم هؤلاء شياطين الأنس يطوون البر والبحر . ويقطعون الحزن والوعر . ويطيرون فى السماء . ويمشون على الماء . ويخرقون الجبال . وينسفون القلال . ويقلبون الآكام وهادا . ويبسطون الرّبى مهادا .

ويجعلون القفار بحارا . ويحيلون البحار بخارا . ويسمعون مَنْ بالمشرقين .
أصواتَ مَنْ بالمغربين . ويستنزلون لبصرك أنأى الكواكب .
ويعظّمون فى عينك أوهى العناكب . ويجمدون الهواء . ويذيبون
الحصباء . ويستحدثون الأنواء . ويزنونَ الضياء . ويستشفّون
خبايا الاحشاء . ويستكشفون خفايا الأعضاء . — فقال لى أئنّكَ
لَتحدِّث عن جن سليمان . فى هذا الزمان . — قلت له هؤلاء سُيّاح
الغربيين أهل المدنية والحضاره . الناظرون الى الشرقيين بعين المهانة
والحقارة . فان نظروا اليهم من جهة العزة : فنظرةُ العُقاب من
شماريخ رَضوَى وثبير . الى جنادب الرمل وضفادع الغدير . — وإن
نظروا اليهم من طريق العلم : فنظرةُ معلّم الاسكندر عالم العلماء .
الى صبيّ يتهجّى فى العين والياء . — وإن نظروا اليهم من باب الصناعة :
فنظرةُ « فِيدْيَاسَ » صانِع التماثيل والدُّمى . الى بنّاءٍ يقيم أكواخَ
القُرَى . — وإن نظروا اليهم من جهة الغنى : فنظرة صاحب المفاتيح
التى تَنُوءُ بالعُصْبة . الى أجير ينضح عرقاً تحت القربة . — وإن
نظروا اليهم من جهة الفضائل النفسانية : فنظرةُ الحكيم « سُقْراط »
شارب السم غراماً بالفضيلة . الى الشرّير « أرِسطُرَاط » . حارقِ
المعبد ولعاً بالرذيلة . — تلك دعواهم فى نفوسهم . وقولُهم بأفواههم

والفعلُ يشهدُ بيننا أنهم نُهّابُ الآفاق . وسُلّابُ الارزاق . وقطّاعُ الدهناء . وفُتّاكُ الدهماء . وقَرَاصِينُ الدأماء . وسفّاكُ الدماء . اؤلئك هم الذين يخادعوننا بِزِبْرِجهم . ويبهروننا بِبَهْرَجهم واؤلئك هم الذين نَطقَ الكتاب فى أمثالهم بقوله : « سَحَرُوا أعينَ الناسِ واستَرْهَبُوهُمْ وجاؤا بِسحرٍ عظيم »

وهم فى رحلتهم الى الشرق على ضربين : أهل الفراغ والجِدة الذين أبطرهم الغنى وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية ولم يبق فى أعينهم جديد فانتقمت منهم الطبيعة فى خروجهم عن سننها فسلّطتْ عليهم داء الملل والسأم فأصبحوا على وجوههم هائمين فى الاقطار والبلدان وحطّتهم القدرة الى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل فى البلاد المنحطة عنهم فى درجات المدنية والاقامة فى الاقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية . والضرب الثانى منهم : أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاص يستعملون علومهم ويُعملون افكارهم فى احتلال البلدان وامتلاك البقاع ومنازعه الناس فى موارد أرزاقهم ومزاحمة الخلق فى أرضهم وديارهم فهم طلائع الخراب أدهى على الناس فى السلم من طلائع الجيوش فى الحرب

قال عيسى بن هشام ـ وانقطع الحديث بدخول اصحابنا فى الخان .

واصطفافهم حول الدنان. فأخذنا مجلسنا بقربهم ننظر مايصنع بهم. واذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال. ويبادر الخادم بالسؤال:

(الخليع) للخادم ـ ألم يشرف دوله البرنس هنا فى هذه الليلة

(الخادم) ـ هو فى داخل المكان وسيعود الى مجلسه فى الحال

(العمدة) مندهشاً ـ هل يجئ هنا البرنسات وهل يليق بنا ان نجلس للشرب فى مكان يحضرونا فيه. فلمَ اخترتَ هذا المحل ولمَ لانذهب الى محل سواه

(الخليع) ـ لا بأس علينا هنا وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج من هنا الا والبرنس مُصافحك ومُجالسك

(العمدة) ـ لاتهزأ بى ولاتمزح فأين نحن من البرنسات

(التاجر) للعمدة ـ لاتستبعد ذلك فقد سمعت ان لبعض البرنسات أخلاقاً واسعة ونفوساً تُرابيّة ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم فى مجتمعاتهم ومعاملاتهم

(العمدة) للخليع ـ وهل لك معرفة سابقة به

(الخليع) ـ كيف لا أعرفه ولى معه جلسة فى كل ليلة وكثيراً ما أوصلتُهُ آخر الليل الى قصره

(العمدة) ـ انك لَتبالغ

(الخليع) - لا مبالغة ودونك البرهان

قال عيسى بن هشام - ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس الى مجلسهِ فيومئ البرنس اليهِ بالسلام فيتبعه الى مائدة عليها صنوف وألوان من الخمر والنّقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه بصوت يسمعهُ العمدة من مكانه :

(الخليع) - لازال افندينا فى أسعد حال وأنعم بال

(البرنس) وأين أنت فقد سألت عنك مراراً

(الخليع) - أنا فى الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه وما منعنى عن المبادرة الى مجلسكم العالى الاّ اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمد الارياف والآخر من تجار الثغور لَصِقَا بى للبقاء معهما وألَحَّا علىّ أن أصحبهما

(أحد الجلساء) ممازحاً - لا بل تسحبهما

(البرنس) منكّتاً - وهل هنا زريبة ياسيّد

(جميع الجلساء) ضاحكين - لله درّ افندينا فى هذه النكتة فما ألطفها وأرقّها

(البرنس) - أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفنى منه بعض كلمات فى بعض الاوقات

(أحد الجلساء) لآخر ـ انظرْ بالله ياأخي حدة البرنس في لطافته وشدّته في رقته وقوة إدماجه في ألفاظه

(الجليس) ـ وأنت ماشاء الله ماأفصحك الليلة في تعبيرك وما أبلغك في كلامك أأنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد

(البرنس) للخليع ـ ماذا تشرب

(الخليع) ـ العفو ياموى فلا بد من الرجوع الى صاحبيَّ أولا حتي أتخلص منهما

(البرنس) ـ وهل هما من الاغنياء المعتبرين

(الخليع) ـ أماالعمدة فانه يمتلك ألف فدان . وللتاجر في بلده أعظم خان . وللعمدة عشرةوابورات للري وعنده الرتبة الثانية . وللتاجر وابور للحليج وعنده وعدٌ بالثالثة

(البرنس) ـ لاتحرمنا من وجودك ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا

(أحد الجلساء) لآخر ـ قمْ بنا نفسح لهما

(الجليس) ـ انتظرْ قليلاً حتى يأتي « الدور » المطلوب مع صحن بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً

قال عيسى بن هشام ـ وينصرف الخليع الى صاحبيه لاحضارهما

فينهض له العمدة واقفاً لتبجيله وتعظيمه فيسقط من يده « فم السجارة » على الرخام فينكسر فينحنى الى الارض يجمع شظاياه ويظهر عليه من الاسف والكدر مالا يقدّر فيجرّهُ الخليع اليه ويقول لهُ :

(الخليع) ـ لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الاسف لأجل هذا « الفم » فان البرنس ينظر الينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه

(العمدة) ـ ليس أسفي على « الفم » في ذاته بل لانه تذكار عندى من حضرة مأمور المركز كنت أهديتهُ فرساً فأهدانى إياه فهو ثمين عندى من هذه الجهة . ولكن قل لى كيف يدعونى دولة البرنس اليه وكيف ذكرتنى له

(التاجر) ـ أى نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لى ذكر عنده أيضاً

(الخليع) ـ قد قلت ماقلت وذكرت ماذكرت ويقال فى المثل أرسلْ حكيما ولا تُوصه

(العمدة) ـ أُحب أن اسمع تفصيل مادار من الكلام بشأنى فانى رأيتهُ يضحك كثيراً وأنت تكلمه

(الخليع)ـ أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمتهُ من أجره

(التاجر) ـ وعلى ذكر السمسار هل تعلم ان دولة البرنس باع قطنه فى هذا العام

قال عيسى بن هشام ـ فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس فطأطأ العمدةُ الى ركبة دولته فدفعه بيده فاستلمها العمدة وقبّلها مراراً بطناً وظهراً فتبسم له البرنس وأشار اليه بالجلوس فامتنع واستمر واقفاً ويداهُ الى صدرهِ حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبهِ بعد شدة الإلحاح

(البرنس) لأَحد جلسائه ـ لا تنسَ ان تذكّرنى غداً تصوير الفرس «سيرين» فان « الدوك بروك » أرسل الى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها فى معرض السباق بلوندرة

(الجليس) ـ الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار فى اليوم الذى عيّنه أفندينا له للغداء مع مفتش الرى

(البرنس) للعمدة ـ ماذا تشرب ياحضرة الشيخ . . . يابك

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر ـ ألتمس السماح يامولاى فانى لا أشرب شيئاً

(التاجر) متململاً من الألم ـ العفو يا أفندينا أستغفر الله ـ فان ذلك لا يليق فى حضوركم

(البرنس) ـ لماذا جئتما هنا إن لم تشربا

(الخليع) ـ يَشربانِ حسب أمر دولتكم فالامتثال فوق الادب

قال عيسى بن هشام ـ ويتناول الخليع «علبة السجارات» من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدةً وللتاجر واحدة فيتحاشى العمدة إشعالَهَا فى حضرة البرنس ظاهراً ـ وغرضُهُ الباطن إبقاؤها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه ـ ثم يأتى أحد باعة الزهور فيهمس في أذن البرنس بكلام يقهقه له ويأمر الخادمَ ان يعطيه كأساً فيشربه وينصرف . ثم يلتمس الخليع من البرنس ان يسمح للعمدة بطلب زجاجة من «الشمپانيا» فسمح لهُ ويلتفت الى العمدة يخاطبهُ بقوله :

(البرنس) للعمدة ـ كيف حال المحصول عندكم . وكم رَمى الفدان من القطن

(العمدة) ـ رَمى الفدان عندى سبعه بأنفاس دولتكم

(التاجر) ـ المحصول جيّد ولكن الاثمان فى هبوط . وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هى باقية

(البرنس) لأحد جلسائه ـ أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناهُ اليوم أكثر من عشرين جنيهاً . ولو كان عليه تاريخ صنعهِ لدفعتُ مايطلبهُ صاحبك فيه

(الجليس) ـ لا بأس به لحدّ الثلاثين

(البرنس) ـ ما الذى تراهُ فى مسابقة الخيل غداً

(الجليس) ـ أرى فرس البرنس سابقًا بغير شك

قال عيسى بن هشام ـ ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة الى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه وقدّمها الى البرنس وفرّق البقية على الحاضرين . فجد أحدهم صوفًا متلبداً فى الموز فيعافهُ ويتركه على المائدة

(أحد الجلساء) للعمدة ـ هل هـذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه فى الصوف عندكم

(العمدة) ـ كلاّ ياسيدى بل هو موز « النيوبار » ولم يمكث فى جيبى غير مسافة الطريق ومعى أيضًا برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضرا

(أحد الجلساء) ـ أظن ان لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة

(التاجر) ـ حضرته لا يشتغل بالتجارة وليس كل الناس من يقدم عليها فهى ربح محفوف بالخطر

(العمدة) للخادم ـ أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى

(أحد الجلساء) لآخر ـ يظهر أن الفدان رَمَى بعشرة

(الجليس) ـ فى البنك العقاري

(البرنس) ـ وما معنى انكليزى

(الجليس) ـ يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام ـ وفى هذه الاثناء يعود بائع الزهور فيلقى فى أذن البرنس كلاماً فيقوم البرنس فى الحال ويخرج والبائع فى أثره ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً فلا يبقى منهم أحد . وتخلو المائدة للعمدة فيشرب سُؤْرَ الكاس التى تركها البرنس ويميل على مابقى فى آنيـة النقل فيأتى عليه أكلاً

(التاجر) للعمدة ـ ينبغى أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس

(العمدة) ـ أنا لا أطلب شيئاً الا فى حضور دولته

(الخليع) ـ أظن أن دولته لا يعود فى هذه الليلة . وهذه عادته اذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته

(العمدة) ـ ولكننى لم أره دفع شيئًا من الحساب

(التاجر) ـ لعل لهُ هنا حسابا جاريا

(الخليع) ـ نسأل الخادم

(العمدة) للخادم ـ ألم يدفع دولة البرنس شيئًا

(الخادم) ـ لم يدفع شيئاقبل خروجه

(الخليع) ـ وكم الحساب

(الخادم) ـ مائة وواحد وعشرون فرنكا

(العمدة) ـ انا لا أصدّق ان أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب . ومع ذلك فلننتظرْ عودته

(الخادم) ـ اذاقام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود وإن اردتَ ان لاتدفع ثمن ماشربه البرنس فأنا أقيده فى حسابه

(العمدة) ـ وأنا اذا كنت أدفع شيئًا فلا أدفع الا ثمن ما شربه دولة البرنس وحده

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات فينهض العمدة لمقابلتهِ ويلحّ عليه فى الجلوس معه ثم يلتفت الى الخادم بصوت عال:

(العمدة) ـ علىّ بتفصيل الحساب وبيّنْ لى فيه ما شربه دولة

البرنس .. وما أكلهُ دولة البرنس .. وبكمْ شرب اصحاب البرنس وكم شربنا مع البرنس .. وكم شرب قبلنا البرنس . واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب وعُدْ لا دفع لك كل الثمن المطلوب

(الوكيل) ـ انا لا اشرب شيئاً

(العمدة) ـ كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة البرنس ارضاءً لخاطرنا

(الوكيل) ـ لا بأس أن اشرب كأساً واحداً من «الكونياك»

(العمدة) ـ لا واللهِ لا تشرب الا «شمبانيا» كما شرب معنا دولة البرنس

(الخليع) للعمدة ـ لماذا لم تقدّمنا للتعارف بسعادة البك

(العمدة) سعادته وكيل مديريتنا . وحضرته (مشيراً الى التاجر) من أكابر التجار . وحضرته (مشيراً الى الخليع) من ظرفاء مصر

(الخليع) للوكيل ـ تشرفنا بهذه المعرفه وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابي وطالما قضينا معهُ أوقات أنس وسرور

(العمدة) للوكيل ـ أظن ان سعادتكم حضرتم الى مصر في عقب كشف الرتب المقدّم الى الداخلية

(الوكيل) ـ نعم كنت اليوم في الداخليـة وسينتهي الامر ان

شاء الله على ما نحب

(العمدة) للخادم — زجاجة شمبانيا أخرى

(الوكيل) — يكفى فانى أريد ان انتقل برهة الى داخل المكان فى مجلس اخواننا القضاة ووكلاء النيابه

(الخليع) — لالزوم لانتقال سعادتكم فأنا ادعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز اصدقائى

(الوكيل) — لاتكلف خاطرك بذلك فان الأليق أن أذهب للجلوس معهم

(العمدة) للوكيل — اذا كان الامر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك

(الوكيل) — ان أردتَ ذلك فلا بأس

قال عيسى بن هشام — فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون فيشدّد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكراً إلا شربوا معه ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليع ليشرب معهم فما يكاد يضع الكأس فى فيه حتى تأخذه غصةٌ فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتتلوّث ثيابه ويبادر الخليع مع الخادم الى

سحبه داخل المكان ليصلح مافسد من أمره

ثم لبثنا مدة . ننتظر العمدة . ونترقب له الرجعة والعودة .
حتى أقبل يتهادى فى مشيته . بعد أن أفاق من غشيته . وعمد الى
الخروج والخليع عن يمينه يناجيه. والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه

* * *

قال عيسى بن هشام ـ ولما خرجوا من ذلك المحل . ونحن
أتبع لهم من الظل . سمعنا العمدة يشكو للخليع فى طريقه . ماتجده
من انقباض الصدر وضيقه . ويسأله التفريج لكربه . والترويح
عن قلبه . ويذكره بما كان من الوعود . ويطالبه بزيارة ذلك
المجلس الممدود. ويقول له : تالله لقد أنصبتنا واجهتنا . فهلم بنا الآن
الى ماوعدتنا لنزيل عنا الهم بربيات الخدور . ونكشف عنا الغم
بكاسفات البدور . ونجلو أعيننا بنجل العيون . وننعش أنفسنا
بناعسات الجفون . ونصتبح ليلتنا بالوجوه الصباح . قبل أن
يصبحنا جيش الصباح . . فيقطع عليه الخليع كلامه . ويدفع عن
نفسه ملامه . بأن طول الانتظار . يذهب بحسن الاصطبار
ولا صبر لذوات الدلال . على خلف الوعود من الرجال . وقد
جاءنى رسولها فى غفوتك برسالة . تشكو فيها مالحقها من السآمة

والملالة . وتُنحِى علىّ بالعتاب المر . وأنّ مافعلتُهُ معها ليس بفعل الحر . إذ اخترقتْ من أجلنا ما اخترقتْهُ من السجوف والكِلَل . وتحملتْ في مجيئها ماتحملتْهُ من الخوف والوجل . حذر الوشاة والرُّقباء . وخشية الاهل والقرباء . ثم انها أقامت طويلاً فى انتظار اللقاء . وهى على مثل حر الرمضاء . فاذا الوعد بلاوفاء . واذا الدَّين بلا قضاء . وكأنما كانت تنتظر غائباً لا يؤوب . وتستمطر سحاباً لايسحّ ولا يصُوب . فذهبتْ بحسرتها . ومضت لطِيَّتِها . وفاتنا ما كنا نبتغيه . وأيأسَنا ما كنا نرجيه . وتلك فرصة أضعناها . لنزغة شيطانٍ أطعناها . . فيقول التاجر : اذاً ما الذي اكتسبناه . بعد الذي احتسبناه . وماذا أفدناه . بعد الذى فقدناه . وأين منّا ما نجمع به شملَنَا . ونبدّد به ليلَنَا . . فيقول له الخليع : لم يبقَ أمامنا فى هذه الساعة . سوى ملاعب الرقص والخلاعة . عسانا نجد فيها بديلا . مما لم نجد اليه سبيلا . فيُخرج العمدة دراهمه فيعدّها . ثم يخشخش بها ويردّها . فيقول له التاجر : لا تهتَم . فدرهمُ الأُنسِ ميسّر . ويقول للخليع : تقدّمْ . فما من شيء عليك معسّر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء . الى حانٍ للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم . وجلسوا وجلسنا فى صفهم . فرأينا المكان حومةَ وغًى احتدم

وَطيسهُ . وميدانَ حربٍ اصطدم خميسهُ . عجاجتهُ الدخان . ومتارسهُ الدّنان . وسلاحهُ الاباريقُ والاقداح . ودروعهُ الغلالة والوشاح . ونبالهُ أصمّةُ القوارير . وطبولهُ توقيع العيدان والمزامير . ومغافرهُ العصائب والاكاليل . وأعلامه المآزر والمناديل . وقوّادهُ وشجعانه . قوّاده وغلمانه . وكأن منصة الرقص هي حصنهُ الحصين . وصاحب الحان هو قائد الكمين . وكأن المغنين هم الكماةُ والاقران . والراقصاتِ الحماةُ والفرسان . وحركاتهن بالردف والخصر . هي حركات الحرب في الكر والفر :

أُولاتُ الظّلْمِ جئن بشرّ ظُلْمٍ   وقد واجهننا مُتَظلّمات

فوارسُ فتنةٍ أعلامُ غيٍّ   لقينَكَ بالاساورِ مُعْلِماتِ

وترى كلَّ ذات ثديٍ حاسر بارز . تنادي هل من منُازل أو مبارز . ثم تتبختر وتجول . وتخطر وتصول . فترمي كلّ طامعٍ في وصالِها . بسهام اللحاظ ونصالِها . ثم ترشق بها الدنان تارةً فتسيل بدم العقار . وتشقّ بها الجيوبَ أخرى فتسيل بدم النُّضار :

وقد أُغمِدْنَ في أُزُرٍ ولكنْ   سيوفُ لحاظهنّ مُجرّداتُ

قَدحنَ زنادَ شوقٍ من زُنودٍ   بنارِ حُليّها مُتوقّداتُ

وترى في وسط تلك المعركة . من كل هَلُوكٍ مُهلِكة . تنساب في حُلة

رقصها ونسعى. كأنها حية فى قميصها أو أفعى. لُعابُ الافاعى القاتلات لُعابُها. وأنيابُ الأسود الضاريات أنيابها. تنفث السم رائحةً وتنهش غادية. وإن رأيتها شادنةً وسمعتها شادية. فترى القومَ فيها صرعَى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية

قال عيسى بن هشام — ولما طال جلوسنا وضاقت أنفاسُنا وكاد يُغمى علينا من كريه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدةِ من اكنافه: رائحةِ عكَر الخمور. ورائحةِ عرَق الابدان. ورائحة زيت المصابيح. ورائحة الدخان والحشيش. ورائحة أنفاس المخمورين. ورائحة تلك المراحيض التى لم يدخلها ماء. ورائحة الارض التى تُسقَى بالاقذار ولم تسطع فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء. فاذا امتزجتْ هذه الروائح بعضها انعقدت منها فى جو المكان سحابة سوداء تمطر الادواء وتُساقط الاوباء فتستنشقها الانوف وتمتصها الرئاتُ وتضوَى بها الاجسام وتتضاءل منها ذُبالاتُ المصابيح تضاؤلَها فى أجواف المناجم وبطون الكهوف. وكاد الباشا يختنق وهمَّ به الغثيانُ فهمَّ للقيام فأمسكتُ به وقلت لهُ:

(عيسى بن هشام) — أيصبر مثلى على هذا المقام ولم أشهد فى عمرى معركةً ولم أحضر معمعةً ثم يجزع منه مثلك وقد مارستَ

الحروب وشاهدتَ الوقائع تحت سُحُب العجاج وفوق جثث القتلى وأشلاءِ الجرحى لا تبالى برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجا بصدأ الحديد

(الباشا) — لقد كان ذلك ولكن فى الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس وتجرى الرياح . ولم أستنشق تلك الروائح منحصرة كانحصارها فى هذا المكان . ومع ذلك فانى اتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شيءٌ فيما نحن بصدده من بداية الامر الى نهايته

وبينا نحن كذلك اذا بصديق لى دنا منى فسلم علىّ وأظهر لى تعجبه من دخولى الى هذا المحل فأظهرتُ له تعجبى من دخوله أيضا فأجابنى بقوله :

(الصديق) — ان السبب فى دخولى هنا هو البحث عن رجل احتال علىّ فى بعض الشؤون ثم غاب عن نظرى وأنا أعلم أنه يأوى الى مثل هذا المكان فدخلتُهُ على كرهٍ منى بعد أن حرّمتُ على نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد . وحكم الضرورة مطاع ولكن قلْ أنت ما الذى جاء بك الى هذا الوكر وكرِ الافاعى وأدخلك فى هذا العُش عشِّ الشيطان

(عيسى بن هشام) — أدخلَنَا فيه حبُّ الاستطلاع والاستكشاف

فى الاخلاق والعادات ولكننى فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أرى والحمد لله الذى سخرك لنا فى هذه الساعة لتبين لنا ما غمض وتبدى لنا ما يخفى

(الصديق) — لك ذلك منى وفوق ما تريد

قال عيسى بن هشام — وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فى هذا الباب ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل تمايل سكراً فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه فأعناقهم نحوها مشرئبة وأبصارهم اليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب واستمر السكران فى سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى حتى وصل الى منصة الرقص والغناء فضرب عليها مراراً بعصا فى يده ونادى على من فيها بأعلى صوته يطلب العدول عن الغناء الى الرقص فلم يسمعوا لندائه فالتفت الى زمرة من الجالسين وطلب منهم مساعدته على غرضه فنادوا معه : الرقصَ الرقصَ . ونادى الراغبون فى السماع : الغناءَ الغناءَ . فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم ويسفههم فى سوء اختيارهم فأجابه سفيه منهم

على سفاهته فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الخان من مكمنه الى السكران فأخذ بتلابيبه . ويقوم طالب الغناء حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباً وصفعاً فيتعلق السكران بخناقه وينادى : البوليس البوليس . فيجتمع غلمان الخان يجرّونه الى الخارج وهو ممسكٌ بعنق الضارب له لا يخليه حتى اذا صاروا الى الباب أدركهم جنديٌّ البوليس وألقى القبض على المتضاربين فيتعرض له صاحب الخان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له : ليس لك الا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امتلأ سكراً من الخارج يعربد فى محلنا وكأنه مأجور من أرباب الخانات الأخرى للإضرار بنا وإحداث الفشل فى محلنا . فيأبى الجنديُّ الا ان يسوق المتضاربين معاً فيغمزه صاحب الخان ليلين له فيبتدره أحد غلمانه قائلاً له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجنديّ من المصانعة وغرضنا يقضى بدونه فان حضرة معاون القسم جالسٌ عندنا داخل « البار » مع رفيقته

(صاحب الخان) للجندىّ - لم يبق لك من وجه لسحبهما الى القسم . وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة المعاون فى « البار »

(الجندىّ) - هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك . وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن فى « البار » والنوبة

عليه الليلة فى القسم

(صاحب الحان) ـ ماعليك الا أن تدخل وهما فى قبضتك لتراه بعينك فيجيب الجندىُّ صاحبَ الحان الى ذلك فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب رفيقته خالعاً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها

(صاحب الحان) للمعاون ـ لقد تعطل المحل ياحضرة الافندى فى هذه الليلة وتعطيله لا يرضيك فان هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً فعربد بين الجالسين وأخلّ بنظام الاجتماع ثم تعدَّى على هذا البائك بالشتم والضرب وهو من أجلّ المتردّدين على المحل . والغريب أن جندىّ البوليس هـذا لم يسمع لقولى فيه بل صمم على سحبه مع ذلك المتعدى الى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يليق بكرامته أن يساق مع هذا السكران الى المحاكمة

(المعاون) للجندىّ بعد أن يلبس طربوشه ـ ما هذا الذى أسمعه

(الجندىّ) رافعاً يده بسلام التعظيم ـ لم أعلم بوجود حضرتكم هنا والامر اليكم

(المعاون) للجندىّ ـ اذا كان الرجل السكران فى حالة سكر بيّن نخذهُ وحده الى القسم ومادام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء

بشهادة حضرة الخواجه فلا لزوم لذهابه معك ويكفى ان حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً الى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران

(وعند ذلك يدفع صاحبُ الخان بالسكران الى الخارج مع الجندى)

(الجندى) ـ اذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك ياحضرة الخواجه فليس يكون حضرة المعاون عندك فى كل ليله . والايام بيننا

(صاحب الخان) ـ أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك فى دوام الرعاية بك

قال عيسى بن هشام ـ وخرج السكران أمام الجندى مدفوعاً فى ظهره يقع ويقوم ويستعدى ويستنجد . وعدنا الى داخل الخان ننظر ما يجرى فيه فاذا صاحبُ الخان ومعه البك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكؤوسُ تغدو عليهم وتروح . فجلسنا ناحيةً نستمع لهم ونؤثر مايجرى من حديثهم على نحو ماترى :

(صاحب الخان) للمعاون ـ لماذا أوعزتَ الى صاحبتك بالقيام عند جلوسنا معك

(المعاون) ـ أنا لم أوعز اليهابشئ ولكنها هى التى قامت مُغضبة

(صاحب الخان) ـ ولأىّ سبب أغضبتَها

(المعاون) ـ لم آت سبباً يغضبها بل هى التى انتحلت سببا كدرتنى به وكدرتْ نفسها أيضاً

(صاحب الخان) ـ لاشك ان ما حصل هو من باب الدلال دون سواه وسأدعوها فى الحال لعقد الصلح بينكما

(المعاون) ـ لادخل للدلال هنا ولكن جرى فى أمر حضرة البك والسكران ما هو على خلاف هواها فانها كانت ترغب فى التضييق على الاول والتفريج على الثانى لان حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنية والمغنيةُ من ألدّ أعدائها

(صاحب الخان) ـ لقد حرتُ فى أمر هذه الفتاة فان ضروب حماقتها لاحدّ لها وفى كل ليلة تأتينى بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه مالاً يعوّض من خسارتى ولولا منزلتك عندى ومنزلتها عندك لَما أبقيتها فى المحل يوماً واحداً ولا تكبدت إعطاءها فى كل شهر مقدارَ ما يأخذهُ وكيل المديرية مرتباً من الحكومة . ولوشاهدتَ منها ما أشاهده كل ليلة من تسافهها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك وارتكاناً على مساعدتك لعلمتَ مقدار حماقتها وجنونها

(المعاون) ـ نعم ان حماقتها عظيمة وطالما أكّدتُ عليها باجتناب المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال ان علاقتها بى هى التى تجرّئها على ارتكاب ذلك . ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح

(صاحب الحان)ـ صدقت وهى مع ذلك تحبك حباً صادقاً

(وهنا تدخل المغنية فى البار بعد انتهائها من الغناء فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليهِ أمر المخاصمة مع السكران فيقول لها) :

(البك) ـ أنا فى غاية التشكر لحضرة المعاون الذى أنصفنى وفى غاية التكدر مما وقع له من فلانة بسببى فانها اهتاجت غضباً لما علمت بمساعدته لى وهى تبغضنى لعلاقتى بكِ . فبحياتى عليكِ الا ماقبلت التوسط فى الصلح بينكما وإزالة مافى النفوس فتعود راضية على حضرة المعاون ويتم الصفو لنا جميعاً

(صاحب الحان) ـ أنا أوافق على هذا الرأى

(المعاون) ـ وأنا لا أرفضه

(البك) ـ وأنا أرسل فى طلبها

قال عيسى بن هشام ـ وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسةً مع المعاون وأصحابهِ فتشتعل جذوة نارٍ من الغضب وتنقلب لَبُؤَةً

هاجت لفقد أشبالها فتشتم وتسبّ وتقذف وتلعن وتتفل وتبصق وتنقضّ على المغنية فتأخذ ببرقعها فتزيلها عن مكانها وتلتفت الى المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ثم الى صاحب الخان فتتهدده بأنها لا ترقص في ليلتها. فلا يسع صاحب الخان الا أن يتلافى الفضيحة فيجرّها الى خارج البار بالقوة ليتمكّن المعاون أن يتسلل هاربا. ثم أخذ ينصحها ويحذّرها ويقول لها ان المعاون قد ذهب الى القسم الآن وقلبهُ مملوء منك حقداً وغيظاً فاذا أنت لم ترجعي عن حماقتك وتصعدي الى المنصة للرقص أوعزتُ الى المغنية أن تمسك بكِ وتذهب معكِ الى القسم والحاضرون يشهدون أنكِ تعدّيتِ عليها بالضرب والمعاونُ هناك ينظرك للتشفي منكِ

قال عيسى بن هشام ـ فوقع هذا القول منها وقع الماء في النار. وإنذار الحجز على أهل الدار. فهدأ جأشها. وسكن طيشها. وصعدت للرقص على منصتها. تتأوّهُ من حسرتها وغصتها. وعدنا للجلوس أمام الميدان. ننظر ما يكون من الغلبة والخسران

قال عيسى بن هشام ـ وجاء دور الرقص فضجت الغوغاء. واشتدت الضوضاء. وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق. واشتغلت الاكفُّ بالتصفيق. ترحيباً وتأهيلا. وتكبيراً وتهليلا.

اذ قامت على المنصة هلوك . ورهاء . عمشاء مرهاء . فطساء فوهاء . عجفاء شوهاء . مزججة الحاجبين . محمرة الخدين . مبيضة الساعدين . مخضبة البدين . قد ألبست وجهها من الطلاء نقابا . وأسدلت على أطرافها من الدهان ثيابا . بأصباغ شتى وألوان . بين أبيض ناصع وأسود فاحم وأحمر قان . تتلون تلون الحرباء . في هجير البيداء . وقد وارت ماتعرض من جسمها . وتعرى من لحمها . بأنواع العقود والقلائد . والأساور والمعاضد . والدمالج والجلاجل . والمناطق والخلاخل . فأخذت في الرقص والحجلان . على توقيع الضروب والألحان . وبجانبها خادم ماشككنا من قبح هيئته . أنه إبليس اللعين في طلعته . ركبت منه أقبح هامة . على أسوإ قامة . بوجه قد قد من الصخر . وعين كعين الصقر . وأنف كمنسر النسر . وفم يرمى بالزبد كالبحر . وشفة مهدولة . وعمامة مجدولة . وفي يمينه قدح وإبريق . يسقيها منه بكأس من حريق . لا بكأس من رحيق . ويعاطيها من غسلين أو قطران . ويجرعها من حميم آن . وكلما أترع لها كأسا . همست في أذنه همسا . ثم تشير بطرف الكف . الى بعض الجلوس في أول صف . فيصيح اللعين صيحة الأسد في عريسته . وقع بصره على فريسته . فيجيبه

غلام الحان جذلاً وابتهاجا . ويأتيه بالزجاجات أزواجا . فيفضّ عنها الفدام . ويصففها أمامها تحت الاقدام . ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب . وهي تشرب وتطلب . لا تكتفي ولا تقنع . ولا تروى ولا تنقع . كأنما تمتح لها من قليب . ويصبّ في وادٍ جديب . أو يملأ من ماءٍ منبثق . ويفرغ في دنٍّ منخرق . فاذا دبت في عروقها نمال الخمر . واشتعلت في جوفها اشتعال الجمر . جدّت في لعبها ودورانها . واشتدّت في قفزها وجولانها . وتلوّت كالحية في طرقها . ولعبت كالسلحفاة بعنقها . والخادم أمامها ينازلها وتنازله . ويغازلها وتغازله . ويراقصها وتراقصه . ويقارصها وتقارصه . وهي ترسل على الحاضرين أقوالاً بذيئة . وتخاطبهم بألفاظ قبيحة رديئة . فتفترّ لها الثغور . وتنشرح الصدور . ليس فيهم الا كلّ مستحسن مستزيد . ومستملحٍ مستعيد . الى أن تخور قواها . وتغور عيناها . وتتقلّص شفتاها . ويكلح شدقاها . وينضح العرق من أطرافها وتراقيها . وينعقد الزبد بنحرها وفيها . فتضطر الى إزالته . وتعمد لإزاحته . فتتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها . فيتلوّن بأشكال الا بغة وأنواعها . فيغدو المنديل كأنه قوس قزح . بما تصبب من أديمها وارتشح . وينكشف التمويه والتلبيس . ويفتضح التلفيق والتدليس . فيظهر ما بطن

ويبرز ما كمن . وتنقلب الى صورة سَعلاة . تترا آى فى سراب فلاة . أوغول . تكشر وتصول . أودُب . يهتز ويدب . فحوّلنا عنها الوجوه استنكافا واستنكارا . ولوَينا الاعناق استقباحاً واستقذارا .
ومال الباشا على الصديق يسائله فى دهشته . ويقول له فى نفرته :
أعلى مثل هذه تذوب القلوب . وتنشقّ المرائر والجيوب . وهل وصل العمى بالناس الى هذا الحد . ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد

(الصديق) — نعم ان هذه التى تهرب منها الوحوش لفظاعتها . ويتعوذ منها الشيطان لدمامتها . هى عند هؤلاء الحاضرين دُمية القصر . وفريدة العصر . كم ذهبت بأموال وأودت بأرواح وكم أضاعت شرفا وأزالت مجدا وأذلتْ رقابا وأفسدت حكاما وكم فرقتْ بين المرء وزوجه وولّدت العقوق بين الوالد وولده وألهبت العداوةَ بين الأخ وأخيه وكم خرّبتْ بيوتاً عامرة ودنّستْ أنساباً طاهرة وكم بَذَرتْ للشر أسبابا . وفتحت للسجون أبوابا . وهؤلاء الذين تراهم جلوساً فى هذا المستنقع الوبئ والمرعى الوبيل يقضون فيه لياليَ الشهر تباعاً وشهورَ العام ردافاً لا تتوهمنّهم من أسافل القوم ولا من أدنياء الناس بل فيهم الكبير والأمير والسّرىّ والوجيه . وانظرْ عن يمينك الى هذا الجالس بين اخوانه جِلسة الكبرياء فهو أحد أبناء

الامراء مات أبوه وترك له أموالاً جمة فالتف حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ فى تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسومة والمركبات المطهمة ثم ثنى بالاسراف الفاحش فى مهرجان زواجه ثم ثلث بتسليم مابقى منها الا يدى العواهر والفواجر وأخصهن هذه اللخناء التى لم يبق له منها الا التمتع بالنظر وهى لا تنظر اليه ولا تسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله . وانظر عن شمالك الى هذا الجالس الذى يفتل شاربيه ويحملق بعينيه ويغمز بحاجبيه فهو من أبناء الكبراء أيضاً ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعه فى مخالب هذه الخداعة الغرارة فهو لا يصبر عنها ولا يقطع المجىء اليها فى كل ليلة وهى تسلبه كل ماتصل اليه يده من خفيف وثقيل وما كان لامه من حلى وجواهر غير ماينثره من الذهب والفضة فى أرض هذا المكان .
وانظر أمامك الى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبجلا فهو من كبار الحكام فى الارياف وقع فى أشراك هذه المرأة فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك لا يسلوها ولا يلهو عنها وليس له فى مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ومرقصها ملهى فاذا هو عاد الى مقر وظيفته عاد بغير لبه

فيسعى فى استغواء العمد والاعيان هناك لإقامة الولائم والحفلات واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها . وانظرْ الى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزوياً ويدهُ مرتشقة بين صدغه وعمامته فهو من أعيان البلد لم يمنعه وقار السنّ وهيبة المشاب من الوقوع فى أسر هذه الغاويه فأخذ يبدد عندها فى شيخوختهِ ما كان جَمعهُ فى شبيبته

(الباشا) — لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهره من مزايا النساء لقلنا الهوى فى الناس داء قديم والتولع بالحسان أمرٌ بديهٌ والعذر غير معدوم ولكن مابالُهم والمرأة فى القبح والدمامة بمنزلة الشيطان والهروبُ منها مندوب اليه . فهل تعلم لذلك من سبب خفيّ

(الصديق) — السبب فيه حبُّ التباهى والتفاخر والأَثَرَة والاختصاص وقد اشتهرتْ هذه البغيّ بإتقان الرقص والتفرد فيهِ وأنفسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون بهِ عُمْيَ النواظر عُمْهَ البصائر فهم يرون ان الاختصاص بمثل هذه الشهيرة فى فنها وإن قبح منظرها وساء مَخبرها هو الفخر كل الفخر والسبق كل السبق . وهم مجبولون على الحكاية والتقليد فلذلك نفذ فيهم سهمها وسَرَى فى عروقهم سُمُّها

(الباشا) — ان كان لا يوجد فى هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا

يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعهم وحكم يكفّ الأذى عنهم

(الصديق) - لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقلّ بيننا من يشتغل للناس فى نفع الناس . أما الحكومة فأسمِعْ بها وأبصِرْ تنتشر كلُّ هذه الموبقات بعلمها وتُصنَع على عينها وهى ناظرة اليها نظر الرضى متقبلة لها أحسن القبول وهى التى تدير نظامها وتوسع حدودها وتضع لها اللوائح والمنشورات وان اضمحلّ بها حال الرعية وساء منها المصير . وماذا يقال فى حكومة تعلم ان ثروتها فى ثروة رعيتها وسلامتها فى سلامتها ثم ترضى بانتشار هذه المنكرات المقوّضة للثروة المتلفة للارواح والابدان ولا تأبى لعزها وشرفها ان تكون سُرةُ عاصمتها محلة للبغايا وسوقاً للخمور وميداناً للمقامرة . والعجب فى أمر هذه الحكومة أنها لا تحتذى فى هذا الصدد على مثال حكومة اسلامية ولا على مثال حكومة مسيحية فجميع عواصم الاسلام فى العالم خالية من اماكن معينة للبغايا المسلمات تشهد بها الحكومة. والحكومة الانكليزية من الحكومات المسيحية لا تعترف فى بلادها ببيت للفاحشة . ومَن أباح بيوت الفاحشة من بقية الممالك المسيحية فقد أباحها بقيود وحدود تخفف من أذاها وتهوّن من غوائلها وأقلّ

مافى الامر أنهم جعلوها فى أطراف البلدة بمعزل عن مساكن الحرائر ٠ ولكن الحكومة المصرية تخالف فى ذلك مناهج الحكومات جميعها

قال عيسى بن هشام ـ وانتهت الراقصة من رقصها فدخلت حجرة لتغيير لباسها وإصلاح مافسد من حالها ثم نزلتْ منها وقد جدّدت ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر فى مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة ويتطلعون اليها تطلّع البهيمية فتزحزحت لها المجالس وحُلّتْ لها الحُبَى وأُعدّ لها كل فريق كرسياً بجانبه وتناثرت عليها الاشارات بالتفضل بالجلوس فلم تعبأ بشىء من ذلك ولم تلتفت اليه واستمرت فى تكسرها وتهاديها حتى وصلت الى مقام صاحب الحان فوقفت معه ملاعبة مداعبة وممازحة مضاحكة ٠ وجاء خادمها فى عقبها فاستوقفه اليه ذلك الحاكم من حكام الارياف فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها فى يده فانصرف الخادم الى الراقصة فكلمها واشار بيده الى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها الى الجلوس معه فأبانت عن أمارات الإباء والرفض فى أول الامر ثم انتهت بها لجاجة الخادم الى الرضا والقبول فقصدتْ مجلس الحاكم وقصد الخادمُ غلامَ الحان فما جلستْ حتّى كان الغلام بجانبها يحمل فى يده أربع زجاجات

من الشمبانيا فبزلها كلها بمبزله فقارت وفاضت وانتشرت كلها حبباً والغلامُ متلاهٍ عنها لا يسرع الإملاء منها حتى اذا لم يبقَ بها الا مقدار صُبابة صبها الخبيث فى الكاسات وقدمها للفاجرة فبادرت الى لمس كل كأس لمسة بيدها وفيها . ثم يعود الغلام بعد هُنيهة لأخذ الزجاجات الفارغة فتأمره باحضار سواها. وهكذا يتوالى الحال فى طلب الادوار حتى يبلغ الى الدور الخامس فى مدة يسيرة وجميع الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجما أو يرقبون هلالا . ولما انقطع ورود الزجاجات برهة التفتت العاهرة الى خادمها وهو على بعدٍ منها فرأتهُ يشير اليها بحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى فهمّت بالقيام فأمسك الحاكم بأذيالها فصفعته صفعة مزاحٍ على قفاه بعد أن لعنت أمه وأباه استرضاء له عن تركها اياه فهشّ وبشّ اعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة الا لسقوط الكلفة وتمكّن الألفة . وتنسلُّ من حضرتهِ الى حيث أشار الخادم فتهبط على الفئة التى عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذى أفنى فى حبها ماله وأضاع فى هواها شرفه فخاطبنه بلسان اللوم والعذل تسأله لأىّ سبب دعاها ولأجل أية علة أقلقها من مكانها فيتلعثم المسكين برهة ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها فان المحامى

أخبره بنجاح قضيتها فتبسم له قليلاً ثم تلتفت عنه الى سواه فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لحظة ليقص عليها تفصيل الخبر فتنفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة ويبكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أتلفه فى معاشرتها من نضار وعقار فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب وتجلس الى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالى والايام الخوالى وأن يحفظ عنها قصة الاضراس فى باب الاعتبار وروت له هذه القصة التى هى عندهن عماد الصنعة وأساس الفن: زعموا ان فتى كان يهوى فتاة وتهواه فعاشا تحت جناح الحب زمنا سعيداً ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها فى طلب المال وجاءت ساعة الوداع فانهملت العبرَات وتوالت الزفرَات وأقسمت له بأن العيش لا يطيب لها من بَعده وان الموت أهون عليها من بُعده وسألته أن يُبقى عندها أثراً منه تتعلل به فى غيابه ساعة الحنين وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى فقال لها سأترك لك بضعة منى وأنتزع لكِ أثراً من بين لحمى ودمى ثم عمد بيده الى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبالٍ بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع وناولها إِياه يقطر بالدم فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلا ووضعته فى حقة نفيسة وسافر الفتى سفره ومضت عليه الايام والليالى ثم آب من سفره خائبا

لم يظفر بحاجته ولم يفز بطلبته رقيق الحال ضعيف الركن فذهب الى دار صاحبته وقد أضناه الشوق وبراه النوى فلما طرق الباب ولمحته من النافذة تنكرت له وأنكرته فناداها أنا فلان فاسمحي لى بالدخول قالت له ومَنْ فلان فانى لا أعرفه قال لها خليلك وحبيبك صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة قالت له كل الناس عاشر وفارق فأيهم أنت قال لها أنا صاحب الضرس قالت أوَ لك ضرس عندى قال نعم قالت فادخلْ فدخل فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس وقالت له: دونك إن كنتَ تعرف ضرسك من بين هذه الاضراس . فأنا أعرفك اليوم من بين الناس . ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفتْ عن هذا المجلس الى مجلس ذلك الشيخ الوجيه فيقوم لتحيتها واقفاً ويبدى لها تواجُداً متهللاً فتجلس معه وغلام الخان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات فلا تلتفت اليه فيديم الوقوف فتأمره بالانصراف فيعود خائباً وتقول للشيخ إنها لا تريد أن تحمّله فى حبها مَغرماً ولا تقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الخان فيُخرج الوجيهُ من حزامه عقداً يتلألأ فيضعه بين يديها فتبسم له وتنعطف اليه وتقيم عنده برهة فى مضاحكة ومغازلة . ثم

تقوم لتنصبَ على سواه شِبا كها . وترمى لصيد القلوب أشرا كَهَا:

تُحَيّي وُجوهَ الشَّرْبِ فِعلَ مُسَالِمٍ يُضاحِكهُ والكيدُ كيدُ مُحارِبِ

قال عيسى بن هشام ـ وأقمنا نتأمل فى أفعال هذه البغىّ الفاجرة . ونفكّر فى أعمال هذه الخدّاعة الماكرة . ونعجب كيف يقتدر مثلها على ختل الرجال . فترميهم فى مهاوى الغواية والضلال . وهى عارية من ثوب الجمال. مجرّدة عن جميع المزايا والخصال . مُفرَغة فى قالب الوقاحة . معجونة من حمأة الدمامة والقباحة . وما زالت الفاجرة تتقلب بين الجالسين وتتنقّل . وتتجوّل بين الصفوف وتتحوّل . وتروح الى صاحب الحان وتغدو . وتختفى آونةً ثم تبدو . منطلقةَ اللسان بالسب والثلب . منبسطةَ اليد بالنهب والسلب. ممتدةَ الكف باللطم والضرب . دائبةً فى السكب والشرب. وهى فى تنقّلها تقطّب تارة وتتجهّم. وتفترّ تارةً وتتبسّم . وتنبسط حيناً وتنقبض . وترضى ساعةً ثم تمتعض. وتُعامل كلّ انسان بما يلائمه . وتجرى معه على ما يُوائمه . فتضلّ الالباب والنُّهَى .ويقع الجميع فى أسر الهوى. وآية حُبها وميلها . أن تصفع الصَبّ بنعلها. فاذا أضافت الى الضرب بالنعال . شقّ القباء ونَتْفَ السبال . كان فى ذلك بلوغ الآمال . بدنوّ ساعة الوصال . واستوَى المضروب يُفاخر أصحابه وخلانه .

ويباهي أنداده وأقرانه. كالظافر في ساحة الطعان والضراب. والفائز بالغنائم والأسلاب. فيغالى في إظهار الابتهاج والائتناس. وتنبسط يدُه في الكيس ويدُها في الكاس. والغلامُ على رأسه بالآنية. يصبُّ لها زجاجة كل ثانية. وهي تصب الكؤوس في الهاوية. كأن حلقها قناة وكأن الساقي ساقية. وحانت منا التفاتة الى الخليع وصاحبيه. فاذا العمدة يشير بيديه ويغمز بحاجبيه. ويقول للخليع في اشتعاله والتهابه. ويخاطبه في ارتباكه واضطرابه:

(العمدة) للخليع — لقد أسعدنا الجدُّ وحلَتْ لدينا عاقبة الصبر ولئن فاتنا الانس بالغائب فما أكمل أنسنا بالحاضر. وهذه الراقصة التي اجتمعتْ على محبتها القلوب وافتتنت بها العقول هي عندي الضالة المنشودة والأمنية المطلوبة. ومَنْ يبلّغنا إياها سواك ويمنّ علينا بها غيرك

(الخليع) — هذه هي الفتّانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاّب ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها والموردُ العذب كثير الزحام والوصول اليها من دونه أهوال:

وإنك إنْ أرسلتَ طَرْفَكَ رائداً لقلبكَ يوماً أتعبتْكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلَّهُ أنت قادر عليه ولا عن بعضهِ أنتَ صابرُ

(التاجر) - نعم هذه هى البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة فاز مَنْ حازها وخسر مَنْ فاتها ولو كانت الايام أيام ربح ورخاء لَصَبَا اليها القلب وولعت بها النفس ولكن لِرَبِّ العيال مايشغله عنها ويبعده منها

(العمدة) - ليس يفوتنا على كل حال ان نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة ونروى بمحادثتها الغليل ونشفى بكلامها الهيام

(الخليع) - حبذا لو جلستْ معنا برهة . ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين فى الغرام بها والغُرْمِ عليها مايجعل نيل الغرض متعسراً ودَرْكَ الطلب متعذراً

(العمدة) - أما المزاحمة عليها فان لنا من مهارتك ونباهتك مايقرّب الأَمل بالوصول اليها وأما المنافسة فى الغرم عليها فالأَمرُ مستدرك والدراهم موجودة

(التاجر) - ما أشكُّ بعد هذا فى نيل الغرض وقضاءِ الوطر وستنتهى ليلتنا بمسك الختام

قال عيسى بن هشام - ويدعو الخليعُ خادم المرأة ويهمّ بإِعطائه شيئاً من الدراهم فيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما فيلقى الخليعُ فى أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ثم يذهب الخادم فيعود بمولاتهِ تتيهُ دلالاً وتتثنّى اختيالاً وتبدى الرضى من

خلال التمنع فتسلّم على أهل المجلس وتخص الخليع بابتسامة وتجلس بجانبه وتسأله عما جرى فى المجلس بعد انصرافها عنه بالامس فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة ثم يبدأ بعقد التعارف بينها و بين العمدة ويطنب لها فى علوّ شأنه ورفعة مقامه فتُرحب به فيرفع العمدة يده الى رأسه مراراً تشكراً لها فتلمح فص الخاتم يتألق فى إصبعه ويتوهّج فتضع يمينها فى يمينه وتجرها اليها ترصد الحجر فيسيل الرجل طرباً واتهاجاً ويعتقد أنها كَلِفتْ به حباً وغراماً فلا يروعه الا أصوات الأُصّمة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعاً وكلما أفرغ أربعاً عاد بأربع حتى هال التاجرَ من ذلك ماهاله فمال الى الخليع يناجيه فسكّن الخليعُ من رُوعه وأزال الهواجس عنه. فيميل التاجر الى الاقداح يسكب و يشرب والى المرأة يهازل و يغازل و يعاطى و يناول والعمدةُ على حاله باهتٌ شاخص ومتولّع منولّه والخليع مسرور مبتهج. لا يرسل الكأس عن فيه . الا ممسكاً بأخيه . والمرأة تخدع وتكيد . وتقول للغلام هل من مزيد . ثم يُخرج العمدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر اليها بالحديث فتقبض المرأة عليها تمعن فيها وتقول له قد آن أوان الانصراف وحانت ساعة الختام . وتقوم مودّعة فيتلهف العمدة و يتحسر ويسألها انْ تُتم جميلها بالبقاء معه بعد

الانصراف فى مجلس آخر فتضحك له ضحكة القبول وتلطم الخليع بالمروحة على خده وتغادرهم الى صاحب الحان فتجلس معه . ويأخذ الناسُ فى الانصراف والخدمُ فى رفع الكراسىّ وإغلاق بعض الابواب ولا يبقى فى المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة: ذلك الحاكم الوامق . وذلك الغلام الوارث . وذلك الشيخ المتصابى. وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه . فاذا طال عليهم الانتظار ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا الى الانصراف يصحبهم الهمّ ويرافقهم الكدر الا العمدة فانه يلح فى الانتظار لشدة مابه من سكر الهوى وسكر الخمر:

سُكرانِ سكرُ هوًى وسكرُ مُدامةٍ * ومتى يُفيق فتىً به سُكرانِ

ويقصد المرأة فى مكانها عند صاحب الحان وهو يتعثر فى مشيته ويجرر فى عباءته فيقف بين يديها يستنجزها الوعد فتغضى عنه فيلح عليها فتلجّ فى الإعراض فيُخرج من جيبه كيس الدراهم ويبسط به راحته راجياً متضرعاً فتظهر له الجفوة فتشتد به الصبوة فيترامى عليها فتدفعه برجلها عنها فيقع على الارض فينتثر مافى الكيس فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه اليه صاحب الحان . ويتماثل العمدة واقفاً فيمد يده الى المرأة فيأخذ

بضفيرتيها يجذبها نحوه فتسبه وتلعنه وتمسك بصاحب الخان ويستمر العمدة في الشدّ والجذب فتخونه الضفيرتان فيرتمي على ظهره طريحاً وهما في يده والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث . فينقضّ من أقصى المكان رجلٌ رثّ الهيئة قبيح الطلعة وسِخُ العمامة يرفع في يمينه هراوة ويتأبط في شماله صرة ثياب فيقع على العمدة ضرباً بالهراوة ويدفع العمدةُ عن نفسه ضرباً بالضفيرتين ويتوسط بينهما التاجر فيسأل الرجلَ عما يعنيه في الأمر فيقول له إنه زوج المرأة وإنه يدافع عن حريمه ولا يرجع عن غريمه فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه فينصحه الخليع بالرجوع عنه لان الرجل من أهل الحماية وفي التعرض له إلقاء باليد الى التهلكة فانه فوق القانون يَجني ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع لينقذه من بلائه فيتقدم الخليع فيكلم الزوجَ طوراً والحليلة تارة وصاحبَ الخان أخرى فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ماالتقطهُ صاحبُ الخان من دراهمه مرضاة المرأة عن إهانتها وعوضاً لها عن خسارة الضفيرتين . ثم يقوم صاحب الخان وينادي غلامه وهو مشتغل بإطفاء الانوار فيسأل عن حساب العمدة فيكوّنه له فيلتفت الى العمدة قائلا :

(صاحب الحان) للعمدة ـ والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهاً ثمن المشروب وانظر ماذا تعطينا من العوض فى تعطيل المحل بهذه الافعال الصبيانية

(العمدة) ـ ماهذه الحسبة وما هذا الكلام

(صاحب الحان) ـ أما الحسبة فصحيحة وأما ما أتيتهُ فانه لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنها الخمر أمُّ الشرور وإن خالها الشاربُ أمَّ السرور وما كان لك ان تتعلق بهذه المرأة المشهورة بمنعها على أهل التنافس فيها والنساء غيرها كثيرات فى المحل وإن كان لابد لك منها فأنا أسعى فى الصلح بينكما عند تشريفك المحل فى الليلة الآتية وأرجو أن لا تتوقف فى دفع هذه الحسبة الصغيرة فانى لا أرضى لك الاهانة ولا ترضى لنفسك الفضيحة

(العمدة) للتاجر ـ هل عندك مانسدد به هذا المبلغ

(التاجر) ـ لا وحقّ العشرة وحرمة الصحبة . فلم يبقَ معى من الدراهم لا قليل ولا كثير

(العمدة) للخليع ـ دبِّرنى ياصديقى فى أمرى وانظر لى طريقة الخلاص

(الخليع) ـ يعزّ علىّ والله مانحن فيه ولكن عزّت الحيلة ولو كان

صاحب الخان يقبل منى ساعتى هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها عنده ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ولو كان فى الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت

(العمدة) ـ ان كان الأمر يقضى بالرهن فهذه ساعتى أثمن من ساعتك وهى عندى أعز علىّ من روحى لأنى أخذتها هدية من دائرة البرنسيس يوم بعت لها أطيانها وعليها حروف اسمها منقوشة وقد قدّرها لى الجوهرى بخمسين جنيهاً

(الخليع) ـ ان كان الامر كذلك فلا يليق رهنها وعندك الخاتم ترهنه مكانها

(العمدة) ـ هذا هو الأصوب وان كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة . فخذه يا حضرة الخواجه رهناً عندك حتى أسدد لك المطلوب فى الغد

(صاحب الخان) ـ أنا لا آمن لهذه الفصوص اللماعة فقد غشونى فيها مراراً بإحكام التقليد فى صناعتها وليس هنا الآن مَنْ أثق به من أهل الصناعة ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص

(التاجر) بعد أن يمعن فى الفص ـ كيف تقول ذلك وهو من الالماس القديم وقيمته لا تنقص عن مائة جنيه وأنا مستعد لرهنه

عندى على خمسين جنيهاً فانتظرنى ريثما أذهب الى محل مبيتى وأرجع اليكم بالمبلغ

(صاحب الخان) مكفهراً — ليس عندى وقت للانتظار فقد مضى الميعاد المقرّر لإغلاق المحل وهذا جندىُّ البوليس واقفٌ أمامنا يتعجلنى فى مطاوعة أوامر الحكومة

(الجندىّ) — نعم مضى الميعاد ولا بد من الإغلاق حالاً فانظروا معكم شيئاً آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل

(الخليع) للعمدة — أَعطِهِ الساعة فلا حول ولا . وليس هناك ما تخشاه عليها فاننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلنى فى الصباح بقهوة الموسكى

(صاحب الخان) بعد التأمل فى الساعة — هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها فاتركْ الخاتم معها أيضاً

(العمدة) — هذا لا يصح مطلقاً فان المبلغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيها على فرض صحته

(الخليع) — ما دام العزم أكيداً على فك الرهن غداً فسيّان رهن قطعة أو رهن قطعتين وأنا أرجو الخواجه ان يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض فى تعطيل المحل

(صاحب الحان) ـ انى أتجاوز عنه لاجل خاطرك

قال عيسى بن هشام ـ ويشدد جندىُّ البوليس فى طلب الإغلاق في الحال فلا يسع العمدة الاّ التسليم فى الخاتم والساعة . وبينا الجميع يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر اذ دخل رجل قبيح الخلقة جهَنَمُ الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرَتُ الشدقين فأخذ يجيل فى الحاضرين بنظره يميناً وشمالاً ثم تقدّم الى المرأَة فسبّها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت ومضى الميعاد وأُغلقت الحانات وأنا قاعد فى انتظارك بالبيت وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين فأين هذا الصيد الذى ألهاكِ عنى وأنساكِ أمرى ياعاهرة . فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع بعض العمد يشهد بها الحاضرون : وتذكر له ماكان من هجوم العمدة عليها ونزع ضفيرتيها فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة فينزجر الرجل ويتوعد ويعمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب فتستعطفه الفاجرة وتطلب منه ان لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع فى مخاصمة أخرى وتطلب منه الاسراع الى البيت فى صحبتها

وخرجنا مع الباشا نتعوّذ من كيد النساء . ونتأسف على وقوع

الرجال فى أشراك المكر والدهاء. وكيف نزل العمى بهم والجهل. حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل. ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنئ. والموطن الردئ. وقد خرجوا من الثروة والشرف. ودخلوا فى أدوار البؤس والتلف. ونزلت بهم أنواع المرض والسقَم. وانهملتْ عليهم دِيَمُ الاحزان والنقم. ثم التفتَ الباشا الى الصديق. يسائله فى أثناء الطريق:

(الباشا) ـ ألاَ تخبرنى أيها الناقد الخبيرَ كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الاقامة فى هذا المكان وكيف يترددون عليهِ لياليَ متتابعات ولا يدركون مايدركهم فيه من الهلاك والوبال وقد كاد يُقضَى علىّ للاقامة فيهِ بضع ساعات. فماو جارُ الضَّبُع وما عُشُّ الظَّربانِ وماقبرُ الميت ـ يرحمنا الله وإياك ـ بأنتنَ رائحةً ولا أقذرَ مكاناً ولا أسوأ مُقاماً من هذا الذى كنا فيه

(الصديق) ـ يصبر الناس على الاقامة فى هذا المكان ويكثرون من التردد عليهِ بحكم التدرج وإلفِ العادة وقوة التمادى وكأنما أبدانهم تتلقح شيئًا فشيئًا بسمّهِ فلا تحس بضرره وألمهِ كالمريض يذهله المُرقدُ عن ألم الداء وبترِ الأعضاء وإن شئتَ فكالهندىّ يتدرّج ويرتقى فى تناول الأفيون وهو سم قاتل حتى ينتهى بجسمهِ الى حالٍ

لو لسعتهُ معها عقربٌ أو لسبتهُ حية لم يؤثر سمُّها فيه

(الباشا) - أفدتَ بما شرحتَ . وقد بقى عليك ان تفسر لى ما أشكل علىّ من أمر الرجلين مع العاهرة أحدهما الذى يقول إنهُ زوجها والثانى الذى أخذتْ بيده أمامهُ الى بيتها

(الصديق) - أما الزوج فانهُ رجل من سفِلة المغاربة المنتمين الى دولة أجنبية تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تنالهُ عند مخالفتها وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به فتدخل حينئذٍ فى حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة اذ أتت فى فسقها وفجورها مايخالف أوامر الحكومة . ويعيش الرجل معها زوجًا بالاسم وديُّوثًا بالفعل وذلك فى مقابلة شئ من الدراهم يتناولهُ منها فى كل ليلة . وهذه الطريقة قد تألَّفها الناس ولم تقتصر على العواهر بل تعدّتهنّ الى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته الى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الاجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الاهلية الى نظام المحاكم المختلطة إنْ ترجّح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس الى محاسن الاخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسؤول

عما يُنشر فيها ويُطبع ثم يملؤها بما تسوّله له نفسه من الطعن على أولياء الامور وأرباب الحكومة وأشراف الناس ويسوّد صحيفته بكل فاحش من القول وبذيء من الكلام فاذا عوّل أحد الناس على محاكمته يومًا من الايام وَارَى وجهه عن المحاكم بوجه الاجنبي وقال لك : ماذَمّ الامراءَ ولاهجا الاشراف ولا طعن في الناس الاّ صاحب الاسم المسؤول فعليك به . فاذا التمستَهُ وجدتَهُ بائع نعالٍ يصفِّق بها في عرض الطريق وينتسب الى دولة من أكبر الدول الاجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ولاسبيل الى محاكمته الاّ في بيت القنصل . وقوّاسُ القنصل ينصر أخاه ظالمًا أو مظلوماً ناهيك بالقنصل نفسه

وأما الرجل الذى سحبتهْ العاهرة بيدها الى بيتها فهو صاحب ودها وحبيب قلبها تفضله في آخر ايلها على كل رجل يتعلق بهواها ويبذل نفسه في سبيل رضاها ولا تعجبْ من سوء معاملته لها وشدة غطرسته عليها فذلك مما يزيدها فيه حبًّا ويولعها به شغفاً . والنفس الدنيئة الحقيرة لاتميل الا لمن يبادرها بالاهانة والتحقير ولاتنقاد الاّ لمن يتناولها بالضر والاذى . فهو يضربها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ثم يتمتع بها دون المتهالكين عليها وينتفع بما تجمعه له من

أموالهم لفضل هذا الوحش الضاري عندها على تلك الدواجن التي تدبّ حولها

(الباشا) ـ لاشك أن في هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغيّ على بغيها في الناس وسلبها للاموال وفتكها بالارواح وقلّ لمثلها هذا الجزاء المعجّل في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها في الآخرة

(الصديق) ـ لا تستهيننّ أيها الامير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة في دنياها من الجزاء فانهنّ جميعاً في معيشة كلها هموم وأدواء ومَن تأمل في حقيقة أحوالهن خفف من سخطه عليهن ووجدهن أحق بالشفقة من القسوة . فان هذه الاموال التي ينهبْنَها والأسلاب التي يسلُبْنَها لا تلبث في أيديهن الا ريثما ينفقنها في الحلى والحلل . والعاهرة لا تنتهى حاجتها من الزينة ولا تخلو من حبيب تكفله وخليلٍ تقوم عليه فهي على الدوام في عسر شديد ودَين ثقيل. وإن جميع ما عليها من الحليّ والجواهر وما يتألق في عنقها من القلائد وفي معصمها من الاساور وفي رجليها من الخلاخل إنما هي كلها في الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهريّ في أسرٍ لا فكاك لها منه طول الحياة . وهي كما رأيت تقضي ليلها الى الصباح في شرب السُّموم من الخمور وفي تحريك الاعضاء والأحشاء بتلك

الحركات المنهكة لِقُوَى الأبدان وفى اشتغال الفكر بمراقبة الناس وتكلُّفِ التحبب اليهم وفى التفنن للتحايل عليهم ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان . فاذا انتهت من ذلك كله وصلت الى بيتها منحلّة الاعضاء مفككّة المفاصل فترتمى على فراشها كالرمة فى مكان هو أقذر من ذلك الحان وأفسد منه هواءً وربما لم تذق فى يومها طعاماً ولم تتناول فى ليلها غِذاءً فاذا قامت من نومها بعد نصف النهار قامت كالذى يتخبطه الشيطان مصدّعةً مخمورةً لا تشتهى طعامًا ولا تسيغ شرابًا حتى اذا تماسكت قليلا بادرت الى اصلاح الفاسد منها ومداراة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس وقعدت لمقابلة زائريها الى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانت عليه . لا تزال المسكينة هكذا دائرة فى حلقة من التعب والوصب ولا خلاص لها منها الا بحلول الأمراض والأوجاع ثم يُقضَى عليها وهى فى المعصية بعيدةً عن ذوى الحنو والاشفاق من الاهل والاقارب وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الاليم

قال عيسى بن هشام — وما راعنا فى طريقنا الا صوت الديك يؤذن بالصباح . وصوت المؤذن يؤَذن حىّ على الفلاح . فأسرعنا نطلب مأوانا . وندرك أمّ مثوانا . ونحن نسأل رب الأرض

والسموات . أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات

* * *

قال عيسى بن هشام - ولما ارتفع وجه النهار أو كاد ومسحنا عن النواظر كحل الرقاد . بادرنا كل الإبدار . بالخروج من الدار . لنلحق بأولئك الرفقاء . فى المكان المعين للقاء . فقصدنا « قهوة القزاز » فوجدناها تموج بالداخلين . وتضطرب اضطرابا بالواقفين والقاعدين . فوقفنا برهة نرسل النظر إرسالا . ونتصفح الوجوه يمينا وشمالا . حتى اهتدينا الى الصديق جالسا فجلسنا عن جانبيه . ورأينا العمدة جالسا بجانبه مع صاحبيه . فاذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة . من سواد ليلته الغابرة . حيث ناله فيها من الهوان ما ناله . وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله . ورهن ما رهن من حلية ومتاع . من غير لذة ولا استمتاع . فهو متخاذل متضائل . « له شق مائل . ولون حائل . ولعاب سائل » . وسحنة مغبرة . وأنامل مصفرة . وجفون محمرة . وأحداق جامدة . وأعضاء هامدة . ورأس متصدعة . وأنفاس متقطعة . يفتح تارة فاه . ويحك طورا فى قفاه . فيخاله كل من يراه . نضو سفر أضناه السرى وبراه .

أو حلفَ تسخير أذْ مَتْهُ العصا وألهبهُ السوط . ليبلغ من جهد « السخرة » منتهى الشوط . واذا التاجر بجانبه يقلّب حدقتيه . ويحلب بشفتيه . ويصعّد أنفاساً كالحريق . في ميزاب من الريق . كأنه ذئب يهمّ بالغِشيان . ويخشى صولة الرُّعيان . أو صائدٌ يخاف أن يخونه كيده . ويُفلت منهُ صيده . والخليعُ بينهما يطرق برأسه . ويكتم مافي نفسه . متفكراً ينكُتُ الأرض بعصاه . ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه . دائباً يبرم الخديعة ويهيئ العدّة . ليسقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة . ورأينا هنالك من دونهم نفرا . لا يحوّلون عنهم نظرا . كأنهم الطيور الجارحة . تترقب حمامة سانحة . فاستخبرنا من الصديق . عن شأن هذا الفريق . فقال هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة . والطائفة الرابحة الخاسرة . طائفةِ الوُسطاء والسماسِرة . وشاهدنا الخليعَ يوحى اليهم باللحظ والنظر . كأنه يعاهدهم على النجح والظفر . ثم سمعناه يقول للعمدة تهويناً لامره . وتيسيراً عليه من عسره :

(الخليع) — لا تهتم يامولاى ولا تغتم فالخطب أهون مما تظن والامور بأمر الله ميسرة والحاجات باذنه مقضية

(التاجر) — ان كان التيسير من جهة الاقتراض فأنا لا أتصور

أن أرباب الاموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس فى هـذا العهد عهد المما كسة والمضـاربة . وفى هـذه الحالة أرانى أولى الناس بتأدية هذه الخـدمة لصاحبي فانى له أرجح جانبًا وأربح معـاملة وأنقص فى قدر « الفـائدة » من سواى

(العمدة) ـ لا أرى فى ذلك من بأس لو كان فى الوقت سـعة وفى الحالة مهلة تسمح بمـا يقتضـيه إجراء الرهن من الـكشف والمعاينة والتحديد والتقويم والتقـدير والتحرير والتقييد والتسجيل الى غير ذلك

(الخليع) ـ ولا تنسَ ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الاهل والجيران . وصدَقَ من قال : « بيع الشئ خير من رهنه . والرهنُ بيعٌ وغَبْن » وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة وأناأضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض

(التاجر للخليع) ـ ما أحسن هـذا لو أنه يتم ولـكن لا تنسَ أنت أيضاً ماقيـل : « ان الذى يقرضـك على الشهرة والسمعة . لا بد أن يأخذ فائدة شهر فى جمعة . » ولن يخاطر أحد من أرباب

الاموال بماله من غير رهن الا مَنْ ضمن لنفسه الفائدة الجسيمة والربح الطائل

(الخليع للتاجر) ـ مابالك تعسر علينا في الامور مع إمكان تيسيرها. ولا يأخذك شك في ما أقول فأنا أضمن الحصول على القرض في هذه الساعة في هده القهوة في هذه الجلسة . ولا محل للتخوف من جسامة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً والتسديدُ عتيداً

(العمدة للخليع) ـ هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الاصحاب والاصدقاء وهكذا تكون محاسن الشيم ياابا المكارم والهمم

(التاجر) ـ قد قلت ما عندي وكل انسان حرّ في عمله

(الخليع للعمدة) ـ قل لي كم تريد أن يكون مبلغ القرض

(العمدة) ـ يكفيني على ماأظن مقدار مائة جنيه لسد الحاجة في الحالة الراهنة

(الخليع) ـ هذا التقدير ضعيف وماذا ينفع مثل هذا المبلغ القليل وبماذا يفيد وعليك قبل كل شيء تسديد ما لصاحبنا هذا في ذمتك من الدين ثم يتبعه ما لصاحب الحان لفكّ رهن الساعة والخاتم . وأضف الى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد سكناه في حلوان وما يتبعه من أثمان الفرش والاثاث . هذا غير

ما يجب ان يكون فى يدك للبذل والانفاق فى أوقات الانس والطرب وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة اليها بعد كل هذا التعب والكدر فلا بدّ لك حينئذٍ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الاقلّ سيما وأن أرباب الاموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقلّ من هذا المبلغ ان كانت مدته قصيرة

(وهنا يومئ الخليع الى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه فيهمس فى أذن أحدهم كلاماً ثم يجهر لهم بالخطاب فيقول) :

(الخليع) ـ اعلموا ان سعادة البك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الاطيان والعقار ماهو معروف مشهور ولم يسبق له اقتراض مال قط وليس عليه دين مطلقاً واطيانه واملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك وقد حلت به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للانفاق في مدة وجوده بالقاهرة وهو الآن فى حاجة الى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى أوان الحصاد الآتى ولست أرضى له ان يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التحرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد

(أحد السماسرة) ـ مرحباً بسعادته مرحباً . وماهو بالمجهول

عندنا فاننا نعرفه كلنا بما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه. وكان للمرحوم والدي مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة. وطالما سمعت من والدي وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين أعيان القطر مثل المرحوم في الصدق والامانة وكرم الخلق وسماحة النفس. ولكنك تعلم ان الدراهم عزيزة المنال في هذه الايام وقلّ من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة ولو كان الامر لي وحدي لَمَا تأخرت عن اجابة الطلب بدون ميثاق أو رهن أو فائدة اكراماً للصحبة القديمة بين والدينا وتوثيقاً لعرى المحبة بيننا ولكن شريكي في الاشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر لا يعرف حقوق المودة القديمة ولا يرضى بقرض المال الا اذا كان مستجمعاً للشروط القانونية. ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدي وأترضّاه بضمانتي أولاً وبتشريف مقدار «الفائدة» ثانياً فان اتفقتم معي على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة الى وقت الحصاد باشرتُ معه الامر وقمت بالخدمة الواجبة عليّ لسعادة البيك

(التاجر) — سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم. أيكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض.... ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين

(السمسار للتاجر) — لعل مولانا من المجاورين بالازهر الشريف.

فانه لا يستعظم مثل هذه الفائدة فى الاحوال الحاضرة الا من يعتقد تحريمها . على أن الربا محرّم عندنا أيضاً كما هو محرّم عندكم ولكن « الضرورات تبيح المحظورات »

(العمدة) — حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار المشهورين

(السمسار) — اذا كان حضرته من التجار فلا بدّ أن يكون واقفاً على ضيق الحال وقلة المال وكساد السوق وعالماً بمقدار الفائدة فى قرض من غير رهن . ثم إنه لا يجهل فى الاشغال تكاليف المشاركة . . . والمساهمة . . . والمقاسمة . . . ان شاء الله

(التاجر) — نعم نعم ولكن يجب إنقاص مبلغ الفائدة على كل حال فانْ أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمتُ بذلك عليه

(السمسار) — ما أصعب المعاملة مع التجار . وما دمتَ حكمت حكمك فلا مردّ له عندنا وما علينا الاّ الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البيك فتفضلوا بالذهاب معى الى المحل على بركة الله لإتمام الامر مع شريكى

(الخليع) — لا حاجة الى ذهابنا جميعاً ويكفى أن يذهب معك

سعادة البيك وحده فان المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا في الانتظار

قال عيسى بن هشام ـ وقام العمدة مع السمسار وأقمنا جالسين في مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق ونستفيدمن واسع علمهِ أموراً شتى مسافة من الزمن واذا بالعمدة عائداً وحده مقطّب الوجه منقبض النفس فأسرع الخليع والعمدة الى لقائه واستخبارهِ عمّا جرى له

(العمدة) ـ لعن الله الحاجـة والاضطرار . وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار

(الخليع) ـ وماذا وقع بك ودهمَك . هل خاب الامل في عقد القرض أم عقدتَهُ وسُرقتْ منك الدراهم

(العمدة) ـ لم تُسرق كلها بل نصفها

(التاجر شاهقاً والخليع محملقاً) ـ وكيف كان ذلك

(العمدة) ـ ركبت مع الرجل وذهبنا الى محل شريكه فأجلسني هنالك ناحية وكتب الصك وختمتُهُ ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ثم عاد اليّ عابس الوجه يقول لي إن الامر متعذر متعسر وإنه بذل كل مافي وسعه من طرق الاقناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ فلم يقبل ولم يتحوّل عن رأيه . ثم أخذ يظهر لي أنواع

التأسف والتوجع لخيبة مسعاه ويشير عليّ بالصبر أياماً حتى تنفرج الشدة وتنقضي الازمه . فأريته شدة مابي من الحاجة الى الدراهم في هذا الوقت وليس في الاستطاعة تأجيل الاقتراض وهممت بالرجوع اليكما لترشداني الى باب آخر يأتي بالتيسر المطلوب فدنا مني شريكه عند ذلك وقال لي يعزّ عليّ والله ان أردّك خائبا وأرفض رجاء شريكي ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذى لحق بهذا القطر في هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل وانتشار الدودة وكثرة المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين . وانا أقسم لك بشرفي وذمتي وأولادي انه لا يوجد في محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيه هي أمانة عندي لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له في استثمارها بكل احتراس واحتياط وأنا أضنّ بها وأحرص عليها أشد من حرصي على أموالي . ومع ذلك فقد افتكرت طويلاً وعوّلت على أن أضعها بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتُها أول خدمة جليلة نقدمها اليك . فأسرعتُ الى قبولها مع الشكر والامتنان فأخرج صرّة ووزن مافيها من الذهب ثم سلّمه اليّ فعددته فوجدته اربعمائة تماماً ثم وضعتها في جيبي وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمّى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب فتلكأ في الاجابة

واعتذر الىَّ بأن فرق مابين المبلغين يبقى عنده بعضُهُ لربح اليتيم وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماةٍ ان وقع منى تقصير فى التسديد عند الميعاد لاسمح الله كما هى العادة السائرة اليوم . فهالنى الأَمر ونبذت الدراهم وطلبت منه ان يردَّ لى الصك فى الحال فلم يلتفت لقولى واشتغل عنى بالكلام مع بعض الوافدين اليه وأنا مقيم على مثل الجمر وكلما أشرت اليه باشارة من بعيد ليكلمنى لَوَى وجههُ عنى وأظهر الاشمئزاز منى فتفقدت السمسار الشريك داخلَ المكان وخارجه فلم أجدله أثراً فاشتدَّ بى الكرب وحرَّقنى الغيظ فلم أتمالك نفسى وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلابيبه أُطالبه بردّ الصك فأظهر لى حينئذٍ من الملاينة والملاطفه ماحلّ خناقه من يدى وقال لى إنه لا يمنعه عن إجابة طلبى الاَّ غياب الشريك فان الصك كُتب بحضوره ولايجوز ان يسلمهُ الىّ بدون علمه فعلىّ ان أنتظر أوبته . وبينما نحن على هذه الحال واذا بسعادة عمر بك صهر مديرنا قد دخل علينا فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى خجلاً منه وحياءً أن يسمع مايجرى بيننا ويرانى فى مثل هذا الموقف فتسقط منزلتى فى عينه وعين صهره فتقدمت اليه وسلمت فردّ علىّ التحية بالتكريم والتعظيم فلحظ اللئيمُ صاحبُ المحل ماأنا فيه فانتهز

الفرصة وقصّ على سعادة البيك قصتنا على حسب هواه وطلب حكمه في الامر . فقال له سعادة البيك لا يليق بك ان تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلا من عيون المديرية التي يديرها صهري وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة . ثم التفت اليّ وقال : وأنت لا يجدر بك ان تخالف حضرة الخواجا وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة واذا كانت نقطة الخلاف في المائة جنيه التي حجزها عنده لنفقات القضية فأنا لا أشك في أنه سيردها اليك بتمامها عند إيفاء الدين في ميعاده وأنت بحمدالله في ثروة لا يُتصوّر معها التأخر عن التسديد وإن كنت لم تتعامل مع الخواجا الآ في هذه الدفعة ولم تجرّب مقدار أمانته وحسن عهده فاني أكفل لك صدقه ووفاءه فاضطررت من كل الوجوه الى التسليم والاذعان وأخذت الدراهم وسلمت على سعادة البيك وقلت له عند خروجي : لا يظننّ سيدي أنني اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر فان الامور ميسرة بفضل الله ونعمةُ الله وافرة عليّ كما يعلمه سعادة صهركم المدير ولكنني وجدت فرصة لا تعوّض في أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشتري أطيان من أحد أولاد الذوات وهو في حاجة الليلة الى استلام العربون ولا يمكنه ان يمهلني ريثما أستحضر له المبلغ من البلد فاضطررت

للاقتراض على هذه الصورة . فقال لى نعم ما تفعل وبارك الله لك فى البيع والشراء ثم إنه حملنى سلاماً وكلاماً لسعادة المدير وانصرفت وخلفته مقيماً مع الخواجا وحضرت اليكما ولم يدخل فى يدى من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيها الا أربعمائة جنيه فقط . فهذا معنى قولى لكما لم تسرق منى الدراهم كلها ولكن سرق نصفها

قال عيسى بن هشام ـ وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاءه من الكلام وهو يمد اليه يديه ويحرك شفتيه فتبينا من هيئته انه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة في قيمة الاجرة . ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله :

(السائق) ـ خلصنا من فضلك ياسيدنا السيد فقد طال وقوفى وعطلتنى عن شغلى

(العمدة) ـ أنا لا أعطيك شيئا زيادة عما دفعته اليك ففيه الكفاية

(السائق) ـ من يقول ياحضرة الشيخ ان خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مسافة ساعتين تنقلت فى أثنائها من مكان الى مكان ثم عدت بك الى هذه القهوة . وأنا لا أبرح من مكانى حتى تعطينى الاجرة اللائقة بهذه المسافة وان كان الذنب من جهتى لاننى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجا الذى استوقفنى قبل

ركوبك ظناً منى أنك من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار اجرة المركبات ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات وجعلتنى أفضّل برنيطة الخواجا على عمامة السيادة فلا حول ولا قوة الا بالله . خلّصنا ياسيدى

(الخليع للسائق) ـ اسكتْ عن هذا الكلام البارد وهاك قرشا سادساً خُذْهُ وانصرف

(السائق) ـ كن محضر خير ياحضرة الافندى واعلم أنى لا أقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقاً . فإما الاجرة اللائقة وإما الذهاب معى الى صاحب المركبة

(العمدة) ـ دونك قرشاً آخر فاتركنا واذهب لحالك

(السائق) ـ كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار فهل تحسبها أجرة ركوبك من هنا الى محل الخواجا أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة أو أجرة ركوبك من محل الخواجا الى دكان الكوارع وانتظارك مسافة الاكل أو أجرة رجوعك الى هنا ووقوفك فى الطريق عند بائع الفاكهة

(التاجر) ـ دكان الكوارع .... !! وبائع الفاكهة .... !!

«وَاحَرَّ قلباهُ ممن قلبُهُ شَبِمُ»

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالاكل ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاماً

(العمدة) ـ ما ألجأني الى ذلك وحقِّ الصحبة الا الجوع المفرط واحتياج الجسم الى مايقيمه فانى أحسست بالنور ظلاماً فى عينى من خلو البطن وأَشهدُ أن الجوع كافر

(السائق) ـ ادركونى برحمتكم فهذا جندىُّ البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها فى المخالفات حيث خلفتُها واشتغلت عنها بكم

(الخليع) ـ لقد صدّعتنا وشوّشتَ علينا خذْ هذا القرش أيضاً وأنا أخلّصك من جندىّ البوليس والاّ فانى أقوم الى «القسم» وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ولا تجد فى القسم من يرحمك

(السائق) ـ ماباليد حيلة أعطنى ماتريد وقُم اشهدْ عند جندىّ البوليس بأنى فى انتظاركم حتى أخلص من المخالفات واللهُ يعوضنى خيراً ولا يحكم علىّ بركوب أمثالكم مرة ثانية

(الخليع للعمدة) عائداً ـ قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات فلننظر الآن فى تدبير شؤوننا وهلمّ فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب

منك لصاحبنا هـذا ثم نثنىّ بصاحب الخان لفكّ الرهن ثم نثلّث بمشترى المقتنيات اللازمة لك

(العمدة) ـ نعمْ لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيراً

(التاجر) بعد استلام المبلغ ـ أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال ولـكن يتعذر علىّ ان أرد اليك الصك فى الحال لأنى تركته بالمنزل فالأليق ان تُبقى المبلغ حتى آتيك به غداً

(الخليع) ـ سبحان الله ماهذه المعامـلة التجارية بين الاصـدقاء الاوفياء وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط فى معاملتهم . فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيّان مادام المبلغ تسدد لك ودخل فى جيبك

(العمدة) ـ صدقتَ صدقت فليس بين الاخوان مايدعو للتوقى والتحرس فى مثل هذه الامور . وقوموا بنا الى صاحب الخان

(الخليع للتاجر) ضاحكاً ـ انظرْ اليه فلا يزال قلبُهُ يحنّ وهواهُ يميل الى سكان تلك المعاهد والديار

(العمدة) ـ أقول لك الحق . ان غيظى من معاملة تلك المرأة القاسية شديد وحنق عظيم ولست أنسى ضروب تفننها فى التدلل علىّ والتمنع منى ولا أغفل عن تلك النظرات التى كانت ترسلها الىّ

بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها وبودّى لو أراها مرة ثانية فأوسعها عتاباً وأشبعها تأنيباً

(الخليع) مبتسماً ـ أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك . تريد من العتاب أن ينتهى بك الى العُتبى وتخرج بها من التعنيف الى التلطيف وما ألذّ الرضى بعد الغضب وما أمتنَ الصداقة بعد العداوة . لكنى أقول لك قول المشفق الناصح إنك مهما حاولتَ مع هذه المرأة فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها وانما الرأى لك ان تلتمسها نهاراً وتدعوها للغداء معك فى بعض جهات النزهة . وأنا أفضّل نزهة الاهرام على سواها فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزل عن العذّال والرُّقباء

(التاجر) ـ ما أدقّ الحيلة وما ألطفَ الرأى

(العمدة للخليع) ـ لله درّك فما حار مَنْ أنت حاديه . ولا ضلّ من أنت هاديه . وهيّا بنا الى الحان أولاً افكّ الرهن

(الخليع) ـ ولعلنا نصيب خادم المرأة هناك فنرسله اليها بعرض التماسنا . ولا شك عندى فى إجابة سؤلنا

(العمدة) ـ نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً فخير البرّ عاجله .

(الخليع) ـ لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله

قال عيسى بن هشام ـ وقاموا ونحن نعجب من كيد الانسان للانسان . بما لا يأتيه حيوان مع حيوان . ثم بادرنا نحن أيضاً الى القيام . على أن يكون الاجتماع غداً فى الاهرام

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ ولما وقفت بنا الركاب فى ساحة الاهرام . وقفنا هنالك موقف الإجلال والإعظام . قُبالَةَ ذلك العلَم الذى يطاول الروابى والأعلام . والهضبةِ التى تعلو الهضاب والآكام . والبُنيةِ التى تُشرِف على رَضْوَى وشَمَام . وتُبلِي ببقائها جدّة الليالى والايام . وتطوِى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام . وتُفنِى بدوامها أعمار السنين والأعوام . خلقت ثيابُ الدهر وهى لا تزال فى ثوبها القشيب . وشابت القرونُ وأخطأ قرنَها وَخْطُ المشيب . ما برحت ثابتة تناطح موافع النجوم . وتسخر بثواقب الشُهُب والرُّجوم . وتحدِّث حديث المشاهدة والعيان . ما تعاقبَ الفَتَيان . وتناوَبَ المَلَوَان . عن قدرة هذا الانسان . فى بدائع الصنع والإتقان . وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل . فى إقامة مثل هذا الاثر الجليل . وكيف جاز لهذا الفانى البائد . أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد . وجلّ صُنع القدير الخالق . فى تصوير هذا الحيوان الناطق .

حيث جعله مصدراً للاعمال المتناقضة . والأفعال المتغايرة المتعارضة فبينا تراهُ يصعد الى أجرام السماء وعوالمها . ويبحث بفكره فى رسومها ومعالمها . ويسير بعلمه فى أنحائها ومناكبها . ويهتدى لحساب أقمارها وكواكبها . اذ تراه يعثر عثرة برجله . فيكون فيها منتهى أجله . أو يكبو فى طريقه . فيغصّ بريقه . ويهوِى باذن الله الى مكامن الخُلْد . وهو طامعٌ فى شجرة الخُلْد . فهو ذاك الذى كبُر وصغُر . وعظُم وحقر . وعزّ وذلّ . وكثُر وقلّ . وصَعد وهبط . وعلا وسقط . وصلَح وفسد . وعَرف وجحد . وسَعد وشقى . وفنِيَ وبقى . وسبحان القاهر فوق عباده

ثم انتقلنا من دور التفكير . الى دور التفسير . وانبرى الباشا يكشف عن ضميره . ويقول لنا فى تعبيره :

(الباشا) ـ كنت أعتقد وأنا فى سالف الاوان . ان هذه البُنْية لمصر تاجُها الذى تفاخر به التيجان . وأعجوبتُها التى تباهى بها الاقطار والبلدان . وشاهدُها الذى يشهد لها بالمدنية والعمران . ولكنى أراها اليوم بعد أن استضأتُ بنور العلم واهتديتُ بهُدَى العقل وبحثتُ فى حقائق الأمور أن لا مزية فيها ولا خير منها سوى انها أحجار مرصوفة . وجنادلُ مصفوفة . لا تمتاز عن جبل

من الجبال . أو تلٍّ من التلال . فهل تعلمانِ لها من معنى غامض التوَى عليَّ فهمُه . أو سرٍّ خفيٍّ عزَّ عليَّ علمه

(الصديق) — ليس لها على الحقيقة من سرّ خفيّ ولا من فائدة بادية سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطُغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرّجعة فى هذه الدنيا بعد الممات وأن أرواحهم تعود ثانية الى أجسادهم بعد أن تتنقّل مدة من الدهر فى أجسام أخرى فكان همُّهم فى حياتهم مصروفاً الى حفظ أجسادهم من البِلَى بعد موتهم فى قبور مشيدة قائمة على الدهر لتعود اليها الأرواح بعد طول التنقل والتطوّر مثل هذه الاهرام وخلافها . والناظرُ فى الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنن فى البنيان والتصوير عند المصريين ينتهى كلهُ الى المعابد والمقابر ولم يكن من أثر انتشار المدنية والعمران كما يتوهمه الواهمون لأنهم كانوا فيما عدا ذلك على حال الخشونة الأولى فى المأكل والملبس والمسكن فترى صور الملوك والأمراء حفاةً عراةً فضلاً عن سائر الرعية وتجد قصورهم وبيوت مُلكهم مبنية بلبِن الطين كأدنى الاكواخ قانعين بذلك فى جانب تسخير الامة بأسرها فى نقل الصخور ورفعِ الاثقال لابتناء مثل هذا البنيان واتخاذِهِ قبراً لهم تُحفظ فى جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة

من البِلى الى يوم الرجعة - ولكن الى المتحف متحف الجيزة - فتسخيرُ الامة المصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإهراق دمائها وإزهاق أرواحها فى بناء هذه الصخور انما كان لمنكرٍ ساقط واعتقادٍ سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة أو من عمل كاهن ماكرٍ لمنفعة له معلومة . ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر ولا من عزة لمعتزٍّ وما هو الا الظلم والغشم والضلال والجهل . وما لهذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدَىْ عدلٍ على سابق الشقاء فى الامة المصرية وما كانت تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد . ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة فى باب ارتقاء المدنية والعمران لكانت هذه الاحجار والصخور مرتفعةً فى بناء القناطر والجسور. وتاللّهِ لَبَانِى القناطر الخيرية مثلاً فى نظر الباحث المدقق أحقُّ بالعزة والفخر من اؤلئك الملوك عُبادِ الاوهام ومستعبدى الانام. وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يُذكر سوى أنه صار يوماً من الايام منبراً من المنابر اعتلاهُ جبّارٌ آخر فرنسوىّ اسمُه نابوليون فخطب من فوقه على جنوده بكلام يهزّ فيهم أريَحيّة التفاخر والتباهى ويخدعهم به ليظلوا على العمى فى طاعته يمارسون الحروب ويعانون

أهوال الوقائع ويصبرون على الموت والقتل فى هواه . وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة الا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة. ومما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين فى شأنه أن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدّى : « إنى ابتنيت هذا البناء فى ثلاثين عاماً فان جاء بعدى من الملوك مَنْ يدّعى القوة والقدرة فليهدمه فى ثلثمائة عام » . ولو عقل المسكين أنه سيأتى عصر من العصور يمكن فيه لأحقر صعلوك أن ينسف هذا البناء فى لمحة واحدة فيجعله كالعهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيماوية لَمَا اغترّ بسعة القوة والسلطان . ولَمَا تحدّى بشىء سلّمه ليد الحدثان . وليس للحدثان من أمان . اللهم إنك تعلم أنه عملٌ ضائع . من جهلٍ شائع . لا ينبغى للمصرى أن يراه الا بدمعٍ منهمر . وقلب منفطر . لانه الشاهد الا كبر على كبرياء كبرائه . وهوانِ أجداده وآبائه

قال عيسى بن هشام ــ وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا وبينهم تلك العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فاتخذوا لهم مجلساً فى ظل

من ظلال الاهرام وانبسطوا على بساط الشرب والنقل . فقطعنا من بيننا حديثنا وانتهينا الى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم فاذا العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق والعالم المحقق :

(العمدة) ـ هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن أصل هذه الاهرام وسبب وضعها وتاريخ تشييدها

(التاجر) ـ كيف لا يكون لي علم بذلك وقد وقفتُ على قصتها تماماً وقرأتها مراراً في كتاب قصص الانبياء عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكن لي ان أقصها عليك حرفاً بحرف : ذلك ان الملك « سودون » كان ملكاً على مصر قبل الطوفان فرأى في منامه رويا أفزعته فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً الى الارض . فقالوا له إن هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الارض قريباً ولا يُبقي على شيء فيها . فارتاع الملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم فأشاروا عليه بابتناء هذه الاهرام حتى اذا حلّ الخطب انتقل اليها واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه . فحشد الملك الالوف المؤلفة من الخلق وسخّرهم لهذا العمل فأتمّوا له هذا البناء

فى مائتين وخمسين عاما ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ونقل اليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز ما تعب الناسُ فى حمله ونقلهِ شهوراً كثيرة ثم إنه جمع السحرة فحصنوها له بالأرصاد والطلاسم. ولما قرب وقت الطوفان لجأ اليها بأهله وحاشيته وطغَى الطوفان فلم ينجُ منه الا أهل السفينة وعوج بن عنق وهذه الاهرام. وعوج ابن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام وُلد فى زمن جدّه وأدرك موسى صلوات الله عليه وذكروا أن ذلك الطوفان الذى علاَ الهضاب والجبال لم يبلغ حدّ ركبتيه فكان يخوض فيه مع السفينة فاذا أحسّ بالجوع مدّ يده الى قاع البحر فيأخذ الواحدة من السمك فيدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية . ولما انقضى الطوفان وعاد العمران الى الدنيا أخذ يعيث فى الارض فساداً دهراً طويلاً حتى بعث الله موسى عليه السلام فشكا الناسُ اليه ما يفعله عوج بن عنق فدعا الله أن يكفيهم شرّه وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حل بهم غضبُهُ فأرسل الله تعالى طيراً له منقارٌ من الفولاذ فما زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت فى رقبة حاملها وصارت غُلاً له يمنعه عن الحركة والانتقال فجاء موسى بعصاه وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعا وطول العصا أربعين

ذراعاً ثم إنه وثب فى الهواء أربعين ذراعًا وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تجاوز كعبيه ولكن قوة سيدنا موسى ألقته الى الارض لانه من أولى العزم فوقع عوج بن عنق فى النيل فحسره عن أرض مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه فكان اذا مر عليه مارّ عند رأسه قال له : اذا وصلت بسلامة الله الى قدمى فامنع عنى مايؤلمنى من هذا الذباب» يعنى الوحوش المفترسة. وبقى على هذه الحال الى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفاً ومغائر تسكنها وكفى الله العباد شره وفساده

(العمدة) — سبحان الخلاق العظيم أرجوك بالله ياأخى أن تشترى لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى الى البلد ليقرأها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الاشغال

قال عيسى بن هشام — وكان الخليع فى هذه الاثناء مشتغلاً بحادثة المرأة متفرغا لها يضاحكها وتضاحكه ويشاربها وتشاربه فلما انتهى التاجر من قصته أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ويقول له :

(الخليع) — هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أنساً وأتم سروراً وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا

(العمدة) — حقاً إنه يوم سعدٍ وأنس غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء وتحت السقف لا تحت السماء. فانك ترى كثرة السيّاح والعربان من حولنا وفى ذلك من التضييق على حريتنا ما لا يخفى عليك

(الخليع) — لا تخش الناسَ ولا تشغلْ نفسك بالخلق واغتنم اللذات بكل جسارة وإقدام وليس للانسان سوى ساعة الصفو إن لم يغتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون. وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح برهة فى الصعود الى الاهرام حتى لا يفوتنا شئ من أسباب التنزه

(التاجر) — دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا وأية لذة بالله عندك فى صعود الجبل واحتمالِ المشقة والتعب مع التعرض للخطر فى كل خطوة

(الخليع) — هذا أمر بسيط جداً وقلّ من يزور الاهرام الا ويصعد فيها مسافة على قدر جهده . وانظرْ الى هذه النسوة الصاعدات النازلات فى أيدى العربان أمام عينك هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال ان نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً وعلى كل حال فلا بدّ لنا من

الصعود قليلا ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو والخلاعة . والسيدة توافقني على هذا الرأى

(العمدة) — وأنا أوافق عليه أيضاً . وعسى الله أن نعثر فى صعودنا على فص من النصوص العتيقة التى طالما عثرت على مثلها فى التل الكفرى بناحية بلدتنا . ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها

(الناجر) — أنا أنتظر كما معها

(الخليع) — لا بل تصعد هى معنا أيضاً اقتداء بهذه السيدات

قال عيسى بن هشام — ويقومون للصعود ويتلكأ التاجر فى أخرياتهم ويحاول التخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قوته ممازحاً له وساخراً منه لشدة تخوفه وحذره والخليع والمرأة يُغريانه به ويضحكان لضحكه وما كادوا يصعدون قليلا حتى حانت من العمدة التفاتة الى الارض فهاله ما بينهُ وبينها من الفضاء فامتُقع لونهُ وارتعدت فرائصهُ ومال على الدليل البدوىّ مستغيثاً به أن ينزله الى الارض متعذراً لأصحابه ان الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود فيدركه الخليع فيسنده مع البدوىّ فيسقط من أيديهما فيحمله البدوىّ على ظهره وينزل به فما يبلغ الارض الا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهى تنادبهم جميعاً ان يبحثوا لها عن فص

الخاتم الذى وقع من إصبعها فيلحق بها الخليع فيبحث فلا يجد شيئاً فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل ويغلب على ظن التاجر ان الفص ربما لم يسقط فى حال الصعود بل فى حال الجلوس ويطلب من العربان ان يدركوه بغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيه. هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنتهى لها شكوى والخليع يُطيّب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الاسف من الحادث الذى كدّر عليهم الصفو وأبدلهم بالانس حزناً وان هذه شيمة الدهر قلّما يتم فيه صفاء او يكمل فيه سرور وما من لذّة الا وهى مشوبة بالألم:

فَسَدَ الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ ... مما يَشُوبُ ولا سرورٌ كاملُ

على أن المصيبة هينة مادامت فى المال دون النفس ومن ذا الذى يدرى بما هو مخبّأ له فى الغيب والحمد لله على اللطف فى القضاء. ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم الى المرأة ويقسم لها انها لا تبيت الليلة الا ولديها فصٌّ مثل الفص الضائع فتشكره وتقول له أنّى لها بمثل ذلك الفص وهو من الياقوت النادر المثال فى لونه وصفائه فيعيد عليها القَسَم بأنه سيأتيها فى الغد بفصّ أثمن منه وأجمل. ثم إنه يشدّ على يدها توثيقاً للوعد فتشدّ على يده للتقبيل فيعزّ عليه

حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص فيخلع خاتمه الذى استخلصه من الرهن ويُلبسها إياه حتى يأتيها بغيره . ويعودون الى مجلسهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس . ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم :

(العمدة) ـ ما أحسن المجلس وما أضيق الوقت وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار

(التاجر) ـ لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية فى ذلك الخان المنحوس

(الخليع) ـ وهل تظن انه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا فى الخان مثل ماتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ماحولها هناك من المزاحمة والمخاصمة

(العمدة) ـ وما العمل حينئذ

(الخليع) العمل أننى أكلفها أن تمارض هذه الليلة وترسل الى صاحب الخان بتعذّر حضورها عنده

(العمدة) ـ نِعمَ الرأى ماترى

قال عيسى بن هشام ـ ويأخذ الخليع فى استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب فتمتنع اولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الخان من

الشروط التي تقضي عليها بدفع عشرة جنيهات اليه تعويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها . فيلتفت الخليع الى العمدة ينتظر رأيه فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض . ثم يدور بينهم الكلام عن الكيفية التي يقضون بها ليلتهم في الأنس والسرور فيرى العمدة قضاءها في البيت ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في القهاوي ويرى الخليع قضاء جانب منها اولاً في مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التي تشخص في « التياترو » العربي . فيقع اتفاقهم على هذا الرأي الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة اولاً وينصرفون على هذا العزم المؤكد . والميعاد المحدد . ويعنّ « للصديق » ان نتخلف عنهم . ريثما تنقضي فسحة الجزيرة بهم . وأن نقضي هذه المدة الوجيزة . في زيارة قصر الجيزة . ثم نلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص . وديوان الروايات والاقاصيص

***

قال عيسى بن هشام ـ ووصلنا الى قصر الجيزة ومتحف الآثار . وملتقى السيّارة من سائر الاقطار . فدخلنا روضة تجري الانهار من بينها . كأنها الجنة بعينها . ولما رأى الباشا مسالكَ الروض منضدّة . وطرقهُ مرصعة مزرّدة . حَسِبَها ارضاً مفروشة . بِبُسطٍ منقوشة .

وأشكل الأمر عليه . فهمّ بخلع نعليه . فقلت طريقٌ معبّد . لا فرشٌ منجّد . وحصباء ومرْو . لا بساطٌ وفرْو . ثم شاهدنا قصراً يكلّ عنه الطرف . ويقصر دونه الوصف . فسرْنا نرتاد خلاله . ونتفيّا ظلاله . فاذا الأُسود مقصورات فى المقاصير . والأساودُ مكفوفات فى القوارير . ورأينا النمور . فى الخدور . والرئال . فى الحجال . والذئاب . فى القباب . والظباء . فى الخباء . فقال الباشا لِمَن هذه الجنان . وكيف يسكنها الحيوان . وما علمت من قبلُ أن الليوث الضوارى . تسكن مغانىَ الجوارى . وأن أوابد البيد . تحتجب فى خدور الغيد . فقلت له سبحان القادر العظيم . هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم . طالما كانت حُجُراتُهُ مَطالعَ للاقمار . ودرجاتُهُ منازلَ للاقدار . كان اذا نادى صاحبُهُ فيه « ياغلام » . شَقيتْ أقوام وسعدت أقوام . ولبّى نداءه البؤسُ والندَى . بأسرع من رجع الصدَى . وكان مَن احتمى بظل هذا الجدار . تحامتهُ غوائل الأزمان والادهار . — هنا كان يفصَل الامر ويُحكَم . ويُنقض الحكم ويبرم . — هنا كانت تنفرط فرائد القلائد . من أجياد الخرائد . فتختلط بمنثور أزهاره . وترُصّع لُجَيْنَ أنهاره . — هنا كانت تتناثر الحليّ من قدود الحسان . فتشتبه بأثمار الاغصان . —

هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد . فتجيبها ذوات الاطواق فوق الأفنان والاعواد . فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة . وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة . وأصبحت أرضه تكترى . وجنى أشجاره يباع ويشترى . ودوى فيه صياح النسور وزئير الأسود . وامتلأت أرجاؤه بعواء الذئاب وهمهمة الفهود . وزال ما كان فيه من عزٍّ وطَوْل . ومجدٍ وصَوْل . وأيدٍ وحول . وصدق الكتابُ فحقَّ عليه القول :

في هذه الدارِ في هذا المكانِ على هذا السريرِ رأيتُ الملكَ قد سقطا

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر . ومليك ذلك المصر . من الجدّ الصاعد . والبخت المساعد . وماصار اليه بعد ذلك من نحوسة السعد . وما دهاه فى الغربة الى سكنى اللحد . وما ذاقه فى هذه الدار دارِ الفناء . من مثل عذاب تلك الدار دار البقاء :

نالوا قليلاً من اللذاتِ وارتحلوا برغمهم فاذا النعماء بأساء

ثم وقف الباشا برهة فكّر فيها واعتبر . وتلا : «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمةٌ بالغة فما تغني النذر»

ثم إننا سرنا فى وسط الحديقة . حتى انتهينا الى دار التحف العتيقة . فدخلناها نشاهد ما أبرزته يدُ البحث من الخفاء الى

الظهور . وما أعادته قوة التنقيب من البِلَى الى النشور . وما صانته ألحاد القبور . من يد الفناء والدثور . وحمته أحشاء الرموس . من العَفَاء والدروس . وما أجنّته أرحامُ المعابد والهيا كل . من بقايا المواضى وخفايا الاوائل . وما انسدلت عليه سُجوفُ الاحقاب . من ودائع الاسلاف للاعقاب . وما انشقّت عنه الارض من مكنون الدفائن . ومكنوز الخزائن وعجائبِ الفن الدقيق . وبدائع الصنع الانيق . بَلِيَتْ فى اصطحابها جدّةُ الايام والليالى . وانحنَتْ على احتضانها ظهورُ العصور الخوالى . ومضت دول بعد دول . وذهبت أُوَل فى إثر اوَل . واندثرتْ مدائنُ ونشأتْ مدائن . وبادت مواطنُ وقامت مواطن . وانقلبتْ الاغوارُ أنجادا . والأبحار أطوادا . وغدا العمارُ خرابا . والغمارُ سرابا . والسرابُ غِمارا . والخرابُ عمارا . وهى هى مصونٌ شكلُها . كما تركها أهلُها . لسانٌ صادق . وخبرٌ ناطق . تنطق بالعبَر . وتحدّث عمن غبَر :

مضتْ غُبَّراتُ العيشِ وهى غوابرٌ على الدهر مكتوبٌ عليها حبائسُ

وأقمنا هناك نتنقّل بين الاصنام والتماثيل . ونتأمل فى التصاوير والتهاويل . ونتفكر فى هذه العظام المنشرة . والرُّفاتِ المُنْظَرَة . بما عليها من الحلى والزينة . وتلك الاحجار الثمينة . كيف كانت

ملوكاً للأمم . ثم بقيت على بِلي الرمم . وتوالى القِدَم . فى حال الوجود مع العدم

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العمائم . مع فتى من الطرز المتحاذق المتعالم . ظهر لنا من أمرهما . وتبيّنَ من شكلهما . أن الرجل عين من أعيان المدينة . وأن الفتى ابنٌ له وزينة . واذا هما يتناظران ويتحاوران . فى مايريانِ ويُبصران . فدنونا منهما . وأنصتنا اليهما:

(الابن) ـ أَشَهِدتَ مَشاهدَ عزّنا ورأيت معاهد فخرنا وعلمت كيف كان مقدار مجدنا والى أية رتبة بلغتْ بنا صناعة أجدادنا فلله درُّهم ما كان أرقاهم فى الفكر وأَبدعهم فى العمل . ولوأن نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة ونزلوا الى ميدان المناضلة والمناظرة لَمَا سبق المصرىَّ منهم سابق . ولا تعلّق بأثره لاحق . ولكان له من بينهم الكعب الأعلى . والقِدحُ المعلَّى . و هذه الآثار فى يده يفاضل بها ويفاخر . وينشد عليهم قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا . . . . البيت

(الوالد) ـ ما أرى شيئاً فى هذه الآثار التى تماجد بها وتفاخر بفوق ما يكون فى السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة وما يتخرّج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية

(الابن) ـ كيف يكون منك هذا القول وهى بشهادة العالم أجمع أثمن من كل ثمين وأنفس من كل نفيس لا تقويم لها ولا تقدير الا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وكيف غاب عنك تهافتُ هؤلاء الغربيين أهلِ المدنية الحاضرة على اقتناء شيء منها بالمال الجمّ وتنافسُهم فى التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الاسفار البعيدة والمتاعب الشديدة . ولا يُعقل وهُمْ هم أهلُ الهدى والعلم أن يشتغلوا بباطل . أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل

(الوالد) ـ لكم دينكم ولى دين . وما أزال اكرّر القول لك بأننى لا أجد فى نفسى شيئاً مما تشعرون به فى هذا الباب . وما أراه من هذه الاحجار والتماثيل لا يساوى فى نظرى الا أنقاض بيوتٍ عَفَتْ أو طلولٍ درستْ وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل أنها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ كان التعلق بها والتمجد بها مما يُغضب الخالق ولا يُرضى المخلوق . وأما قولك إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا لانها من صنع آبائنا وأجدادنا وإن أباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية فانه إثمٌ ونُكر أستعيذ بالله منه «كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواهِهم إنْ يقولون الاّ كَذِبا» ما كان أجدادنا وآباؤنا الاّ اؤلئك العرب الكرام أهل الدين والاسلام لا نفاخر الاّ

بمفاخرهم ولا ننتسب لغير أصلهم. وأما من جهة الصنعة فى كل ما أراه هنا فان صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والاحجار ويتفننون فى تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقن صنعاً من هذه المحجّبة فى القصور . المصونة فى البلّور

(الابن) — عَلِمَ اللهُ لو كان فى لغتنا العربية من الكتب المؤلفة فى مزايا هذه الآثار مثل ما فى اللغات الاجنبية لعلمتَ منها مالم تكن تعلم على أن مجرد النظر يكفى وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات فى حسن الصنعة والدقة . أفلا تنظر الى هذا التمثال البديع تمثال شيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز . فما أدقّ الصنع وأتقن العمل وما أكمل الشَّبَه وأجمل الصورة

(الوالد) — نحن فى كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر . فدعنى على غباوتى وجهلى وباركَ الله لك فى علمك وعقلك

(الابن) بصوت خفىّ — «واغفرْ لأبى إنه كان مِنَ الضالين» — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلُمَّ بنا فقد حلّ الميعاد المضروب بينى وبين ذلك السائح الذى زارنا بالامس لتناول العشاء معه فى «اوتيل شبرد»

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما ـ ماذا تقول فى هذه المناقشة وما دار من الكلام بين الولد و الوالد

(الصديق) ـ ماعساى أن أقول غير ماقاله الله عزّ وجلّ : « فخَلَفَ مِنْ بَعدِهِم خَلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعُوا الشهواتِ فسوف يَلْقَوْنَ غيّاً » وماذا نرى هنا غير الذى رآه هذا الوالد البسيط الساذج : قبورٌ مقلوبة ورموسٌ معكوسة وأجداث منبوشة. فان كان الغرض من عرضها العبرة والموعظة فان فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش . الى خشب النعش . ومن وسائد الحَبَر . الى مساند الحجر . ومن ظهور الصافنات الجياد . الى بطون الديدان فى الأكفان والألحاد . لنِعمَ الموعظة الحاضرة للنظر والحس . والحكمة البالغة للعقل والنفس

(الباشا) ـ هذه هى الحقيقة بعينها فى نظرى الآن . وقد كنتُ أحسب أن لهذه الآثار شأناً عظيما فى مامضى من دهرى عند ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها فى زمن الولاة السابقين ولكن لعل شأنها عندهم وعلوّ قيمتها لديهم هو لأجل توغّلها فى البلَى والقِدَم ومحلّها من التاريخ وما تحمله منقوشاً عليها من أساطير الاولين

(الصديق) ـ نعمْ إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة

عند الغربيين فانما هى كما تقول لتعلقها بمباحثهم فى أخبار الاوائل وفلسفة التاريخ وزد على ذلك حبهم للاقتناء وتولعهم بالاختصاص بالنادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن فى مصر آثاراً تفوق فى القدم مثلها من بقية المتاحف . ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا أفادوك عنها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين ولم تجد بين العشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة «الهيروغليف» أعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية والله أعلم بمقدار علمه بها. ولو تمنيت الأمانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس . ويا ليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم فانها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها فى خبايا الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها الى المتحف وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً على متحف الجيزة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد

بقصر النيل فانها تُعَدُّ بالملايين

(الباشا) ـ كنتُ أرى رأيك هذا وأتمنى أُمنيتك لولا أن يقال إن فى المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بمصر مزيةأدبية لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الاخرى على الآثار والتحف وشدة ضنّهم بها فلا يرغبون مطلقاً فى بيعها والتخلّى عنها ويرون فيها فخرهم ومجدهم فلا يليق بمصر أن تشذّ عن هذا السبيل

(الصديق) ـ إنّ حرص أهل الممالك على مافى متاحفهم من الآثار وتفاخرِهم بها هو لانها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار واشارة الى المجد القديم والعز التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين وما هى إشارة المجد والشرف فى هذه الرمم البالية رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين ـ ولأن الغربيين فى غير حاجة الى قيمة أثمانها فهى عندهم من الكماليات . أما عندنا فالأمر بالعكس ولم تأتنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر . وانما جاءتنا من طريق النبش والحفر . والمصريون فى حاجة الى المال لانفاقه فى ضروريات المعايش وقلّما يمرّ عام الا ويكتشف المكتشفون فى مصر من هذه الآثار الشئ الكثير بحيث يوجد

لكل نوع منها أشباه كثيرة فاضرّ المصريين لو تخلّوا عن بعض هذا الكثير الزائد وعن تلك الاشباه المتعددة وانتفعوا بقيمة أثمانها فى بعض شؤونهم العامة ويبقى فى المتحف مع ذلك من الآثار مايكفى للفخفخة والمباهاة ومباراة الامم فى تشييد المتاحف . وان كان قد جاز لحكام مصر السابقين ان يهادوا ملوك أوربا وأميركا بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم فى الانحاء المختلفة من أقطارهم وأن يغضّوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدى الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لايجوز التخلى عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهى على ماتراه — مالايباع فانه يتقسّم — وجملة القول أن الانتفاع بها اليوم قاصر على الاجانب وحدهم إما بمشاهدتهم لها فى ديارنا أو بانتقالها مسلوبة الى ديارهم . وأيّ عار على الامة المصرية ان تتصرف فى بعض الآثار المتشابهة التى تنبتها لها الكهوف والتلال فى كل يوم لتنتفع بأثمانها فى ترقية شأن المعارف وبث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للارَضَة بالكتبخانة المصرية فى المطبعة الاميرية التى طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة فى أيام الحكومة السابقة حكومةِ الجهل والظلم . وخبّرونى ناشدتكم الله أيّ نفع وفائدة للامة المصرية الإسلامية فى أن تُنشر

بين يديها رمم الفراعنة فى الانتكخانة وتُقبر أرواح العلماء والحكما في الكتبخانة . وأىّ الامرين أعظم نفعاً وأكثر ربحاً أن يُعرض على أعيننا تمثال « إبيس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعمسيس » ونخذ « امينوفيس » أو أن تتداول الأيدى كتاباً للرازى ومقالة للفارابي وفصلاً لابن رشد ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومى . ماتجرى الامور عندنا شهد اللهُ الاّ على التناقض وما تسير الاّ على خلاف المصلحة

قال عيسى بن هشام — وجاء أوانُ الخروج فقمنا نسعى . لنلحق بأصحابنا فى الملهى . ونشاهد ما يتم عليه حالهم . وينتهى اليه مآلهم

* * *

قال عيسى بن هشام — وعُدْنا الى المدينة وقد مَدَّ الغروبُ حبالَته . ليقتنص من الأصيل غزالته . فتفرقتْ نفسُها شَعاعا . واضمحلّ قرصها شُعاعا . وجدّت نافرة الى كناسها . وهى تُصعّدُ الشفق من أنفاسها . ثم اختفت شقائقُ الشفق . تحت أكمام الافق . ولمّا أن اخضرّ من الليل جانبه . وطرّ شاربه وتوقدت مصابيح السماء . فى قباب الظلماء . قصدنا دار التشخيص والتمثيل . وبيت التصوير والتخييل . فدخلنا مع الداخلين نساء ورجالا . أجناساً وأشكالا .

واخترنا لجلوسنا الكراسيّ دون الغُرَف. لتتيسر لنا المشاهدة من كل طرف. ثم جلسنا نحدد النظر. في من حضر. واذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزياؤهم. واتفقت أذواقُهم وأهواؤهم. وعَلاَ ضجيجُهم وصياحُهم. وكثر لعبُهم ومزاحُهم. سبًّا وشتما. ولكزاً ولكما. ثم يتمايل بعضُهم على بعض. ويضربون بعصيّهم وأرجلِهم ظهر الارض. رجالاً وغلمانا. شيباً وولدانا. متظاهرينَ بملل الاصطبار. ومطالبين برفع الستار. ثم حوّلنا النظر الى أعالي الشُّرَف وجوانب الغُرَف. فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر. تشف عن لوامع اللآلئ والجواهر. في نحور الحور. من مكنونات القصور. وبيضات الخدور. ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور. فهنّ يزحزحنَ من الوشي والحبَر. ويكشفنَ عن الطُرر. تضيء بالغُرر. ضوءَ الليل تحت القمر. ويترآينَ ترآئي الكواكب والنجوم. من خلل السحب والغيوم:

وتنقبتْ بخفيفِ غيمٍ أبيضٍ هي فيه بين تخفُّرٍ وتبرُّجِ
كتنفُّسِ الحسناء في مرآتِهَا كَمُلتْ محاسنُهَا ولم تتزوَّجِ

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوّفون. ويتشوّقون ويتلهفون. لا تنثني أبصارهم عن وجهتها. ولا يحوّلون الوجوه عن قِبلتها. فهم

قائمون على عبادتها عاكفون . لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون . وهن يُوالين الضحكات . ويُـالين الحركات . ويتبادلن معهم الغمز . ويتبادلون معهن الرمز . ويتراسلون بمراوح تثير مكنون الهوى والغرام . ويشيرون بمناديل تغني عن فصيح اللفظ والكلام . وقد خرّقت الأصابعُ نسيجَ الأستار . لتنفذ منها رسل الأزهار . وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير . تدني البعيد وتكبّر الصغير . وكل فتى يرى أنه المرمىُّ دون سواه بالنظرات وأنه المعنىُّ بتلك الاشارات . فيتصنع التجمل والتظرف . ويتكلف التأنق والتلطف . وفوق أعلى الشُرفات أقوام وأيّ أقوام . متزاحمين اكواماً على اكوام . كأنهم في سوق من أسواق الأنعام . لا ينتهون فيه عن الشجار والخصام . وتفقدنا أصحابنا في أنحاء الملهى . فوجدناهم في غرفة والعاهرةُ في أخرى . وقد تزيّت بزيّ الاجنبيات فنبذت الخمار والإزار . وتبدّت في القبّعة والزنّار . وهي تغامز العمدة بعينيها . وتشير اليه بيديها . والخليعُ يكون تارةً في الغرفة عندها . وأخرى يظهر في غرفة بعدها . الى أن دق الجرس بالدخول . وارتفع عن الملعب ستره المسدول . وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين . مابين ملحّنين ومرتّلين . على طريقة يمجّها

السمع . ويعافها الطبع . وبكلام مبهم . وألفاظ لاتفهم . كأنهم حداة فى مفازة . أو سعاة فى جنازة . وهم فى أزياء متماكسة . وأشكال غير متجانسة . وثياب تنافرت ألوانها . على أشخاص تباينت أوطانها . وظلوا يعبثون بالاناشيد والتلاحين . ثم انصرفوا عنا بعد حين . ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل . مزجج الحواجب مكتحل . مصبغ الخد والجبين . بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين . فأخذ يخطر ويتثنى . ويهتف ويتغنى . وبجانبه امرأة نصف . تمايل وتنعطف . لاتقل عنه شيئاً فى باب التصبغ والتدهن . والتصنع والتلون . يقول لها فى شكوى الغرام . وشرح الوجدبها والهيام:

« يا حبيبة الفؤاد . وغاية المراد . ما ألطف هـذا الشكل . فهيا بنا نغتنم الوصل »

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم . اذا ساعدتنا أمي نسيم . فدبر أنت ماعليك . وها أنا ذاهبة لأرسلها اليك . »

ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى فى انتظار حضور الأم فتدخل عليه واذا هى عجوز شوهاء وجليانة ورهاء فيتصل بينهما الكلام وينتهى بالقبول والاتفاق ويضع الفتى فى يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ثم ينفرد متجولا ينشد ويغنى مدة من الزمن ثم يذهب

لسبيله وتأتى الأم ومعها زوجها واذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ولم تفده التجارب شيئاً فتحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته فى بيته فيتمنع ويتعلل بقوله : « حقًّا ان ذلك الشاب . هو ألحّ من الذباب . وهو عندى أفسق من الشياطين . وأخبث من البراذين . لا يترك من النساء الدون . ولا العجوز الحيزبون . »

فتجيبه بقولها : « لا تخف أيها الزوج الافضل . فما كل الطيور تؤكل . وابنتنا العاقلة الحلوة . لا يُخشى عليها منه فى الاجتماع ولا فى الخلوة . » ثم يطول الكلام بينهما وينتهى بقبول الوالد ما دبّره له كيد الوالدة . ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقان ويتلاثمان وتقول له فى حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الانيق . على التيسير والتوفيق . فقد سهلت أمى لنا الطريق . ولم يبقَ أمامنا الا استرضاء الخادمة . حتى تكون لاسرارنا كاتمة . فيجيبها : « نعم وان لم تطاوعنا فانها تصبح حزينة نادمة . لانى أُقسم يابنت الكرام . بما بيننا من الحب والغرام أننى اذيقها كأس الحمام . بحدّ هذا الصمصام . إن امتنعت عن تسهيل الارب . بقبول ما فى هذا الكيس من الذهب . »

فتقول له : « آه ياحبيبى ما أطرب الجلوة . وما أطيب الخلوة . حيث نسبح فى بحر النشوة . وهيّا بنا ايها الهمام . فأنى اسمع صوت أقدام .

وعندي الآن أن أحسن طريقة . ان تتنشق نسيم الصبا فى زوايا الحديقة . فيقول لها : « حُفظتِ ياسيدتى ومولاتى . ومنبع حياتى ومماتى . فالآن قد بزغت شمس سعودى . وعطَّر الاكوان عَرف نَدّى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرُهما فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال . وخيانة واغتيال . وأخرى عن اجترام واقتراف . واختلاس واختطاف . ثم يعلو بينهم الضجيج ويصيحون بغناء كأنه ندب وعويل

وعلى هذا ينتهى الفصل الاول ويُرخى عليه الستار ويجدّ الحاضرون حينئذٍ فى الصفير والتصفيق والتأوّد والشهيق كأنهم جميعاً فى نوبة من الصرع أو المسّ . ثم إنهم يتناثلون الى الخروج لشرب الخمر والتدخين ونقيم نحن جلوساً فى مكاننا فيلتفت الىّ الباشا ويقول :

(الباشا) ـ لقد سئمتُ ـ علمَ اللهُ ـ ومللت من منظر هذه المراقص والملاعب فما أشبهها ببعضها وما أجمعها لأشتات النقائص والرذائل على اختلاف أوضاعها

(عيسى بن هشام) ـ ليس هذا المكان فى أصل وضعه بمرقص ولا بملعب هذا هو « التياترو » المعروف عند الغربيين بأنهُ أصل

التثقيف والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسن الاخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو عندهم توأم الجرائد تلك تعظ بالخبر وهذا يعظ بالنظر فيغرس فى النفوس صورة الفضيلة مجسّمة للأبصار بما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل فى الازمان الغابرة أو الحاضرة ويفعل فى النفوس مالا تفعله الرواية والخبر وهى فى بطون القصص والسير فيمثل لك محاسن الفعال ومحامد الخصال وما تأتى به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك معها المصاعب ونالتك المتاعب ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصوّر فظاعة النقيصة ومايكون فى عاقبتهامن السوء وفى أثرهامن المكروه وإن خلبتك بمنظرها ساعة وخدعتك ببهرجها برهة فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ماعساه يردعك عن القبيح ان هممتَ به ويردّك الى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك الى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة الى الشهود ومن القول الى الفعل فتنجذب نفسك الى أنواع الفضيلة من شجاعةٍ وشهامة وكرمٍ ومروّة وأمانةٍ ووفاء وسماحةٍ وسجاحة وصبرٍ وحلمٍ وينفّر طبعك عما تجمعه الرذيلة من دناءةٍ وجبن وخيانةٍ وغدر وجهلٍ وحمق وفحشٍ وفسق

(الباشا) — ان كان الامر كما تقول فكيف تسنّى للمصريين أن

يقلبوا وضعه ويشينوا شكله ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان فلا فرق عندى فيما أنظره هنا الآن وما رأيته فى الحانات الأخرى من الرقص والعزف ومعاقرة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأفضل شكل يغرى به ويهيج من شهوات النفوس اليه . فاذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من ابواب الآداب وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد فان شرّه عندى أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى لأن الداخل اليه لا يرى على نفسه من لائمة يتقيها فى دخوله ولا ينكر على ادبه منكراً فيه ولا يخشى انتقاداً عنده فتسترسل النفس فى غيّها ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً بخلاف الحال فى الداخل الى تلك الحانات فانه يدخلها وهو واثقٌ بأنه قادم على ما يلام عليه ويعاب فيأتيه وفى نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوما عن غيه وجهله . والإقدامُ على المحرّم الصُّراح فيه من تأنيب النفس ما يزجر وينهَى لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهياء والمصيبة العامة فلا وازع من الخجل والحياء ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب .

(عيسى بن هشام) ــ لا تأخذنّ ما تراه هنا من التقصير دليلاً على

أن هذا الفن غير مفيد للآداب فقد قدمتُ لك أنه فن غربيٌّ ووصفتهُ لك بمقدار ماوصل اليه من الاتقان لدى الغربيين وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون الى إتقانه وحسنِ وضعِه وجهلَ الناسُ أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والخلاعه على ماترى . وعذرُ الذين يشتغلون بهذا الفن فى تقصيرهم أنه لابد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا من السعى فى ارتقائه وإتقانه وهم يلومون الحكومة المصرية فى كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل

(الصديق) — قد سمعتُ مقالك وعندى أنه يجب على الباحث فى الامور المتعلقة بتربية الاخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولا الى تأثير التربة والاقليم والى تركيب الغرائز والفِطر والى العادة والعرف . ولا يتحتم أن مايكون ذانفع عندالغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوتِه بينهم . والشواهدُ كثيرة جمة على أن مايكون فى باريس حسناً يكون فى برلين قبيحاً وأن مايكون فى لوندره حميداً يكون فى الخرطوم ذميماً وما يكون فى

رومية حقاً يكون فى مكة باطلا وما يكون عند الغربيين جداً يكون
عند الشرقيين هزلا . ولستُ أرى أن هـذا الفن لو تم لاصحابه
ما يبغونه من وفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به الى حد الاتقان
المطلوب ولا أن يكون له النفع المقصود فى تربيـة الأَخلاق وحسن
الآداب لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق وأَخصُّ بالذكر
منهم أهل الاسلام لا بل ربما كان منه الضرر البحت . ولا يغيب عنك
أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدواره
ولن تخلو قصة من قصصهم التى يمثلونها عن ذكر العشق والغرام وما
من رواية لهم الا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها . وهو
إن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً بهِ لموافقة العادة عندهم
ولكونه شيئاً لا عيب فيهِ يجهر به فِتيانهم وفَتياتهم بل هو أصل
من أصول التزاوج بينهم قضت بهِ رطوبة الإِقليم وضرورة الحال
الى ما يهيج الشعور ويثير ثائرة الخيال لكنهُ غير مقبول عند الشرقيين
ولا مسموح بهِ فى عاداتهم ولا يُدخلونه فى أبواب الفضيلة ومحاسن
الآداب ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر لا التجاهر به والتظاهر .
ولقد جرى العشق فى بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض
والعار الفاضح وكان عند بعض قبائل العرب اذا اشتهر أحد فتيانهم

بعشق فتاة منهم منعوه عن التزوج بها لهذا السبب وربما رفعوا أمره الى السلطان إن شهّر بها فى شعره فيهدر دمه . فهذا العشق الذى هو الركن الاكبر والسبب الاعظم فى حصول التزاوج عند الغربيين هو من أكبر الموانع فى التزاوج لدى الشرقيين والتجاهر به من الامور المكروهة عندهم لطبيعة الإقليم فى حدة المزاج وتوقّد الشعور وتلهّب الاحساس . ثم إن تهذيب الاخلاق بهذا الفن لا يأتى الا من الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد فتشخيص هذه الاقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر فى أمة أخرى ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقاً لأحوالهم وظروفهم جارياً على مقتضى عرفهم وتاريخهم وليس من المقبول عندهم حصول هذا التشهير والتمثيل فى معيشة الأهل والولد وماتنسدل عليه الحجب والستور فى البيوت والدُّور . وليس فى الدين الاسلامىّ ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال فى تأدية هذا الفن لانه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال ويأمرهُنَّ بغضّ البصر فضلاً عن طموحه . ولا من أدب المسلمين ان يُمثّل بينهم تاريخ الاسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على اسلوب يبتدئ بالعشق والغناء . وماذا ترى فى ابى جعفر

عاشقاً وابى مسلم مغنياً وابي الفوارس راقصاً كما يجترئ عليه الآن اهل هذا الفن وذلك اكبر إهانة للاسلاف وأعظم خرف في التاريخ . وإن اردت ان اكاشفك بكل مايجول فى خاطرى قلت لك إن هذ الفن الذى نغالى الغربيون فى إتقانه وارتقائه لم يفدهم ادنى فائدة فى باب الآداب وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير باد لان المعول عليه عندهم فى هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة ويبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات الى حد المبالغة التى يذهب اليها خيال الشاعر . فتوضيح الرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على اصحاب الرذائل فى القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل مدرجة الى تعمق صاحب الرذيلة فى رذيلته وانتفاعه فيها بتلك الوجوه المتنوعة فلا يسبقه اليها سابق . وكم تدرب اللصوص ومهر الاشقياء وبرز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم واخذوا عنها ما كان يعجزهم . ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب فى خفايا الرذائل التى يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الاسباب فى انتشارها ولذلك قالوا إن توضيح الجرائم التى من هذا القبيل فى القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم اليها . وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى

عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيهِ فى شريعته فقال : «ما كنت لأتصور أن يونانياً فى الوجود يقدم على قتل أبيه » فكان قوله هذا أنى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها . واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذى يلحق بأهل الشر منها

قال عيسى بن هشام ـ ودقّ الجرس وعاد الناس الى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح وَزَيَّن السكرُ لأحدهم ان يقوم فيهم واعظاً خطيباً فما زال يهذى فى القول حتى سقط على الارض يتخبط فى قيئهِ ورجيعه • لا فى دمه ونجيعه . ثم ارتفع الستار عن منظر غابةٍ يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تتلفت وتتعثر . ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مُرّ الشكوى من تشويشهم عليه فى غنائه ثم إنه يعود الى ماكان فيه من الغناء ويأخذ بيد خليلته للهروب فيدخل والدها عليها فى تلك الحال فيحول بينها وبين عاشقها فينبرى له الفتى بضربة حسامٍ تلقيه على الارض صريعاً ويدركه قومهُ فيصوّب الفتى عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون الى الفرار وتقع المرأة مغشياً عليها ويقع العاشق

باكياً تحت أقدامها . وعلى هذا يُسدل الستار وينتهي الفصل ويعود الناس الى مكان الشرب والتدخين فنتبع أثرهم ونجلس ناحية فى بعض زوايا الحان . واذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسين جانباً أمام إحدي المنافذ وأمامهم الراح والاقداح مترعة واذا برجل عابس الوجه بيّن الغلظة قد وقف أمامهم يقول للمرأة فى كلامه: «أتظنين أن الهرب وخُلف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسط المطلوب لى منك وانا لاازال أقتفى اثرك منذ الصباح الى الساعة وتحملت فى البحث عنك تعباً عظيما والحمد لله اذ عثرت بك فى هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطيني مبلغ القسط أو تردّى الىّ هذه الحلى التي يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك» ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها فيمنعه الخليع متوسطاً بينهما ويقول له ليس هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك المحاكم . فلا يرجع الرجل عن عزمه بل يقول «انا لا أطالب بحقي أمام المحاكم وأمامي مالى فى صدرها» ثم يمد يده ثانية فتقبض العاهرة على حليها وتميل على العمدة تستغيث به وتستجير فتأخذه الحميّة والنخوة فيدفع عنها الصائغ بيده فيقول له :ان كان قد عز عليك ياحضرة العمدة مطالبة صاحبتك فالشهامة تقضى عليك بأن تدفع لى المبلغ من جيبك لاأن

تدفعني عن حقي بيدك » فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيها فينقد الصائغ الدراهم في الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ثم يقدمها الى المرأة بيد والكاس بيد أخرى فتقبل حافة الكاس شكراً له وحمداً وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين . ويعودون الى شربهم وحديثهم فيقترح العمدة عليهم ان يغادروا هذا المكان الى سواه وأنه يفضل الذهاب الى منزل صاحبته ويطلب من الخليع ان ينظم لهم مجلسا هنالك فوق سطح المنزل في ضوء القمر . وبينما هم في أخذ ورد اذا بصاحب الحان الذي تشتغل فيه المرأة واقفاً على رأسها واضعاً يديه في خاصرتيه يبكتها بقوله . (أهذا هو المرض الذي تعتذرين به عن تأخيرك في هذه الليلة عن الشغل وهذا هو المستشفى الذي تعالجين فيه وأظن ان حضرة العمدة هو الطبيب الماهر في هذا العصر الحاضر » ثم يجرها بيده لتذهب معه الى مباشرة الشغل في الحان فيمسكها العمدة من اذيالها ويقول له : ماهذه الوقاحة وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات في نظير تأخرها عن الشغل في الحان ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها في هذه الليلة » فيقول له : إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه اليّ فقد كذبتْ في دعواها وادّخرتْ الدراهم

لنفسها فإما أن ترد الىّ المبلغ وتتعهدلى بأنك لاتجتمع بهذه المرأة فى غير محلى وإما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذى لا يكفينى فيه دخل أطيانك » ويشتد بينهم اللجاج والخصام فتنبرى إحدى الممثلات الجالسات فى الحان ممن انتهى دورهنّ فتستصرخ البوليس لإخراجهم فيأتى البوليس ويصمم أن يسوقهم الى القسم جميعاً . ونخرج وراءهم لاتباعهم فيأبى الباشا ذلك كل الاباء وينفر عنه كل النفور ويقول أنا لا أتوجه الى القسم لاشاكياً ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً فقد جرّبت مايقع فيه . وكفانى ماعلمتهُ من ظواهره وخوافيه . وقد شعرت بسأم فى النفس . وصداع فى الرأس . فلنذهب الى البيت لنتمتع بشئ من الراحة . ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة. فأجيبه بالطاعة والانقياد. ونترك الصديق على ميعاد

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وما وصلنا البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه . يحاول أن يشتفى بالرقاد من غمه وهمه . فتركته فى غرفته . ورغبت فى النوم كرغبته . وبينا أنا غريق فى المنام . أسبح فى بحر الاحلام . اذ سمعت الباشا ينادينى نداءً متتاليا . فقمت اليه

مسرعا وملبيا . فأخبرنى أن طول التفكر نفى عنه الرقاد . وأورثه الأرق والسهاد . وطلب منى ان نحيي الليلة بالسمر . وأن أقتلها معه بالسهر . فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث . من قديم فى الزمن وحديث . الى ان صارت الليله فى أُخريات الشباب . فاستهانت بالازار والنقاب . ثم دبَّ المشيبُ فى فودها . وبانَ أثر الوضَح فى جلدها . فعبثتْ بالعقود والقلائد . من الجواهر والفرائد . ونزعتْ من صدرها كل منثور ومنظوم . من درر الكواكب ولآلىء النجوم . وألقتْ بالفرقدين من أذنيها . وخلعتْ خواتيم الثريا من يديها . ثم إنها مزّقت جلبابها . وهتكتْ حجابها . وبرزتْ للناظرين عجوزاً شمطاء . ترتعد متوكئةً على عصا الجوزاء . وتُردّد آخر أنفاس البقاء . فستَرَها الفجرُ بملاءته الزرقاء . ودَرَجها الصبحُ فى أرديته البيضاء . ثم قبرَها فى جوف الفضاء . وقامت عليها بناتُ هديل . نائحة بالتسجيع والترتيل . ثم انقلب المأتم فى الحال عرسَ اجتلاء . وتبدّل النحيب بالغناء . لإشراق عروس النهار . وإسفار مليكة البدور والاقمار . وما نشعر الاّ وقد طلع الصديقُ علينا مع الشمس . للموعد الذى كان بيننا من أمس . فسألنا كيف أصبحنا . وهل نعمنا واسترحنا . فأخبرته بما كان . من اتصال السهر الى الآن .

وما كانت تجرى عليه المسامرة . وتدور به المذاكرة . وجملتها أن الباشا لا يزال يدهش مما يراه فى رحلتـه . ولم يكن له أثر فى ايام دولته . ويستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال . من حال الى حال . وما هى الاسباب والعلل . فى انتشار هذا الفساد والخلل . فذكرتُ له بعض ماحضرنى منها . وما علمته عنها . وإنك لخليقٌ أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح . وتخبرنا بما عندك من السبب الصحيح

(الصديق) ـ السبب الصحيح فى ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتة فى البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم كالعميان لا يستنيرون ببحثٍ ولا يأخذون بقياس ولا يتبصرون بحسن نظرٍ ولا يلتفتون الى ماهنالك من تنافر الطباع وتباينِ الاذواق واختلافِ الاقليم والعادات ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف والحسنَ من القبيح بل أخذوها قضية مسلّمة وظنوا أن فيها السعادة والهناء وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الاصول القويمة والعادات السليمة والآداب الطاهرة ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهريًا فانهدم الاساس ووَهت الاركان وانقضّ البنيان وتقطعت بهم الاسباب

فأصبحوا فى الضلال يعمهون وفى البهتان يتسكعون واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الاجانب يرونه أمراً مقضياً وقضاءً مرضياً وخربنا بيوتنا بأيدينا وصرنا فى الشرق كأننا من أهل الغرب . وإنّ بيننا وبينهم فى المعايش لَبعد المشرق من المغرب

(الباشا) ـ قد يكون ذلك ولكن لست أدرى لأَية علة اخذ الشرقيون بباطل المدنية الغربية وارتدَوْا بملابسها ولم يلتفتوا برهة للرجوع الى سابق مدنيتهم الصحيحة وعمرانهم القويم فهم اهل السبق فى ذلك كله وعنهم أخذ الآخذون وقلَّد المقلدون فى كل زمان ومكان

(الصديق) ـ لا أعلم لذلك من علة الا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر وما يتولد عنهما من طول التوانى والتواكل وسوء التراخى والتخاذل فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكترثوا بمستقبلهم وقعدت بهم همّاتُهم عن مشقة التكاليف التى كان يتباهى أسلافهم باحتمالها ويتفاخرون بممارستها . وراق لهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جدّ ولا كدّ فعظم مقدار اهل الغرب فى أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة

عالية فوقهم فخضعوا وذلوا وقهر الغربيون وغلبوا

(الباشا) - ألاَ ليت شعري كيف يمكنني الوصول الى البحث والنظر فى أصول المدنية الغربية ظاهرِها وباطنها وأن أقف على خافيها وباديها فى ارضها وديارها . ولكن بعدت الشقة وعزّ المطلب

(عيسى بن هشام) - لا تستبعد أيها الامير حصول الغرض ونيل المطلب فى يومٍ من الايام فانه لا يزال يدور فى خاطرى أن أرحل معك رحلة الى البلاد الغربية نجتنى منها ثمرات العلم والبحث فان كان هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له امرنا

(الصديق) - وأنا ان شاء الله معكما

قال عيسى بن هشام - ثم قمنا وقد عقدنا النية . على تحقيق هذه الامنية . ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية . فى المبدأ والنهاية

والى هنا انتهى الحديث وتم الكلام . فان كان فى الاجل
مدة باقية . وصلنا هذه الرحلة الاولى
برحلة ثانية . والحمد لله أولاً وآخراً
ومنه المعونة والتوفيق

بدأتُ هذا الكتاب عند طبعته الأولى بخير ما يُبدأ به كتاب بعد اسم الله وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين

لم أرم في ذلك ـ علمَ اللهُ ـ الى التنبيه من ذكري والتنويه بقدري وأستغفره ثم أتوب اليه أن يكون الدافع الى نشرها هذا الغرض دون سواه وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء الى تلامذتهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والاغراء بالتعمق فيه كالطفل توضع في يده قطعة العاج المنقّشة عُلالةً يتعلل بها لتنبت أسنانه بل كان نشرها لانها أثر من الآثار يجب عرضه على النظار • ونفاسة بما يخطه ذلك القلم الجليل في أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يبقى مطوياً في أدراج الاوراق وحقُّه أن ينشر على سائر الآفاق

وأختم اليوم الطبعة الثانية على مثل هذه النية بخير ما يُختتم به القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة على خاتم النبيين: هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا الاستاذ الشيخ سالم بو حاجب شيخ العلماء اليوم وصاحب الافتاء بالمملكة التونسية بعد أن قرأ هذا الكتاب في طبعته الأولى . وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة ويمنا وشرفا وجلالا ممن يمثل لك بالفعل ما يُروى عن السلف الصالح بالقول ويشهد لك بسيرته في هذه الايام كيف كان العالم العامل في صدر الاسلام ويعيد لنا ذكرى البصرىّ في الزهد والتقى والكوفىّ في الرأي والحجى والمكيّ في الفقه والدين والمدني في العلم علم اليقين • هذا الى سعة في الاطلاع وتصرُّفٍ في الافكار ودقة في البحث واستنباط للامور يؤلف الغابر بالحاضر ويطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة في سالف

الأوان وماتقضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق العمر ناسكا يطلب العلـــم بكشف عن أصله وانتقاد

فهو المثال التام الذي ينشده الاسلام منذ السنين والاعوام من بين العلماء الاعلام ليعود اليه مجده و يرتد اليه حقه و يعرف بهم قدره . ولو من الله بمن يأخذ بقدوته فى سائر الاقطار ولو جرى العلماء على مثاله فى كل مصر من الامصار لاستوى الاواخر بالاوائل فى العلم والدين ولعاد الاسلام الى ذلك العز القديم والنصر المبين

محمد المويلحي

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها الجهبذ النحرير . المتصرف فى أحرار الالباب . ورقيق الآداب . بالاسترقاق والتحرير . البالغ من رتب التهذيب أقاصيها . المالك من بدائع التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية . اللائقة بعزة تلك الحضرة المحمدية المويلحية . فقد وصل الى — واصل الله في مدارج الاجادة ارتقاءكم . وأدام لحسن الافادة إتقانكم وانتقاءكم — كتابكم الجليل . الذي يقوم به على تقدمكم فى حلبة العرفان . و براعة البيان . وكمال تربية الانسان . أوضح دليل . فوالذي علم بالقلم . ومنح خير خلقه جوامع الكلم . إن لقلمكم من السحر المبين . ما تخر له سحرة البيان ساجدين . وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التى لمح لتأهلكم لها كتاب الاستاذ جمال الدين . كما يحقق ما يتفاءل به من إسناد مروياتكم لاسم عيسى . و حياء موتى الافكار المؤسسة على حياة من كان فى اللحد رميسا . فيا له من معلم قد علم منه كل

اس مشر بهم . ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربهم . فرجال
لحكم مثلاً سواء كانوا من الامة الاسلامية أو غيرها . يتعرفون منه ملاك عز
لامة ونمو خيرها . بإسناد الوظائف الى اهل المعرفة والفضل . والضن بها
ن غير الاهل . و إقامة منار العلم والعدل . لتدارك ماتخرب بيد الجور والجهل . —
العلماء يدركون به طرق النصح فى التعليم . وعدم النفرة من الحديث لمجرد
كونه لم يُعهد في القديم . مع مايلزم لهم فى اقتياد ذوي الجهالة والعناد من
الملاطفات . والتحذير مما يدنس الشريعة المصونة من مختلق الخرافات . —
الحاكم الغاشم ينتهى بمطالعته بالكف والاعراض . عن كل ما يمس
لمروءة و يدنس الاعراض . — والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهينمة
فظه . و يستلب القلوب بحسن إرشاده و وعظه . وكيف ينتحل الاديب .
مهارة الطبيب . فيشرح النصائح بأسلوب عجيب . لا يتطرقها إنكار أو تكذيب .
وقد يجد المريض من حذق الطبيب عذوبة التعذيب . — ثم يسترشد به الوالد
فى تربية أبنائه . و يدعوهم الى حفظ مجد البيت والثروة بعد فنائه . و يُعينهم
على استثمار دوحة البذور . و ينقذهم مما يُفضى اليه سوء السيرة من الاَسواء والشرور

ملا الله أوقات الجميع بالسرور . ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر
مشكور . واذا كان لا يتيسر لغيركم رعاكم الله أن يصل بقلمه الى منتهى
آماله . فحسبُنا أن نقنع فى أداء الواجب باجماله

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب . من متيم ودكم وأدبكم:

سالم بوحاجب

(جدول الالفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب وتفسيرها)

﴿ حرف الالف ﴾

ابنُ ماء السماء	هو ابن المنذر وكان أسود
الأثيث	شعر أثيث أي كثير عظيم
الأراوي العُصم	جمع أُروية وهو الوعِل . والأعصم مافي ذراعيه بياض وسائره أسود
الأوار	حر النار والشمس واللهب
أسن	أسِن الماء تغيّر فلم يُشرب
الأيد	القوة

﴿ حرف الباء ﴾

البَدرة	عشرة آلاف درهم
البَدين	السمين بَذَّ فاق
الإبلال	الشفاء
البازل	البعير في السنة التاسعة
البزْل	بَزَل الخمر ثقب إناءها . والمِبزَل المِثقب

﴿ حرف التاء ﴾

التلابيب	مافي موضع المنحر من الثياب
التمائم	جمع تميمة وهي عوذة تعلّق مخافة العين

(حرف الثاء)

ثُفال الرَّحى	الحجر الاسفل من الرحى

الثّنِيَّات	ثَنِيَّةُ الطريق مُنعَطِفُهُ
الثـبْرة	مقرُّ المـاء من الارض
ثَبير	جبل معروف
الثُّلة	الجماعة من الناس . والثَّلّة جماعة الغنم

(حرف الجيم)

جَهِرَ	جهرت العين لم تبصر في الشمس
الجَفَنَة	القصعة الـكبيرة
الأجدل	الصقر
الجَلمد	الصخر
الجَحفل	الجيش
يجمجم	جمجم الـكلامَ لم يبينه
الجابية	الحوض
الجندل	الحجارة
جَهْمُ الوجه	سَمِجُ الوجه غليظُهُ
الجنادب	جمع جندب وهو الصغير من الجراد
الجُلُبَّانَةُ	المِهذارة السيئة الخُلُق

(حرف الحاء)

الحصباء	الحصى
الحماليق	باطن أجفان العين
حميم آن	الحميم الماء الحار وآن شديد الحرارة

الحِندِس	الليل الشديد الظلمة
الحيا	المطر
التحدّي	المباراة والغلبة
الحِجَى	العقل
الأَحوَى	النبات الذى يَضرب الى السواد من شدة خضرته
الحُماة	جمع حمَةٍ وهى إبرة العقرب
الحَزْن	ماغلُظ من الارض
الحُبَى	جمع حَبوة وهي ما يُشتمل به من الثياب . وحلّ حبوته بمعنى قام

(حرف الخاء)

الخضراء	السماء
الخَوَلُ	الخدم والحاشية
الخدّ	الحفر في الارض
الخِمس	من أظماء الابل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع
الخَوَرنق	قصر بالعراق
الخميس	الجيش

(حرف الدال)

الدّهماء	العدد الكثير من الناس
الدامس	المظلم
المُدَجّج	اللابس السلاح

الدَّجْن	إلباسُ الغيم الارضَ
الدُّمْيَة	الصورة المنقشة من الرخام أو العاج
المُنْدِيات	المخزيات
الدَّفَر	النتن
الدَّدُ	اللهو واللعب
دَمدمَ	تكلم مغضباً
الدَّهناء	الفلاة
الدَّأماء	البحر

﴿ حرف الذال ﴾

الذَّميل	ضرب من السير
الأذفر	مسك أذفر جيد الى الغاية
ذُكاء	اسم للشمس غير منصرف

﴿ حرف الراء ﴾

الارِهاص	الخارق الذى يظهر من النبي قبل البعثة
الرِّجام	جمع رَجَم وهو القبر
الرمس	القبر
الأردان	جمع رُدْن وهو الكُمّ
الركاب	السروج
الرسيم	ضرب من السير
الارِتكاس	الانتكاس

الرُّواء	حسن المنظر
ارتطم	ازدحم وتراكم
الرُّغاء	صوت الناقة
الرَّسوب	السيف يغيب في الضريبة
الرُّدن	الغزل
الأرقم	أخبث الحيات
الروائم	جمع رَؤوم وهي التي تحب وتعطف
الرئبال	الاسد
رَضْوي	جبل معروف
المُرقِد	دواء يُرقد شاربَه
الرئال	جمع رأل وهو ولد النعام

﴿ حرف الزاى ﴾

الزُّؤام	الموت الزؤام الكريه أو المجهز
الزَّبير	الحمأة
الزِّبرِج	الزينة
المزَجَّجة	زَجَّج الحاجب دققه وطوَّله

﴿ حرف السين ﴾

السيال	جمع سَيَالة نبات له شوك أبيض
سَوامُ بني السِّيد	السوام الابل الراعية . و بنو السيد قبيلة تكثر فيها الابل السود والحمر

السِّعلاة	الغول جمعه سعالي
الاستعاط	استعط الدواء أدخله في أنفه
السَّنا	البرق · والرفعة
سدِرَ	سدِرَ الرجل تحير بصره
السِّناد	من عيوب القافية
الاسفاط	جمع سَفْط وهو الوعاء
أسَفَّ	طلبَ الامور الدنيئة
السَّخْل	ولد الشاة
السدِير	قصر معروف
السُّجوف	جمع سجف وهو الستر
السَّبال	مقدَّم اللحية
تسكّع	تسكع الرجل تمادى في الباطل
السَّيَّارة	القافلة وأصلها القوم يسيرون
الاساود	جمع أسود وهو العظيم من الحيات

(حرف الشين)

شقائق النعمان	زهر أحمر
الشاكي	التامّ السلاح
الشوَيْهة	تصغير شاة وهى واحدة الضأن
الشَّنف	القرط
الشُّؤون	عروق الدمع من العين

شَرْوَى	ماله شروى أى ماله مثل
الشماريخ	جمع شِمراخ وهو رأس الجبل
الشَّرْب	جمع شارب للخمر
الشمطاء	التى خالط بياض رأسها سواد

(حرف الصاد)

الصفائح	حجارة القبور
الصِّيد	جمع أصيد وهو الملك المتكبر الزاهي
صعَّر خَدَّه	أمال خده تكبرا
الصلال	جمع صِلٍّ وهو الحية
المُصَلِّي	السابق
المُصْعَب	الفحل الصعب
الاصمّة	صِمامة القارورة سدادها
الصُّبابة	البقية في الاناء

﴿ حرف الضاد ﴾

الضال	السدر البري

﴿ حرف الطاء ﴾

الطَّلح	شجر عظام يرعاها الابل
المطمورة	الحفيرة تحت الارض والسجن
الطِّيَّة	مضى لِطِيته أي لنيته التي انتواها

(حرف الظاء)

الظُّنبوب	حرف الساق
الظُّباة	جمع ظُبة وهو حد السيف
الظئْر	المُرضِع
الظَلْم	ماء الاسنان و بريقها
الظَّرِبان	دويبة كالهرّة منتنة الرائحة

(حرف العين)

العانى	الاسير
العافي	طالب الرزق والمعروف
عَزّةُ	صاحبة كُثيّر التي كان يتشبب بها في شعره
العبير	أخلاط من الطيب
العَصْب	ضرب من البرود
العِقيان	الذهب الخالص
العُباهر	النرجس
عوالى المران	الرماح الصُّلبة اللدنة
المعاطن	جمع معَطن وهو المنَاخ
العُراق	العظم اكِلَ لَحْمُه
العِشْر	مِن أظماء الابل
العَرين	مأوى الاسد
العَجاجة	الغبار والدخان
العجفاء	المهزولة

العِرّيسة بيت الاسد
مُعَبَّد طريقٌ معبّد أى مذلّل

(حرف الغين)

الغُمَار جماعة الناس
المغانى جمع مغنى وهو المنزل
الأغمار جمع غِمْر وهو الجاهل الابله
الغيهب الظلمة
الغرائر جمع غرارة وهي الجُوالق
الغيداء المرأة المتثنية ليناً
الغِرّ الشاب لاتجربة له
الغَرِيض الطرىّ
الغاشية الخدم والضيوف
الغزالة الشمس
الغُمَرُ قدح صغير جمعه غِمار
غَمغَمَ غمغم الكلامَ لم يبينه
الغلالة شعار يُلبس تحت الثوب
المِغْفَر زردٌ ينسج من الدرع على قدر الرأس
الغِسلين مايسيل من جلود أهل النار
غُبَّرات غُبَّرُ الشئ بقيتُهُ
غوابر جمع غابر وهو الباقي والماضى ضِدٌّ

﴿ حرف الفاء ﴾

المفازة	الفلاة لا ماء فيها
افتلى	استخرج وتأمل
الفريغ	الواسع
الفِدام	الخرقة على فم الابريق
الفَوْهاء	الواسعة الفم
الفوْد	معظم شعر الرأس مما يلى الأذن
الفهود	جمع فهد وهو سبع من السباع

﴿ حرف الكاف ﴾

الكُماة	جمع كميّ وهو الشجاع لابس السلاح
الكافر	الليل
الكِلَل	جمع كِلة وهى الستر الرقيق

﴿ حرف اللام ﴾

لجيْن	الفضة
لعاب الشمس	شيء كأنه ينحدر من السماء اذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت
اللّجب	جيش لجبٌ أى ذو جلبة وكثرة
لِماما	أحيانا لَسَبَتْهُ لدغته

﴿ حرف الميم ﴾

المِرط	كساء من خزّ يؤتزر به

المزهر	العود
الممعود	الذى بمعدته وجع من مرض
المُرار	شجر اذا أكلته الابل قلصت مشافرها
المرير	القوة والشدة
الأَمشاج	جمع مشَج وهو الشيء المختلط
المَرهاء	التى ابيضت بواطن أجفانها
المرو	حجارة بيض رقاق برّاقة

﴿ حرف النون ﴾

نوَارُ	امرأة الفرزدق التي كان يتشبب بها		
النّصَف	المرأة الوسط بين الحدثة والمسنة		
النِّكس	الرجل الضعيف الدنيء		
النياط	عرق نيط به القلب الى الوتين		
النُّمرق	الوسادة الصغيرة		
النحيزة	الطبيعة		
أنهَرَ	أنهر الدمَ أساله		
النبراس	المصباح		
نكز	نكص	النّجاء	سرعة السير
الاستنفاض	أهل الاستنفاض هم الذين يُبعثون فى الارض يتجسسون		
المنحات	آلة النحت كالقدوم		
المنضدَة	شيء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت		

(حرف الهاء)

الهشيم	نبت يابس متكسر
الهجر	القبيح من الكلام
المهيع	الطريق الواسع البين
أهرت الشدقين	الواسع الشدقين
التهاويل	زينة التصاوير والنقوش

(حرف الواو)

الوصيف	الغلام		
الوغد	الرذل الدنيء		
وَجب	وجب القلبُ وجيباً خفق ورجف		
وجَم	وجم الرجل سكت من كثرة الغم		
الوخيد	ضرب من السير السريع		
الايطاء	من عيوب القافية		
الوَرد	الجريء من صفات الاسد		
الوجناء	الناقة الشديدة		
الورهاء	الحمقاء	الوِجار	جحر الضبع
الوَضَح	بياض الصبح		

(حرف اليـاء)

اليراعة	الذبابة

﴿ بعض مطبوعات المكتبة « الازهرية » بالسكة الجديده * بمصر ﴾

﴿ لصاحبها « محمد سعيد الرافعي » الكتبي ﴾

مصحف شريف وعلى هامشه تفسير الجلالين بالتمام بخط مثل خط الحافظ

مصحف شريف بهامشه تفسير الالفاظ اللغوية يمكن حمله فى الجيب

تفسير الامام الجليل أبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى

تنزيه القرآن عن المطاعن إملاء قاضى القضاة عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ ومعه

مقدمة التفسير للراغب الاصفهانى وهى من أهم المقدمات

إحياء القلوب للرافعى الكبير على متن الحكم للامام الشيخ الكردى

نهج البلاغة بالشكل التام بشرح المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصريه

ديوان الحماسة بالشكل التام بشرح مختصر من الشروح المطولة للرافعى

المزهر لجلال الدين السيوطى وهو جزآن

تاريخ الاخبار الطوال لابى حنيفة الدينورى عنونه وصححه الاستاذ الشيخ الخضرى

تاريخ الفخرى المعروف بالآداب السلطانية مشكول ومشروح للرافعى

مقامات الحريرى طبعه ميرى مذيلة ببيان الالفاظ اللغوية

الحصون الحميدية لمحافظة العقائد الاسلامية للمرحوم الشيخ حسين الجسر

مقامات الزمخشرى مع شرحها للمؤلف بالشكل التام مذيلة (بمائة حكمة) لسيد ناعا

حديث عيسى بن هشام لاشهر كتاب العصر سعادة « محمد بك المويلحى

أطواق الذهب للزمخشرى بشرح لطيف للرافعى بالشكل التام

أطباق الذهب للاصفهانى بالشكل التام والشرح للرافعى مذيل بمقامتين لابن الخطيب

الاضداد فى اللغة لابن الانبارى بالشكل

نيل المراد فى تشطير الهمزية والبردة وبانت سعاد بالشكل التام والشرح للرا

دلائل الخيرات بحجم صغير تحمل فى الجيب باحسن خط واضح

العلم الخفاق فى علم الاشتقاق لصديق حسن خان

شرح التدريب لما فى التهذيب فى المنطق

(ويوجد أيضاً فى المكتبة المذكورة كثير من الكتب العلمية المفيدة)